دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية

- الملف الكامل لإحياء الدراسة بالطور الابتدائي من جامع القرويين بفاس في إطار الكراسي العلمية
- العامية والفصحى في القاهرة والرباط
- الآفاق التي فتحها القرآن أمام فكر الإنسان
- مخطوطات علي بن ميمون الغماري بالمكتبة الظاهرية
- عودة الروح



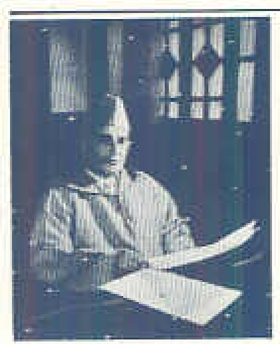
الثمن : 4 دراهم.

العدد 272 ربيع الأول والثاني / نونبر - دجنبر 1988



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور لـه
محمد الخامس
قدس الله روحه

سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة
و
التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

*

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العالم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

بسم الله الرحمن الرحيم



حدث سعيد عاشه في الأيام الأخيرة، جامع القرويين، أحيا بارق الأمل في النفوس، وبعث الرضى والتفاؤل في القلوب، وأبان عن صحوة إسلامية واعية مباركة، تعيد لهذه الأمة الإسلامية مجدها الناهض، وبطولتها الموروثة، وعزها التليد.

وإنه لحدث عظيم، وبعث إسلامي صحيح، تألق وميضه في جميع البيوت، وشع نوره في حنايا القلوب، وتهلل سره في قسمات الوجوه...

ذلك الحدث الكبير الذي تجلى في تلك التظاهرة الإسلامية التي شهدتها رحاب القرويين العامرة حيث دشن، بأمر من صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري الذي ترأس الحفل الافتتاحي للطور الابتدائي الأول من الدروس في جامع القرويين. في يوم مشهود، وعيد إسلامي رائع، أعاد لهذا الجامع اعتباره، والذي كان، إلى وقت قريب، منيعاً بالدرس، وعزيزاً بالعلم، ومستقلاً في حمى الله، لأنه المعقل الوحيد الذي انتهت إليه أمانة الرسول، واستقرت به وديعة السلف، واستعصمت فيه لغة القرآن.. كما كان لعلمائه مكانة في القلوب، ومهابة في النفوس، لأنهم حرّاس العقيدة، وحماة الشريعة وهداة المحجة، وورّاث النبي، ودعاة الله...

ومن بشائر الأمل في النهوض، ودلائل الثقة بالفوز، أن صاحب الجلالة أمير المومنين جلالة الحسن الثاني قد أذن لوزيره في الأوقاف والشؤون الإسلامية أن يعطي الانطلاقة المباركة لبدء الدروس،

ويستأنف جامع القرويين، موئل العلم ومعقل الآداب، دوره من جديد، ليحي دروسه القديمة، ويهيء برنامجاً ونظاماً تربوياً صالحاً لبناء مجتمع يكون فيه الدين قائماً، والضمير حاكماً، والعمل عقيدة، والإحسان طبيعة، والمسؤولية مفروضة.. وبذلك انبثق الأمل من جديد في أن هذا الجامع سيعود ويقود، وان الإسلام سيحكم ويسود، فالثقافة الأصيلة هي قوام الأمم، وَمَنْآد الشعوب، ولا تنزل أمة عنها إلا إذا نزلت عن ذاتها، وزلّت عن مستواها، إذ خضوع الثقافة القومية بلاء، ليس يعد له بلاء، على هذه الأمم، لاتسلم عليه وحدة، ولا يستقل معه وطن، ولا يلتئم به عقد...

إن جامع القرويين لم يزل صامداً، أمام تفاقم الأحداث، ووثبات الدهر، ثابتا في وجه الغير والحدثان، تقصف العواصف، وتتوالى الرواجف والروادف، وتتكسر على صَفَاتِهِ كل المعاول والمطارق، ورغم كل ما أصاب جامعته، في بعض الفترات القديمة والحديثة، من المحن والإحن، ولا سيما في عهد الاستعمار الدابر الكافر، فإنها مازالت شامخة صامدة، قائمة ثابتة تتحدى كل من أراد بها السوء، إذ ليس لها، منذ القديم، منافس في الجلالة والنبالة، ولا مجاريالها في القدم والأصالة..

☆ ☆ ☆

لقد ظل جامع القرويين، إلى حين، في موقفه، فلم يسر، وأخذته الصيحة من كل مكان فلم ينتبه، وبقي ساكنا ساهماً في الظل الذي خيم عليه، والسكون المخيف الذي أحاط به، والصمت الرهيب الذي ران عليه، حتى قيض الله له جلالة الحسن الثاني حفظه الله، فنفخ فيه من روحه، فهب كل وسنان، واستيقظ كل غافل، وانتعش كل ذابل، ورجع للجامع القروي اعتباره، وحقق الله على يد الملك الصالح المصلح مايريده لأمته وشعبه من وجود أدبي، وكمال مطلق، وعزة إسلامية بإعزاز دين الله...

☆ ☆ ☆

ولعل من مزية هذا الجامع العظيم أن يَمْرُن مع الزمن ويتجدد بالعلم الصحيح، ليلائم كل عصر، ويعالج كل حالة بما كان يمتاز به من المرونة البصيرة التي توجبها سنة الحياة وتستلزمها مقتضيات التطور، فلا يكون بدونها إصلاح، ولا تقدم ولا نهوض.. ولم يصب جامع القرويين في العقود الأخيرة بهذا التوقف والجمود، إلا لأنه فقد عنصر المرونة، فثقافته المشتقة من مصدر الوحي، متى اتصلت بتيار الفكر الحديث، تفاعلت وامتزجت، فيكون من هذا التفاعل والتمازج

مايريد به الله تجديد دينه، وإدامة ذكره، وكفاية شرعه، بما يلائم طبيعة التقدم، ويوائم فطرة الله...

ونقر بأننا قصرنا في جنب هذا الجامع، فلم يعد عامراً كما كان في السابق، وأحسنا ببعض الإهمال في حقه؛ والشعور بالنقص، أول مراتب الكمال، وتغير النفس، إيذان بتغير الحال.. وبهذا النظام، يحتفظ، اليوم الجامع القروي بقديمه، ويشارك في جديد الناس...

☆ ☆ ☆

لقد انبلج نور الإصلاح من جبين الحسن الثاني حفظه الله الذي كان وَكْدُه، دائماً، أن ينعش الدين من هذا الخمود. ويخرج الجامع من هذا الركود، وينقذ الطلاب الذين يعكفون على معاناة الدرس، ويقنعون بميسور العيش.. هؤلاء الطلبة الذين هم أرض طيبة تشتمل على مذخور الحياة، وموفور البذر، فلا تنتظر غير المحراث والغيث، والدفء والحرارة...

إن العرش المغربي كان دائماً في مركز القيادة والريادة، معبراً عن ضمير الأمة، ومعرباً عن شعورها، ومنفذاً لرغباتها وتطلعاتها وأشواقها، عالماً بمواقع الخير منها، وفاهماً لمعنى المجتمع الحديث الذي تعيشه، حيث الخواطر مشتركة، والدواعي مستوية، والنوازع متآزرة...

وإن لهذه الدولة العلوية الشريفة صفحات ما زال إشراقها يضيء جوانب الحاضر، وغياهب المستقبل، وأعمالاً بطولية سجلها تاريخ المغرب في صفحات الخلود، ولا سيما واسطة عقدها النضيد، هامة المجد، وغرة الشرف مولانا الحسن الثاني الذي ادخره الله لهذا الشعب البطل العظيم الذي خرج منه، ونبغ فيه، واعتمد عليه، ونافح دونه، فكان منه موضع القداسة، ـ وفيه موطن الرجاء، وعليه محل الاعتماد.

☆ ☆ ☆

لقد قدم ملوكنا العلويون لهذه البلاد العزيز في رحاب المعرفة والعلوم، والثقافة، أجل الخدمات، وأسمى العوارف، وأسنى المنجزات والمشاريع، مما ساعد على امتداد السلطان، واستبحار العمران، واستتباب الأمن، فلم تشغلهم قصور تطاول السماء، ورياض مونقة تنافس الجنة، وضياع ممرعة خصبة نامية، ولم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، بل صدقوا الجهاد، وأخلصوا النية، وأحسنوا العمل، فسلكوا منهاج الأئمة، ونهجوا طريق السلف، واتبعوا سبيل المومنين، وتجهزوا بجهاز العصر، وكانوا لله قانتين...

وقد وجهوا عنايتهم ورعايتهم للحركة الفكرية والعلمية التي يخصب في ظلها العقل وتتفتح الملكات، وتسمو الإنسانية، وأقاموا

قواعدها على التشجيع والعون، والرعاية والتنويه، فأزهرت الحضارة، وبسقت فروعها، وأينعت ثمارها، وأخصبت مرابعها، فتقوت المدارك، وتهذبت العادات، وأصبح الشعب متآلفاً متجانساً، متماسك البناء، متضامن الأعضاء، يقطع حياته الراضية رافهاً لايمسه فيها نصب ولا يمسه فيها لغوب...

ومولانا أمير المومنين تعهد، بإحاطة واسعة، وثقافة شاملة، وإدراك قوي، منابت الثقافة الحق، فغذاها بعونه، وأرفدها بماله، وبسط رعايته ومؤازرته للنهوض بها.

لقد أحيا معاهد العلم، فنفقت سوقها، وشجع العلماء، فازدهرت أيامه بالمعارف والعلوم، وتقدم صفوفهم في سبيل بعث حركة الإصلاح والتجديد، فوقفوا وراءه، حفظه الله، صفاً واحداً، ورأياً جامعاً، وعزيمة صادقة؛ وجدد أساليب الكتاتيب القرآنية، وأنعش وجودها، وقوى برامجها حتى يبقى حبل هذا الدين موصولاً، وخلافة الله قائمة، ودستورها نافذاً، فكان حفظه الله موفق المسعى، مسدد الخطى، ملهماً بالصواب...

وفي عهد جلالة الحسن الثاني عادت المجالس العلمية السلطانية إلى نضارة شبابها، وغضارة بهجتها، وروعة جلالها، فأصبحت تلك المجالس مجالاً رحب الحدود، يتبارى حوله أقطاب العلم، وصدور العلماء، ورجال الفكر، ودعاة النظر في ميادين العلوم العقلية والنقلية، والمعارف الحديثة العصرية التي تشمل شؤون الدين، وعلوم الفلسفة، وضروب المعرفة، وثقافة العصر... وهاهو حفظه الله، يتقدم برعايته السامية لإعادة الروح والبسمة إلى جامع القرويين الذي عصم القرآن ولغته وعلومه من طغيان الفتن والأحداث منذ أن أسس على تقوى من الله ورضوان.

وان من حق هذا الشعب الشكور، العربي المسلم، أن يسجد لله شاكراً على هذه المبادرة الملكية السامية التي جددت لجامع القرويين حياته العلمية والثقافية، وحققت ما كان يصبو إليه كل مواطن مسلم في كل مكان في إنعاش الحياة الفكرية والثقافية بهذا الجامع العظيم...

«دعوة الحق»

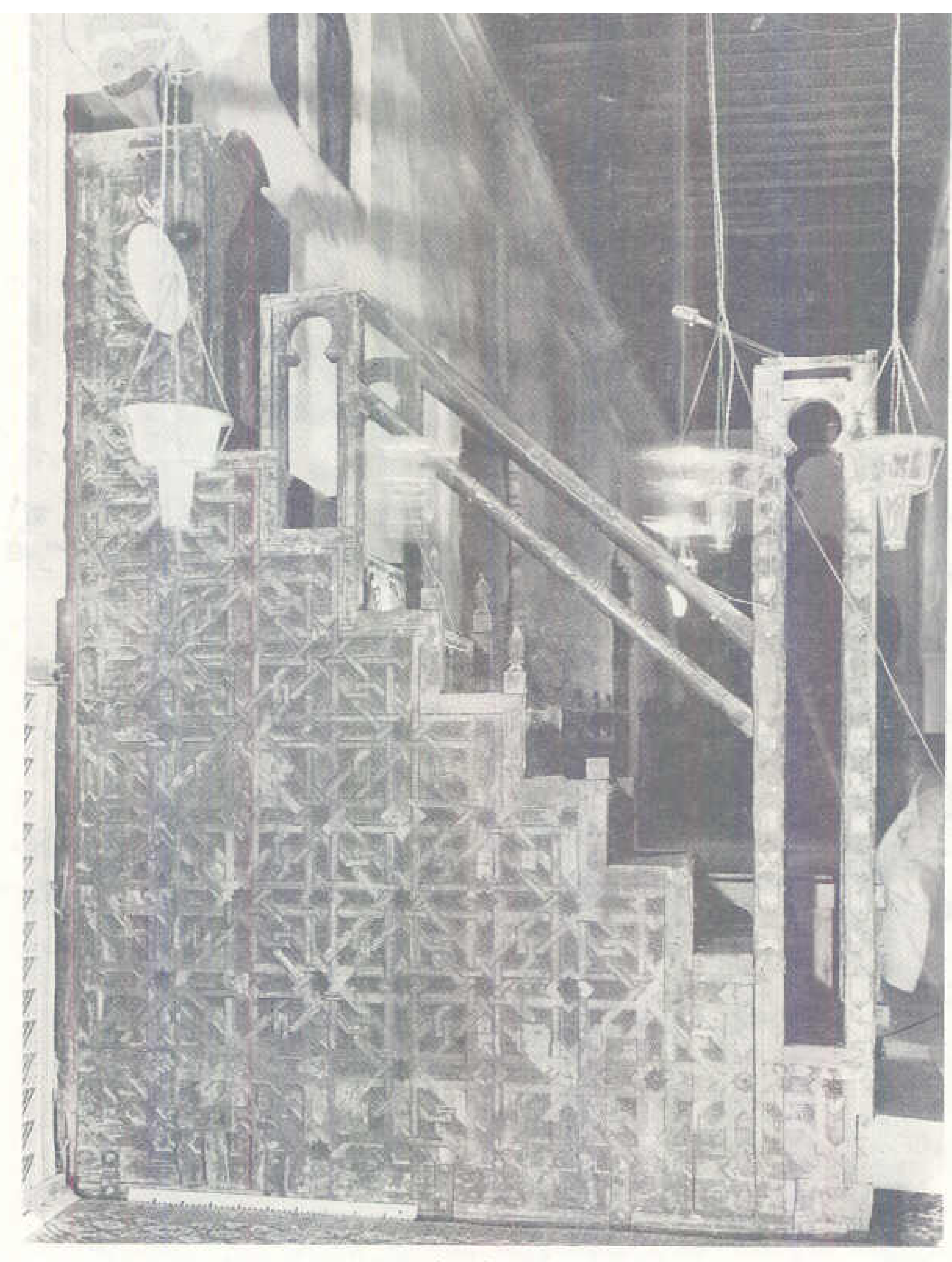
الملفُ الكامِلُ

لإحياء الدّراسة بالطّور الابتدائي

من

جامع القرويين بفاس

في إطار الكراسي العلميّة



منبر جامعة القرويين بفاس عملت فيه أيدي أندلسية، على هذا المنبر كانت تنشر القرارات الهامة للدولة، ظلَّ اللِّسان الناطق للدولة... وظلّ المكان الذي يتنافس الملوك على تزكية بيعتهم من أعلاه.

كما استمر مفخرةً للعلماء أن يوجّهوا منه خطبَهم للجمهور...

إحياء الدروس العلمية الأصيلة بجامع القرويين:

إعادة الحياة لنمط أصيل من الدراسة سيكون متكاملا مع التعليم العصري

ومرة أخرى يسجل التاريخ الصادق الأمين، وبأحرف وهاجة من نور، لما لمولانا الإمام أمير المومنين، وسبط النبي الأمين جلالة الحسن الثاني حفظه الله وأيّده من حسنات في رحاب المعرفة والعلوم، وعناية فائقة بالمعاهد والمدارس واهتمام بالغ بالعلماء والمدرسين، دعاة الله، وَوُرّاث الرسول، وهداة الشريعة..

فالحسن الثاني، حفظه الله، ما فتئ، ومنذ أن تقلّد مسؤوليته العظيمة، يجدّد للمعاهد العلمية شبابها العائد، وجمالها المبعوث، ويعمل على إحياء ما اندرس من العلوم الإسلامية أو كاد، وذلك بإيجاد نظام تربوي صالح لبناء مجتمع مسلم يكون انموذجا لما كان عليه السلف، وطليعة لبعث إسلامي رائد تحماسه صفوة مختارة من الشباب المسلم.

تجلّت هذه المكارم والمزايا والمبرات في الحفل الديني الرائع الذي شهده جامع القرويين، وفي يوم مشهود ومظهر رائع حيث تم فيه الافتتاح الدراسي بالطّور الابتدائي الذي تم تدشينه في جو من الخشوع والأبهة والجلال، وبحضور العلماء، ورجال الدولة والطلبة، وجموع غفيرة نزحت إلى الجامع من كل جهة ومكان...

لقد قام جامع القرويين، في مختلف عهوده الزاهرة، وعصوره الزاهية، بدور كبير في نشر العلوم والمعارف، واهتم بتخريج العلماء الأعلام وصدور الأئمة والفقهاء الذين أنضجوا الرأي، وأجمعوا الكلمة، فجملوا الوجود، وزينوا المجتمع الإسلامي بما قدموه من عطاآت فكرية وعلمية وأدبية وحضارية... كما قام هذا الجامع الشامخ ببث الفضيلة، وغرس الأخلاق في النفوس، والإصلاح في المجتمع، بما كان له من إشعاع وهاج، امتد نوره إلى الآفاق الرحبة البعيدة في إفريقيا وأوروبا، وجهات كثيرة من بقاع الأرض، ورقاع الدنيا.

وقد أدرك ملوك هذه الدولة العلوية الشريفة عظمة جامع القرويين ودوره الديني والحضاري فلم يفتأوا يواصلون العناية به ويوالون الرعاية لمشايخه وطلبته ويتنافسون في ذلك حتى آل الأمر إلى واسطة عقدهم أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني الذي أمر بإحياء الكراسي العلمية في هذا الجامع المبارك فتم ذلك وفق المرغوب ونشط العلماء ونهضوا للتدريس بروح عالية وعزيمة مثالية وازداد الاقبال على دروس هذه الكراسي وظهر أن القرويين ما زال قابلا للعطاء مستعدا للبذل والسخاء كما كان على عهدنا به منذ تاريخ تأسيسه.

ولما كان الأمر كذلك اتجه العزم إلى إحياء الدروس التي كانت تلقى في رحاب جامع القرويين على الكيفية والنظام والمنهج والطريقة التي كانت عليها في إطار الكراسي العلمية، حتى يعود لهذا الجامع تاريخه الممتاز، ووجوده المستقل، وطابعه الخاص، ووحدته الكاملة، ومدنيته الأصيلة... وفي ظل السياسة الرشيدة لمولانا أمير المؤمنين والهادفة إلى إحياء علوم الدين وشريعته الغراء، استدعت الوزارة لذلك نخبة من كبار علماء القرويين وبينت لهم ما تريده وتتطلع إليه. وطلبت منهم التفرغ لإعداد الملف الذي يرسم الطريق، ويحدد المنهج، ويحصر وسائل العمل، ويضبط الخطة لتحقيق هذا المقصد الجليل، والغرض النبيل، ففعلوا وتفرغوا قرابة شهر بذلوا فيه من الجهد ما سيجعل ثوابهم عند الله إن شاء الله جزيلا.

وبناء عليه فقد تم الإعلان بواسطة الإذاعة والتلفزة والصحافة والملصقات في النظارات، والمجالس العلمية، عن إجراء مباراة للالتحاق بالسنة الأولى من الطور الابتدائي لمتابعة الدراسة بجامع القرويين، وتتكلف نظارة أوقاف القرويين بصرف المنح للطلبة واسكانهم والاشراف على سير الدراسة.

وقد أعلنت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية إلى الراغبين في الدراسة بكيفية منتظمة في جامع القرويين بفاس أنها ستنظم في إطار الكراسي العلمية التي أمر بإحيائها أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله دراسة منتظمة تبتدئ بالسنة الأولى من الطور الابتدائي على غرار ما كان معمولا به في هذا الجامع العامر وستجرى مباراة للالتحاق بهذا الطور للمرشحين الذين تتوفر فيهم الشروط الآتية :

1) استظهار القرآن الكريم.

2) حفظ المتون العلمية.

3) أن لا يزيد سن المرشح عن عشرين سنة.

4) أن يرفق طلبه بشهادة الازدياد وأربع صور شمسية وأربعة أظرفة وأربعة طوابع بريدية وستخصص للمقبولين منح إعانة لهم على متابعة الدراسة بانتظام وأن على الراغبين في هاته الدراسة أن يبعثوا طلباتهم إلى وزارة

الأوقاف والشؤون الإسلامية (مديرية الشؤون الإسلامية) أو إلى نظار أوقاف القرويين بفاس في أجل أقصاه عاشر اكتوبر 1988 الماضي.

ويتولى إلقاء دروس السنة الأولى من الطور الابتدائي بجامع القرويين نخبة من العلماء خريجي هذه المؤسسة العريقة.

وتشتمل السنة الأولى على دروس في المواد التالية :

المواد	الكتب	الساعات
التوحيد	عقيدة الرسالة بشرح أبي الحسن	3
الفقة	فقه المرشد المعين بالشرح الصغير لميارة	5
النحو	الأجرومية بشرح الأزهري	5
الصرف	متن الزنجاني بشرح السعد	3
الأدب	لامية ابن الوردي بشرحها	3
التاريخ	تاريخ الأدارسة والمرابطين ـ بتحضير الأستاذ	2
الجغرافية	مبادئ الجغرافية ـ بتحضير الأستاذ	2
الحساب	العمليات الأربع ـ بتحضير الأستاذ	3
التجويد	القواعد العامة للتجويد	2
اللغة الأجنبية	الفرنسية ـ بتحضير الأستاذ	2
		30

وفي هذا الإطار عقد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، بحضور الكاتب العام للوزارة، وعامل صاحب الجلالة على إقليم فاس، عشية يوم الخميس 20 ربيع الثاني عام 1409 هـ الموافق فاتح دجنبر سنة 1988 م، اجتماعا مع العلماء الذين أنيطت بهم مهمة إحياء هذا التقليد العلمي الأصيل، أطلعهم خلاله على الأهداف المتوخاة من هذه المبادرة، والوسائل التي ستضعها الوزارة لتحقيقها.

انطلاق الدروس الابتدائية بجامع القرويين لا يتعلق بإحداث تعليم جديد، بل بإعادة الحياة لنمط أصيل من الدراسة...

وفي يوم الجمعة 21 ربيع الثاني عام 1409 ـ موافق 2 دجنبر 1988 وفي رحاب جامع القرويين، في يوم مشهود وبعد صلاة العصر افتتح الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية طور الدراسة الابتدائية بجامع القرويين التي تقرر إحياؤها بتوجيه من أمير المؤمنين

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني وذلك بحضور مستشاري صاحب الجلالة السيدين أحمد بنسودة ومحمد عواد والكاتب العام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية السيد محمد لمرابط ومؤرخ المملكة ومحافظ ضريح محمد الخامس السيد عبد الوهاب بنمنصور وعامل صاحب الجلالة على إقليم فاس مولاي المهدي العلوي لمراني، وصدور العلماء، وعلية القوم وجمهور كبير من الطلبة.

وقد أوضح السيد الوزير في مستهل كلمة ألقاها بالمناسبة أن العودة إلى القرويين هي عودة إلى التاريخ والأصالة وإلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله والأخلاق الإسلامية الفاضلة.

وذكر السيد الوزير بالدور الطلائعي الذي قامت به مؤسسة القرويين عبر مراحل التاريخ سواء فيما يخص تكوين كبار العلماء أو فيما يتعلق بإذكاء جذوة المقاومة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي مشيرا إلى العطف الذي ما فتئ يوليه العرش العلوي المجاهد لجامع القرويين.

وأشار إلى أن إحياء هذه السنة العلمية الحميدة يعتبر إنجازا عظيما من منجزات أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني الذي أمر بالأمس القريب بإحياء الكراسي العلمية بهذا الجامع.

وأوضح السيد الوزير أن الدروس التي ستلقن في رحاب جامع القرويين ستكون على نفس المنوال الأصيل وبنفس الكتب والمناهج التي تكون بواسطتها الرعيل الأول لهذه المؤسسة العلمية العتيدة كما أن طلبة الجامع سيحصلون على منح دراسية ويقيمون في البيوت التي أوت كبار العلماء وسيستفيدون كما كان الشأن بالنسبة للسلف من نظام (الخبزة) وهو تقليد تميز به جامع القرويين حيث كان تلامذته يحصلون كل يوم على مساعدة ماديه لمواصلة دراستهم.

وأكد أن الأمر لا يتعلق بإحداث تعليم جديد، ولكن يتعلق فقط بإعادة الحياة لنمط أصيل من الدراسة سيكون متكاملا مع التعليم العصري.

وذكر السيد الوزير بالأمانة الملقاة على عاتق العلماء الذين أنيطت بهم مسؤولية إحياء هذه الدروس حيث يتعين عليهم القيام برسالتهم على أحسن وجه حتى يستمر اشعاع القرويين كما كان دائما ساطعا وهاجا وحتى يكونوا عند حسن ظن أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني الذي لا يألو جهدا في الحفاظ على الأصالة وصيانة العقيدة.

ثم ألقى مستشار جلالة الملك السيد أحمد بنسودة، وهو من خريجي جامع القرويين كلمة استعاد من خلالها ذكرياته في رحاب هذه المؤسسة التي كانت مفتوحة في وجه المغاربة من كل جهات المملكة بل إن أغلبية طلبتها - يقول السيد أحمد بنسودة - كانوا طلبة (آفاقيين) أي من البوادي.

وفي معرض استحضاره لبعض ذكرياته عن هذا الجامع أوضح مستشار جلالة الملك أن أول اضراب طلابي نظم ضد الوجود الاستعماري بالمغرب انطلق من داخل القرويين، وكان إضرابا محكما شارك فيه كل طلبة الجامع مما اضطر الجنيرال نوكيس إلى التدخل شخصيا لتهدئة الوضع وتكسير الحركة الاضرابية.

وبعدما ذكر بالقيمة العلمية لمؤسسة القرويين التي أعطت لأوروبا كثيرا من العلوم الحق من لوغاريتم وطب وفلك دعا السيد أحمد بنسودة إلى الحفاظ على الطابع العلمي والروحي الأصيل للجامع وذلك بالحفاظ على تلاوة وتدريس القرآن الكريم وهذا لا يتسنى إلا بالتحكم المتين في لغة القرآن نحوا وصرفا وبلاغة وتعبيرا.

وتمنى أن يبقى جامع القرويين كما كان دائما مؤسسة رائدة في تكوين الأقطاب المرموقين من حجم علال الفاسي ومحمد القري ومحمد الحلوي وأمثالهم.

وبعد ذلك أشاد الأستاذ أحمد بنشقرون رئيس المجلس العلمي الاقليمي بفاس في كلمة ألقاها نيابة عن المجالس العلمية للمملكة بمبادرة إحياء الدراسة بجامع القرويين التي تعتبر مبرة من مبرات أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني.

وأكد على العناية التي يحيط بها جلالة العاهل الكريم هذه المؤسسة اقتداء بوالده المنعم جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه الذي أصدر سنة

1933 ظهيرا شريفا يحدد نوعية الدروس التي تلقى في رحاب الجامع وكذا التنظيم الإداري لسير هذه المؤسسة ككل.

وباسم رابطة علماء المغرب ألقى الأستاذ مولاي مصطفى العلوي رئيس المجلس العلمي الاقليمي لمكناس كلمة استعرض فيها من خلال ثلاث وقفات مظاهر العناية الأبوية الخاصة التي أحاط بها صاحب الجلالة المغفور له محمد الخامس جامع القرويين حيث قرر في الخمسينات تنظيم الدراسة بالجامع في ثلاث مستويات (ابتدائي وثانوي وعال) ثم حضور جلالته بعد ذلك لتفقد نتيجة الغرس الذي زرعه بيديه الكريمتين بهذه المؤسسة العلمية الأصيلة وأخيرا حرصه طيب الله ثراه على إيجاد روافد عصرية لتوظيف الثقافة العربية الإسلامية التي كان يمثلها جامع القرويين ودعوة جلالته إلى إحداث مدارس حرة لبلوغ هذا الهدف.

وبعد ذلك ألقى الأستاذان عبد الكبير العلوي ومحمد الحلوي (وهما من تلاميذ القرويين) قصيدتين شعريتين أبرزا فيهما أمجاد هذه المؤسسة وفضلها على العلم والعلماء في كل أرجاء المملكة.

وفي الختام، وبعد صلاة المغرب ألقى بالمناسبة العلامة الأستاذ محمد الأزرق درسا نموذجيا من الدروس التي ستلقن داخل رحاب الجامع والتي تشمل دروسا في التوحيد والفقه والنحو والصرف والأدب والتاريخ والجغرافيا والحساب والتجويد واللغة الأجنبية.

وكان عنوان الدرس شرح الآية الكريمة، وهي قوله تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء..﴾

وقد بلغ عدد التلاميذ الذين سيستفيدون من دروس السنة الأولى مائة وخمسين تلميذا ينتمون إلى مختلف أقاليم المملكة.

وقد وجه علماء القرويين برقية ولاء وامتنان إلى أمير المومنين جلالة الحسن الثاني حفظه الله ألقاها العلامة الفقيه السيد الحاج عبد الكريم الداودي.

وقد عقد السيد الوزير مع العلماء بعد ذلك جلسة عمل كانت إيجابية ومفيدة.

كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

التي ارتجلها في حفل إحياء الدراسة بجامع القرويين

بسم الله الرحمان الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

السيد مستشار صاحب الجلالة الأستاذ الجليل سيدي أحمد بنسودة

السيد مستشار صاحب الجلالة الأستاذ الكريم سيدي محمد عواد

السيد عامل صاحب الجلالة الشريف مولاي المهدي العلوي الامراني

أصحاب الفضيلة رؤساء وأعضاء المجالس العلمية الدينية بالمملكة

أصحاب الفضيلة العلماء

حضرات السادة الكرام أحييكم بتحية الإسلام.

السلام عليكم ورحمة الله،

ها نحن هؤلاء نعود إلى القرويين بعد غيبة قصيرة، لا تكاد تحسب في تاريخ الشعوب، ولا تكاد تحسب في تاريخ المعاهد ذات التاريخ العريق، كجامع القرويين.

نعود بحنين وحب، وتعلق وتشبث وشوق، رغم أن الغيبة كانت قصيرة، وما كان لهذه الأمة أن تغيب عن مسجدها العتيق غيبة طويلة، وهي الأمة المتمسكة بالإسلام، المتشبثة بالقرآن، المتعلقة بسنة رسول الله ﷺ.

ما كان لهذه الأمة أن تفرط في مسجدها وقد قام هذا المسجد بأدوار وأدوار في سبيل تحريرها من ربقة الاستعمار، وفي سبيل تجنيدها لرد العدوان، وفي سبيل توحيد صفوفها ولم شتاتها، وجمع شملها.

ما كان لهذه الأمة أن تتنكر لمسجدها هذا وفي تاريخها هذا الدور العظيم الذي قام به هذا الجامع.

ما كان لأمة أن تتنكر للقرويين وفيها العرش العلوي الذي أسس دعائمه على الإيمان، وبنى صرحه على الإسلام، وجعل القرآن الكريم وسنة رسول الله العظيم الكريم دستورا له ومنهاجا. والقرويون، تعرف عطف العرش العلوي على القرويين، ورعاية العرش العلوي للقرويين، ومحبة العرش العلوي لعلماء القرويين، ودفاع العرش العلوي عن جامع القرويين.

ما كان للأمة أن تتنكر للقرويين وفيها الحسن الثاني، الملك العارف، المؤمن، المجاهد، الذي وضعت القرويون في أيام محنة الاستعمار يدها في يده، ويد أبيه المغفور له مولانا محمد الخامس قدس الله روحه ليردوا كيد الأعداء، وليذبوا عن حوضة الإسلام، وليطردوا المستعمر إلى غير رجعة.

ما كان للأمة المغربية أن تتنكر للقرويين، وبرسالة القرويين وإشعاع القرويين حررت الصحراء المغربية واسترجعت. لم تسترجع الصحراء المغربية بالسلاح، وإنما حررت بالقرآن الذي كان يرفعه 350 ألف من المواطنين



السيد الوزير يلقي خطابه...

العزل بإيمانهم، مع ما يحملون من إيمان في قلوبهم.

المسيرة الخضراء مسيرة القرآن، هي استمرار لإشعاع القرويين استمرار لرسالة القرويين.

إنه من الطبيعي أن نعود، وها نحن قد عدنا بحمد الله وتوفيقه، وبمنه وكرمه، نؤسس الكراسي العلمية في رحاب القرويين، ونفتح صفحة جديدة مشرقة من عهد الدراسة العلمية الجدية في جامع القرويين، ابتداء من السنة الأولى من الطور الابتدائي وإلى قسم العالمية.

إنه إنجاز عظيم من إنجازات الحسن الثاني، وبشارة كبرى من البشارات والخيرات في هذا الجامع.

بأمر الحسن الثاني نفتتح اليوم الدراسة بالطور الابتدائي من جامع القرويين. وهذه الدراسة ستكون صورة طبق الأصل من الدراسة ستلقن فيها نفس الدروس التي كانت تلقن، وبنفس الكتب التي كانت تدرس، ومن طرف أبناء أولئك العلماء الذي أسسوا بنيان هذا الجامع العظيم، من بقية السلف الصالح، من هذه الطائفة المباركة التي ما زالت تحيا بين ظهرانينا، حاملة للأمانة، مؤدية للرسالة، من علماء هذا البلد العظيم، وسيسكن الطلبة في نفس المدارس التي كانوا يسكنون فيها، وستؤدى لهم المنح، وستؤدى لهم الخبزة أيضا التي كانت تؤدى لهم.

فالحمد لله على هذه النعمة، والشكر له على هذه المنة، ونحن نحيي تعليما برهن على جدواه، وعلى نفعه العظيم لهذه الأمة، بمناهجه وبرامجه وطريقته، نحيي جامعة بأكملها، هي تلك الجامعة الشعبية التي افتتحها آباؤنا وأجدادنا بدون شكليات ولا ضوابط ميتة جامدة.

وفي هذا الصدد أذكر بأننا لا نؤسس تعليما جديدا، وإنما نحيي نظاما كان عندنا في الجامع، وليس في الجامعة، فعملنا اليوم في جامع القرويين، وليس في جامعة القرويين. ونحن نقوم بإحياء التدريس والدراسة في جامع القرويين، وليس بخلق تعليم، لأن التعليم له أهله والمسؤولون عنه. فقد خط طريقه، وفتح سبله، وانتشر في البوادي والحواضر بمدارسه ومعاهده وثانوياته وكلياته وجامعاته، وبذلت فيه الدولة جهدا عظيما نقدره كل التقدير. ونحن نحي هذا النوع من الدراسة بهذا الجامع لا

ليكون عوضا، ولا ليكون منافسا، وإنما ليتكامل مع التعليم الموجود ويتعاون معه.

وفي هذا الصدد لا بد لي أن أذكر أيضا السادة العلماء، والذكرى تنفع المؤمنين، أنهم يتحملون أمانة عظيمة ومسؤولية جسيمة أمام الله تعالى، وأمام الأمة، وأمام جلالة الملك، وسيحاسبون غدا يوم القيامة، من أحسن منهم، ومن أساء. فهذه الأمانة ينبغي المحافظة عليها، ولم يبق لأي أحد أي عذر. فينبغي أن نكون عند حسن ظن أمير المؤمنين، وأن نتحمل الأمانة بكل ما تقتضي من جدية، ومن حزم وعزم، ومن تضحية، ليستمر هذا العمل، ويستمر هذا الإشعاع.

وإننا نحمد الله على أنه إذا كانت في جهات أخرى، الأمم قد بحت أصواتها للمناداة بشيء ولو قليل من الإسلام، فإننا في مغربنا نجد ملكا يتقدم الجميع في الدعوة إلى الإسلام، وتشجيع علوم الإسلام، وترسيخ جذور الإسلام، ويهتم بهذا الأمر بنفسه.

انظروا إليه في شهر رمضان حيث يترأس بنفسه حفظه الله مجالس العلماء ويخصص الشهر كله لهذه المجالس، هذا مثل فريد في الدنيا، وهو من النعم التي تقتضي منا الحمد بالقلب واللسان، والشكر بالعمل، وأنا لا أقول هنا إلا للتذكير وإلا فأنا حسن الظن بالعلماء. وقد رأيت تضحياتهم الجسيمة، وصبرهم وجلدهم، سواء في إطار المجالس العلمية، أو في إطار الكراسي العلمية، أو في إطار شبكات الوعظ والإرشاد، أو في كل عمل ومسؤولية من الأعمال التي أسندت إليهم، يقومون جزاهم الله خيرا بالعلم خير قيام، فجزاهم الله أحسن الجزاء، وحفظ هذه الأمة في علمائها، وحفظها في أمير المؤمنين حامي حمى والوطن والدين، جلالة الملك الحسن الثاني، أطال الله عمره ومتعه بالصحة والسلامة والعافية، وأمده بالتوفيق وبالمدد الرباني الذي يكون له حفظا وسترا في جميع الظروف والأحوال، وأقر عينه بسمو ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وبصنوه السعيد الأمير مولاي رشيد، وسائر أفراد أسرته العلوية الشريفة، والسلام عليكم ورحمة الله.



الطلبة الجدد الذين التحقوا بجامع القرويين بقصد الدراسة

كلمة السيد مستشار صاحب الجلالة
الأستاذ أحمد ابن سودة
التي ارتجلها في حفل إحياء الدراسة بجامع القرويين

بسم الله الرحمان الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

صاحب المعالي الصديق العزيز مولاي الكبير العلوي....

زميلي الأستاذ محمد عواد...

أخي مؤرخ المملكة الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور...

صديقي وأخي، وابن صديقي وحفيد صديقي عامل إقليم فاس مولاي المهدي الامراني. لأنني أعرف جده رحمه الله...

أصحاب الفضيلة العلماء الأجلاء.

أصحاب الفضيلة زملائي الذين سعدت بمزاملتهم في هذه الفترة..

لقد التحقت بجامعة القرويين في اليوم الثامن عشر من شعبان سنة 1353 هـ وأمامي هنا أصدقاء جلسوا معي من العلماء الأجلاء في ذلك التاريخ، أمامي زملاء كنا نسعد بالقراءة على هذا العهد، أمامي الأستاذ العراقي، الأستاذ غازي ابن أبي الشتاء الصنهاجي، وأمامي أصدقاء كثيرون.. دخلت للقرويين كما قلت لكم في شهر شعبان سنة 1353 هـ كنت أدرس في مدرسة ابن غازي عن الأستاذ محمد ابن عبد الله، وكنا قرأنا علوماً شتى، وحفظنا جملة من المتون العلمية التي يحفظها الطلبة في مستوى عمرنا، بل وحتى المعلقات السبع وكثيراً من المواد التي كانت تدرس في القروين، ودخلت شابا متحمسا، أطلب من المجلس العلمي للقرويين أن ألتحق، على الأقل، بالسنة الثالثة من الثانوي، نظراً لأنني كنت إذذاك أحفظ المعلقات السبع، وبحثتها وحللتها عند أستاذنا الجليل محمد بن عبد الله، فكيف أجلس ست سنوات في القرويين لأدرس المعلقات بعد ست سنوات، امتحنني الأستاذ التاكراوتي رحمه الله ولما امتحنني دخل مولاي عبد الله وتوضأ ظهراً في نافورة صغيرة، ودخل، ويداه تقطران من ماء الوضوء فقال : ماذا يقول بنسودة قال : إنه يقول : «لابد أن يلتحق بالثالثة من الثانوي من القرويين تنازلاً منه بأنه يدعي أنه يستحق أكثر من ذلك»، فابتسم مولاي عبد الله رحمه الله وقال : لئن استطاع أحمد بنسودة أن يعرب «قام زيد». فإنني أمنحه مايريد بالالتحاق في الثانية من الثانوي ودخل مولاي عبد الله، وهو العارف بعلم النحو من محمول ومنطوق ومن بلاغة ومن أصول، فقلت له : اعطني ما تريد قال لهم أعطوه مايريد دخلت إلى القرويين كان أستاذنا



مستشار صاحب الجلالة السيد أحمد بنسودة يرتجل كلمته الجامعة

ي النحو هو أبو الشتاء الصنهاجي الغازي العمراني، والغازي حسيني وكان أستاذنا في الفقه، الأستاذ مولاي الحسن زرهوني العمراني، وأستاذنا في الأدب محمد بن هاشم علوي، وأستاذنا في التاريخ إذ ذاك الفقيه محمد بن عبد سلام بناني وأستاذنا في الحساب عمي محمد بن عبد نادر بن سودة :

كانت القرويين مملوءة بالكراسي، مملوءة بالعلماء، كانت القرويين إذذاك هي القلب النابض للأمة المغربية، ن القرويين لم تكن وقفاً على أي مواطن، بل كانت توحة في وجه جميع المواطنين، من طنجة إلى الكوَيرة، كان الطلبة الافاقيون يمثلون الأكثرية الساحقة، بحيث كر في أغلب الأوقات كانت للقرويين 800 طالب كان ثر من 600 ينتسبون إليها وحتى رئاسة القرويين كانت ست وقفا على أهل فاس، كان يأخذها المتفوقون في أي حل كانوا..

فكان فيها السيد أحمد بلخياط، السيد أحمد بن الجيلاني، والفقيه القرشي، وغيرهم، وغيرهم من العلماء الأعلام الذين دخلوا من الطلبة الآفاقيين ثم أصبحوا من أعرق أبناء هذه المدينة.

لا أريد أن أطيل عليكم فإن الكلمة الجامعة المانعة كما تقولون في القرويين هي تلك التي ألقاها معالي الوزير فهي كافية شافية. ولكن اعذروا رجلاً دخل إلى هذا المحل منذ خمسين أو ستين سنة. أي شريط ينطوي أمامه ؟ وأي إحساس يحس به ؟ وقد رأى الأستاذ أحمد بنشقرون زميلاً له، والأستاذ العراقي زميلاً له، والأستاذ أحمد بن غازي الحسيني والكثير من الأصدقاء هنا ومولاي مصطفى العلوي وقد قمنا هنا بأعمال وإصلاحات أيام الاستعمار من أجل إصلاح القرويين...

كان أول إضراب نظم في المغرب نظمه طلبة القرويين لأنك إذا قدمت مطالب مغربية إلى فرنسا، نصح

اليسار الفرنسي لأن الإقامة العامة كانت تدعي بأن الوطنية هم جماعة من المثقفين لا من الشعب وكانت القرويين أول مؤسسة نظمت إضراباً يضحي فيه الجميع، وجاء نوكيس إلى مدرسة الصفارين... في مدرسة الصفارين وبجانبي مولاي مصطفى العلوي الذي عاش معنا هذه الذكريات كنا نقوم بإصلاحات نحاول إصلاح القرويين، ولكن السلطة تقاومنا. تصوروا مقدار فرحي، وسروري اليوم... جلالة الملك... وزير جلالة الملك هم يأتون بالإصلاح، ويأتون بالإحياء، تصوروا مقدار شعوري في ذلك الوقت، كنا نناضل وطلع في القرويين إذ ذاك، صديق وزميل رحمه الله هو الشاعر ادريس الجائي، عندما حاول بعض الطلبة أن يفسدوا الإضراب، ناداهم قائلاً :

لئن تكن منكم عشرون صابرة

فألف ألف من الغوغاء كالعبث

إذذاك سميناه عنترة القرويين، والأستاذ عباس بلحسين، الموجود الآن كرئيس للهيئة الإسلامية بمسجد «باريس» هو من زملائنا وأصدقائنا ومن رفاقنا في هذا الإضراب، لأن ذلك الإضراب كان إضراباً من أجل إصلاح جامعة لعبت دوراً أساسياً لا في تاريخ الإسلام فقط، ولكن في تاريخ الحضارة الإنسانية كلها...

من هنا ذهب الصفر إلى أوربا.... من هنا ذهب اللوغاريتم إلى أوربا.... من هنا ذهب الطب إلى أوربا... هذه الجامعة التي هي بركة من بركة إدريس الأول، لأن إدريس الأول عندما أسس المدينة دعا لها. فبعد بضع سنين استجاب الله دعاءه، وكانت هذه الجامعة، تشع، وتعمل... ومهمة هذه الجامعة شيء واحد، ولكن هذا الواحد، إذا كان الواحد كألف، هذا الواحد هو الواحد اللانهاية... مهمة القرويين المحافظة على القرآن لامهمة لها أكثر من ذلك، لأننا إذا بقينا متمسكين بالقرآن، عندنا وعد رسول الله ﷺ «تركت فيكم ما إن اتبعتموه، لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وسنة رسوله...

فنحن إذا حافظنا على القرآن، عندنا وعد رسول الله، والله تعالى يقول : ﴿**وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى**﴾ فمهمة القرويين المحافظة على القرآن، لكن لايمكن أن يحافظ على القرآن إلا بمعرفة لغة القرآن، وأسلوب القرآن وأسرار القرآن، والاستنباط من القرآن، وهذا لايكون إلا بهذه الدروس التي أحياها صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله وأيده.

وإنني، لولا خوف الإطالة عليكم، لتفجرت شلالا من الكلام. ولتفجرت بركانا من العواطف؛ لأنني كنت أدخل إلى القرويين التي عرفتها سنة 1353 هـ. وكنت آتي إليها في الشهور والأعوام الأخيرة، أدخل متسللا، فأخرج متألما لأنني لا أجد الطلبة مجتمعين يتذاكرون ويراجعون ويطالبون، لا أجد كراسي الوعظ، لا أجد الحزب لقراءة السبع في باب المسجد، وفيه الأستاذ بنعبد الله وفلان، وفلان، رحم الله الجميع. ولا أجد حزب سيدي خليل هنا في المحراب، فأخرج متألما، ولكن اليوم، أرى وجوها طافحة بالبشر، متألقة القسمات عرفتها في هذه القرويين، تلاميذ صغار، وهم الآن يحتلون مراكز في الدولة، هم أساتذة الجيل، أصحاب فضيلة، أصحاب كراسي، ولذلك هذا اليوم بالنسبة إلي يوم عظيم وإنه يوم كما قال أخي معالي الوزير إن هذا اليوم هو فتح القرويين مسيرة قرآنية جديدة قام بها جلالة الملك الحسن الثاني، والحمد لله إن جلالة الحسن الثاني قرر إحياء هذه الكراسي، ولا يزال أمامي جمهور غفير من العلماء الإسلام، أطال الله عمرهم إلى أن يتخرج في حياته ومن بين أيديهم أول طالب يتكون من هذه الدروس... إن هذا اليوم يوم عظيم، وإن هذا اليوم، لا أستطيع أن أعبر عن فرحتي به لأنني في مثل هذا اليوم كنت طريح المستشفى وما كنت أظن أن الله سينعم علي حتى أعود إليكم... وما كنت أظن أن الله سيحييني حتى أرى القرويين عادت إلى مجدها، فأنا هنا استسمحكم...

مولاي عبد الرحمان كان أحد أجدادنا خطيب جامع الأندلس، وهو الطاهر بنسودة الذي ينحدر منه محمد بن الطاهر بنسودة الذي تعرفونه جميعا ويعرفكم جميعا. تغيب مدة عن صلاة الجمعة. ويوم جاء وطلع على المنبر فقال : الحمد لله الذي أبدلني هذا العبد بعد أن دارت نواعره، وشدت للنوى عيره، وكان من عادة العلماء أن

يدخلوا من المقصورة ويتبادلوا المعلومات، ويتدارسوا موضوع الخطبة فقال بنسودة للسيد العمراوي الوزير الشاعر، كيف رأيت الخطبة قال : إنها خطبة جميلة... ولكن... فقال : الحمد لله الذي أبدلني هذا العبد بعد أن دارت نواعره وشدت للنوى عيره...

قال : هل فهمتها أنت ؟ قال : نعم.

قال : هل أعجبتك ؟ قال : نعم.

قال : تلك الجملة لك، والبقية للآخرين.

وأنا أستعير هذه الكلمة فأقول : الحمد لله الذي أمكن للقرويين، وقيض لها ملكا عالما مسلما مناضلا مضحيا الحسن الثاني نصره الله وأيده.

الحمد لله... ولذلك يمكننا أن نقول وأن نكرر، الحمد لله أن جعلنا كما قال جلالة الملك، مغاربة، وجعلنا مسلمين، وأن أحيانا، حتى رأينا هذا الصرح العظيم، عاد إلى بشره، وعاد إلى ما كان عليه من أداء الرسالة، ولن تخسر أمة كانت غايتها المحافظة على القرآن.

فإذا قال العالم إننا دخلنا إلى الصحراء بالقرآن، فإننا سنبقى، وسنكون إلى أن تقوم الساعة، أمة شريفة كريمة مادمنا متمسكين بالقرآن، ولن نتمسك بالقرآن حتى ندرس النحو والصرف والبلاغة والبيان والمنطق والأشعار نحفظها، لابد، لأن القرآن عربي، بلسان عربي مبين وحتى نخرج من هذه القرويين الشعراء كما كانوا، فينا من تفوق، كالأستاذ الحلوي، بقي شاعراً، وفينا من سرقته الإدارة، وفينا من بقي مستمراً على الخط، وكل ميسر لما خلق له...

ولذلك نطلب الله تعالى وكما أراد صاحب الجلالة، وكما وعد صاحب المعالي، أن تكون القرويين دراسة تقليدية قديمة تخرج لنا أمثال : علال الفاسي، ومحمد القري، وعبد الملك البلغيثي، والجائي والتواتي، وما أكثرهم نحن نكتفي هنا بهذه الإيضاحات... وبأن رددنا هذه البضاعة ـ ونقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا...

معالي الوزير، أصحاب الفضيلة، حديثي إليكم يحلو ويحلو، ولكن لكل شيء غاية، ولكل شيء نهاية،؛ وأجعل ختام كلمتي الدعاء لصاحب الجلالة أمير المؤمنين الذي له الفضل في إحياء هذه الكراسي وإزالة ما كان في نفوسنا من الحسرة والمآسي، فلذلك نرجو الله سبحانه وتعالى أن يديم عليه نعمة الصحة والعافية والتوفيق وأن يزيل له الأشواك من الطريق وأن ينصره على أعدائه وأن يمده بسر جده في الآخرين بالأسرار التي أمد بها جده في الأولين والاخرين إنه سميع مجيب، وأن يقر عينه بصاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه الأمير مولاي رشيد وسائر الأمراء.

كلمة رابطة علماء المغرب

ألقاها

الأستاذ مولاي مصطفى بن أحمد العلوي

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله الطيبين وصحابته الأكرمين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين...

أما بعد... أصحاب السعادة... أصحاب الفضيلة... أيها السادة،

يشرفني ويسعدني أن أتحدث إليكم بهذه المناسبة السعيدة وفي هذا اليوم الأغر في تاريخنا المجيد، في عيد المومنين، عيد الثقافة الإسلامية والعروبة والإسلام، عيد انبعاث جامعة القرويين... هذا المسجد العلمي العريق في المجد، بما قدمه لأمة الإسلام من إشعاع النور المحمدي، ذلك الاشعاع الذي امتد إلى الشمال والجنوب فأضاء القارة الإفريقية وغربي أوربا وسارت بفضل إشعاعه على هدي الإسلام أمم وشعوب سجلت فضله وأمجاده على صفحات التاريخ بأحرف من نور ولذلك ظل يمد الأجيال بالهدي المحمدي منذ شيده المومنون الأولون قبل ـ 12 ـ قرنا في تاريخ الإسلام.

أيها السادة الأفاضل... لا أحتاج إلى التذكير بما لهذا المسجد جامعة القرويين من فضل على الكثير منا... ففي رحاب هذا المسجد أخذنا على شيوخنا المنعمين رضوان الله عليهم علوم القرآن والسنة والفقه، وفي رحابه تلقينا علوم النحو والبلاغة والفلك والآداب والجغرافية والتاريخ... وفيه كان سلفنا الصالحون يدرسون العلم بسائر فروعه إلى أن ابتليت بلادنا بالغزو الاستعماري الذي حاول أن يشككنا في جدوى ما تلقيناه من هذا المعتقل التاريخي العظيم... جامعة القرويين... وحتى لا أطيل عليكم فإني أسجل هنا بمزيد الغبطة والسرور ثلاث وقفات سجلها رائد أمتنا وقائد نهضتنا المغفور له... محرر الأمة وبطلها العظيم محمد الخامس طيب الله ثراه وجعل الجنة نزله ومأواه مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

الأولى : كانت في منتصف القرن الرابع عشر الهجري أول الخمسينات وهي : تنظيم الدراسة في جامعة القرويين، وترتيبها على نمط عصري من أطوار ثلاثة ابتدائي وثانوي وعالي.

وقد أسعدني الله بالحضور في ذلك الفجر الذي سطع نوره يومئذ وغمرني وقرنائي من فيضه ونوره... وها أنا أنظر إلى وجوه من بقي منهم اليوم للمشاركة في هذا البعث الجديد.

والثانية : يوم حضر جلالته رحمة الله عليه لتفقد غرسه في هذا الحقل الطيب وفي غمرة الامتحانات، وطاف على حلقات الطلاب وهم يكتبون، ووقف لحظات عند كل طبقة وتساءل عن أشياء وأشياء ومما سأل عنه الشعبة الأدبية في التعليم العالي، وكنت يومئذ من بين طلابها الشعبة الشرعية، فأجابه أحد العلماء رحمة الله عليه هو مولاي أحمد البدراوي القاضي في الاستيناف الشرعي يومئذ قائلا : يا سيدي إن الطلبة يحبون منصب القضاء، ومن ثم يختارون دراسة الفقه.

فأجابه رحمه الله بأن شهادة العالمية تخول ذلك لحاملها مطلقا، لا فرق بين الشعبتين لأن الشعبة الأدبية أيضا فيها دراسة الحديث والفقه.

وكان ذلك تشجيعا على انتقال طائفة من طلاب تلك السنة إلى الشعبة الأدبية، وكنت من بينهم ورفيقي الشريف مولاي عبد السلام بن السلطان مولاي عبد الحفيظ رحم الله الجميع.

أما الأمر الثالث : فهو حرصه رحمة الله عليه على إيجاد روافد عصرية التنظيم للثقافة العربية الإسلامية في طورها الابتدائي والثانوي وذلك بتأسيس مدارس حرة للثقافة الإسلامية وحضه على ذلك بعمله ففي سنة 1943 أمر وزارة الأوقاف بتشييد أربعة مدارس ابتدائية في فاس والرباط والبيضاء ومراكش، وفي عام 1945 أسس مدرسة حرة من ماله الخاص وعلى نفقته بمدينة مكناس... هي مدرسة النهضة الإسلامية، وكان لهذا العمل أثره العظيم، حيث أقدم كثير من الموسرين من أفراد شعبه على تشييد مدارس عربية في مختلف المدن والقرى... مثل : مدرسة المرحوم عبد الكريم لحلو، والمحمدية بالدار البيضاء البيضاء وغيرهما، ومدرسة أمير الأطلس بأزرو، والتي كانت قنبلة تفجرت في قلب السياسة البربرية يومئذ، ومعلوم أن مدينة آزرو كانت مركزاً لسياسة الظهير البربري، ولا شك أن الكثيرين منا يدركون مغبة ذلك وتأثيره على الأوضاع التي كانت سائدة في البلاد... وهنا أذكر قضية لها أثرها العميق وهي شهادة مهمة في جانب جامعة القرويين التي نحتفل اليوم ببعثها من جديد.

فلا شك أن بعض الاخوان الذين مروا من طريقنا هنا يتذكرون وقفة المقيم العام الجنرال «نوجس» في ساحة فندق النجارين هنا بفاس وهو يخطب ويهدد فقال : إن أخوف ما أخافه على وجود أمتي فرنسا هنا هو هذا البيت المظلم وأشار إلى مسجدنا هذا جامعة القرويين منبع النور والمعرفة منذ قرون... وهي شهادة خصم عنيد، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وعندما نلاحظ أن بداية محاربة نظام الحماية سياسيا كان سنة 1930 انطلاقا من حركة اللطيف ردا على الظهير البربري الخطير نرى صدق شهادة الجنرال المقيم، فهي ظلام بالنسبة إليه وإلى سياسة دولته الاستعمارية التي كانت تريد البقاء مسيطرة على البلاد إلى ما لا نهاية له.

فمن هنا تكونت الخلية الكبرى للحركة الوطنية المعروفة «بكتلة العمل الوطني» والتي تبلورت في سنة 1936 م في الحزب الوطني والحركة القومية.

وهكذا فتح محمد الخامس درب النضال وقاده بحكمة وشجاعة وحسن تدبير خمسة وعشرين سنة إلى أن عاد من المنفى مظفرا حاملا راية الاستقلال شاكرا الله سبحانه وتعالى قائلا : **﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾** وإلى يمينه وارث سره ورفيقه في النضال جلالة الحسن الثاني... والذي سجل له التاريخ صفحات ناصعة في النضال فهو الذي قال لوالده وهو يستمع إلى رسول له إلى المقيم سنة 1951 وكان هذا الرسول رحمه الله يبكي لشدة تأثره مما جاء به من جواب المقيم، فقال ولي العهد يومئذ لجلالة والده إيذن لي يا سيدي لأذهب أفاوض هؤلاء أنا الذي لا أبكي... فأذن له رحمه الله ولا شك أنه موقف الشجاعة والقوة والثبات من الشاب ولي العهد الأمير مولاي الحسن حفظه الله.

ولمواقفه البطولية إلى جانب والده نعتته الصحف الاستعمارية آنذاك بأنه العدو رقم واحد لحكم الحماية مع

صورته التي نشرتها داخل الأسبوع الذي نفي فيه هو ووالده وأسرته إلى «كرسيكا» ثم «مدغشقر».

وها هو جلالة الحسن الثاني نصره الله وأعزه يعيد اليوم لمسجد القرويين وجامعتها مجدها... ويحيي ما اندرس منه أو كاد، فيأمر أعزه الله حكومته ووزيره في **الأوقاف الشريف الأديب الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري** بإعادة الدراسة بالشكل المعمق إلى جامعة القرويين بجميع أطوارها.

فهذا يوم عيد مجيد يجب أن يرفع فيه أكف الضراعة إلى الله العلي القدير أن يحفظ أمير المومنين ويعزه ويرزقه التوفيق ويقر عينه بطاعة شعبه وبجمع كلمة المسلمين من حوله وبسمو ولي عهده الأمير سيدي محمد وصنوه الرشيد إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

مصطفى بن أحمد العلوي



السيد مولاي مصطفى العلوي يلقي كلمته

كلمة الأستاذ الحاج أحمد بنشقرون

رئيس المجلس العلمي الإقليمي بفاس

باسم المجالس العلمية بالمملكة

معالي مستشار صاحب الجلالة الأستاذ المحترم السيد حمد بنسودة،

معالي مستشار صاحب الجلالة الأستاذ المحترم السيد حمد عواد،

سيادة الأخ المحترم مؤرخ المملكة الأستاذ المحترم سيد عبد الوهاب ابن منصور،

معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية العلامة سيد عبد الكبير العلوي المدغري،

سيادة عامل صاحب الجلالة الشريف الجليل مولاي مهدي العلوي الامراني،

أصحاب الفضيلة السادة رؤساء المجالس العلمية، صحاب الفضيلة السادة العلماء الأجلاء،

أيها الإخوان السلام عليكم ورحمة الله تعالى بركاته.

وبعد، فحينما دعاني معالي وزير الأوقاف والشؤون لإسلامية لإلقاء كلمة في هذا الجمع المبارك، بالأصالة عن مجلس العلمي الإقليمي لمدينة فاس، وبالنيابة عن رؤساء مجالس العلمية الإقليمية وأعضائها المحترمين، وجدتني

أنشد أبياتاً من قصيدة لي جاء فيها ما يلي :

وللقرويين التي ذاع صيتها ... مكانتها، موصولة الجاه في الدهر

وفي قلب فاس يربض الجامع الذي ... بنته لنا فهرية، فاح بالعطر

فسل عنه عهداً للأدارسة الألى ... يخبرك عن ماض تأثل بالذكر

وسل عنه عهداً بعد عهد لحاضر ... من العلويين الغطارفة الغر

فمذ ألف قرن، بعده القرن لم يزل ... بجامعنا ما شئت من منبع ثر

أصالتنا فيه تنال حماية ... من الحسن الثاني المؤيد بالنصر

بآي كتاب الله كل مقالة ... يرصّعها ربانة الخطط الخضر

وبالسنة الغراء سنة جده ... عليه صلاة الله، جلت عن الحصر



الحاج أحمد بن شقرون يلقي كلمته باسم المجالس العلمية

وبالمناسبة أقول إن السيدة الفاضلة فاطمة بنت محمد ابن عبد الله الفهري القيروانية التي تدعى أم البنين فكّرت في تأسيس هذا الجامع العظيم تقرّباً منها إلى الله تعالى ببنائه بمالها الذي ورثته من أبيها فشرعت في ذلك يوم السبت فاتح شهر رمضان المعظم عام 245 هـ الموافق سنة 859 ميلادية وثبت أنها لم تزل صائمة منذ يوم التأسيس إلى أن كمل بناء هذا الجامع فصلّت فيه شكراً لله تعالى الذي وفّقها لذلك، وبما أن هذا الجامع شيّد في أول الأمر ليكون مركزاً للعبادة والتعليم في آن واحد فإنه يعد أول جامعة إسلامية في العالم حج إليها آلاف الرّواد والطّلاب من داخل المغرب وخارجه للاستفادة منها والكرع من ينابيعها.

لقد ظلت صامدة ضد الأعاصير عبر القرون، وتنوعت فيها مواد الدّراسة بحيث لم تقتصر على الثقافة العربية والدّراسات الإسلامية من توحيد وتفسير وحديث وفقه وقراءات وغيرها بل زادت على ذلك بتعليم الفلسفة والطّب والصيدلة والفلك والهندسة وغيرها.

أيها السّادة،

في هذه اللّحظات المشرقة، وفي هذا المشهد الرائع وفي رحاب هذا الجامع العظيم والجامعة الأم، يقف التاريخ مرّة أخرى ليسجل بأحرف من نور ما لمولانا أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني المعتز بالله من أيادٍ بيضاء وعناية فائقة واهتمام عظيم بالعلم وأهله وبالمحافظة الدّائمة على تراث الأمّة الإسلامية وأمجادها وحضارتها.

مبرات وعظائم عرف بها مولانا الإمام كما عرف بها أسلافه المعتزّون بالله، ملوك الدّولة العلوية الشّريفة الذين لم يألوا جهداً في العناية بهذه الجامعة، التي كانت الدّراسة فيها حرّة زمناً طويلاً ولما رأى مولانا أمير المؤمنين جلالة المغفور له سيدي محمد الخامس طيب الله ثراه، ما آل إليه أمرها من الانهيار بادر رحمه الله إلى إنقاذها فسن لها نظاماً خاصّاً حيث أصدر في شأنها ظهيراً شريفاً بتاريخ 1350 هـ - 1933 م يحدّد مواد الدّراسة فيها وأوقات الدّراسة وهيئة العلماء الذين وصل عددهم إذ ذاك إلى اثنين وثلاثين عالماً ويقسم مراحل التعليم فيها إلى ثلاث مراحل ابتدائية وثانوية وعالية مشتملة على شعبتين، شعبة شرعية وشعبة أدبية.

لقد حظي جامع القرويين : الجامعة بعناية فائقة من جلالة المغفور له مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه فأمر بتجديد رونقه وخطب في منبره خطب الجمعة وبنى خزانته وبنى مدرسة لسكنى طلبته تحمل اسم المدرسة المحمدية إلى الآن، وعين له مديراً حازماً هو الأستاذ الكبير السيد محمد الفاسي الذي يقول دائماً إنك لا تجد حامل قلم بالعربية في هذه الدّيار إلا مديناً لهذه الجامعة إما مباشرة وإما بالتبع فواصل جهوده المشكورة في النهوض بنظام التعليم بالقرويين وأدخل عليه إصلاحات.

وأريد أن أسجّل هنا للحقيقة والتاريخ ما أخبرنا به المرحوم السيد الحاج العربي الحريشي مراقب دروس القرويين أنه قدم يوماً إلى القرويين في الساعة الثامنة صباحاً للقيام بمهمته وقام كالمطلوب بأداء تحية المسجد وحينما سلم منها وجد نفسه إلى جانب رجل غارق في

خشوعه وابتهالاته لم يلبث أن التفت إليه وسأله عن حضور السادة المدرسين وإذا به أمام صاحب الجلالة أمير المومنين سيدي **محمد الخامس** رحمه الله، فقدم فوراً فروض الطّاعة والولاء وما يجب للمقام العالي بالله من التّجلة والاحترام ولما شرع المدرسون في إلقاء دروسهم سرّ بذلك العاهل الكريم الذي أبى إلا أن يشرف بنفسه الكريمة على افتتاح الدّروس في الأوقات المحدّدة لها وينفخ من روحه القوية في معنويات الأساتذة والطلبة ويعرب عن مدى اهتمامه بجامع القرويين، الذي يحظى دائماً بعناية كبرى واهتمام عظيم من أمير المؤمنين جلالة مولانا **الحسن الثاني** نصره الله وأيده وهكذا يتحول وبظهير شريف منيف إلى جامعة تشتمل على كلّية للشريعة في أكادير وكلية لأصول الدين في تطوان وكلية للغة العربية في مراكش، وتشهد الكليات كلها إقبالا عظيما ويحيي فيها حفظه الله كراسي العلوم الإسلامية ويأبى إلا أن يتابع إكرامه وإنعامه فيأمر بإحياء الدراسات الإسلامية فيها وذلك بواسطة إحياء روافدها ليجد فيها حفاظ القرآن الكريم والمتون العلمية ضالتهم المنشودة مثلما كان يجده القدامى من متابعة تعلمهم فيها إلى الحصول على شهادة العالمية منها.

ومن المعلوم أن القرويين قامت برسالتها الإسلامية العظيمة وبرسالتها الوطنية في أشخاص علمائها الأجلاء.

أيها السادة :

إن هذه الالتفاتة المولوية الكريمة والعناية الخاصة التي يوليها أمير المومنين جلالة الملك المعظم مولانا الحسن الثاني نصره الله ستضيف لهذه الجامعة إشراقات جديدة في عهده الحسني الزاهر وتفسح لها مجالات أخرى لتمضي في أداء مهمتها برعاية جلالته السامية وإرشاداته النيرة.

حفظ الله الإسلام والمسلمين في شخص جلالته وحفظ ولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد وصنوه الأغر صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد وباقي الأسرة الملكية الكريمة والسلام.

الحاج أحمد ابن شقرون



كلمة الأستاذ السيد محمد بن علي الكتاني باسم السادة العلماء خريجي القرويين

إنها لفرحة عارمة تغمرنا اليوم ونحن نعيش هذا
لحدث السعيد، حيث عدنا - والعود أحمد - إلى رحاب
قرويين، لنملأها ومن جديد بدروس المعرفة، ونعمرها
نون الثقافة الدينية الأصيلة، ونستمع إلى أصوات الشيوخ
حوار الطلبة ونقاش الحلقات يدوي في هاته الأرجاء،
ترن أصداؤه في كل ركن وزاوية في هذا الصرح
عملاق : هذا الصرح الذي خمدت فيه الحركة، وحفه
سكون، وخيم عليه الصمت، بعد أن كان يزخر بالنشاط
يفيض بالحيوية ويتفجر بالإبداع... وكنت لا تجد في
وطئ قدم إلا وفيه متعبد أومتعلم أو عالم أو قارئ أو
ستفيد، ولا تكاد تخلو سارية أو أسطوانة أو زاوية من
واياه إلا وفيها كرسي ينبض بالحياة يعلوه إمام أو شيخ
شر المعرفة، ويهذب العقول والنفوس ويبشر بالخير دون
دود. ويلتف حوله الأصناف والأشكال من محبي المعرفة
اشقي الثقافة جاؤا من كل حدب وصوب من الشرق
عيد والغرب القريب والجنوب العميق والشمال الواسع،
هم الكرع من حياض المعرفة، والارتواء من معين
قافة، جذبهم سحر المكان وقداسة العمل وطهر العقيدة
جاذبية الذرات والشخوص والإطار العام الذي كا يذيب
العنصريات ويمحي كل النعرات والعصبيات ويجعل
من القاصرين إليه سدنة المعرفة ودعاة الخير وزراع
الفضيلة.

لا أريد أن أعود إلى التاريخ لأتحدث عن بروز هذا الجامع إلى الوجود، وكيف أسهمت فيه امرأة مهاجرة تحدت كل الصعوبات وأخلصت النية لله في بنائه وتشييده، ولا أحب أن أتابع جهود ملوك هذه البلاد الذين تعاقبوا على الحكم والقيادة، وكيف اهتموا به وبالغوا في عمرانه وتوسيعه والاعتناء به شكلا ومضمونا، ولا أرغب في الحديث عن بداية الدراسة فيه والمراحل التي قطعت حتى أصبح مؤسسة جامعية يشار إليها بالبنان، ولا أميل إلى الحديث عن الطلبة الوافدين والمستقرين وما وفر لهم من إمكانيات مادية ومعنوية لتلقي العلم في ظروف مساعدة، وما هيء لهم من وسائل لاكتساب الشخصية العلمية. كما لا يسعني الوقت لسرد الأعلام والعباقرة والنابغين الذين أنجبهم هذا الجامع أو استقروا فيه وعاشوا في أحضانه ربانيين وموجهين ومدرسين ومفتين وزعماء وقادة ومفكرين وباحثين في نكران ذات وصوفية متحررة وهمة عالية وسمو روح، فذاك إذا حاولت تعبت وأتعبت، لكني لا أريد أن أترك هذه الفرصة تمر دون أن أوضح بعض الملامح عن هذه الجامعة العريقة، وأرسم بعض الخطوط عن دورها الحضاري

الإشعاعي، فلا جدال في أنها قامت بأدوار فاصلة في تاريخ هذه البلاد، ولا نقاش أنها معلمة بارزة من معالم هذا الوطن: قدمت عطاءات في مختلف المجالات، وخدمت الإنسان المغربي خدمة ممتازة حيث ربطته بربه وبدينه وبعقيدته، وأبعدته بما كانت تبثه من معارف وتربية من أخلاق ـ عن كل تيار منحرف أو سيل جارف أو فكرة ضالة، وبفضلها أصبحت فاس ذات ثقل فكري وحضاري، واكتسبت على مر الأيام شخصية لها رنين ودوي في كل مكان، وليست القرويين هي هاته الحيطان التي تتراءى وهذه الأبنية التي تشمخ وهاته المظاهر العمرانية التي تتساوق وتنسجم، وإنما قيمتها فيما كان يصطرع فيها نشاط خلاق، ويتحرك في أحشائها من دماء حارة فوارة، اكتسبتها على مر الأيام، هاته الجاذبية الخاصة التي يحس بها كل من احتمى بها والتجأ إلى ظلالها وعاش في أبهائها، حيث يشعر بالدفء الحسي والمعنوي، والذاتية المستقرة والكيان الغير المصطنع. بل يشعر أيضا بأنه أصبح مؤهلا لتحمل الرسالة وتأدية الأمانة والقيام بالعبء المنوط به بكل ثقة وعزم وشدة حماس.. ومن ثمة كان لهذه القرويين وسيبقى لها بإذن الله مزية الحفاظ على الوجود الإسلامي في هذه الديار واستمراره وإشعاعه، وخلقت لا لتكون مركزا لاستقبال المومنين واحتضان المصلين والقانتين فقط، وإنما لتكون أيضا مركزا لاحتواء الدارسين وتخريج الدعاة والمبشرين، وبناء المثقفين الواعين، ولم تكن أيضا تجمع كل هذه الخصائص فحسب لكنها أضافت كما يشهد التاريخ أنها كانت مركزا للتحرك السياسي والاجتماعي، فلم يكن أي تحرك هادف أو أي عمل جاد يجري في البلاد دون أن يكون للعلماء فيه اليد الطولى والكلمة المسموعة والرأي المطاع.

القرويين إذن إسم يرف على الآذان ويملأ سمع الزمان، ويبعث في النفس شعور العزة والكرامة وبطاقة تعريف للذاتية الوطنية وسجل خالد حافظ ويحافظ على مقومات هذا الوطن. لكنها رغم هذا الإشعاع الذي أبناه، وهذا التأليف الذي رسمناه، وهذا الفيض من العطاء الذي أبرزناه، وهذه الشفافية التي جعلت كل النفوس والقلوب والعقول تهفو وتتطلع إليها باستمرار، أصابها ما أصابها من التعثر، واعتراها ما يعتري الشوامخ من العياء والضعف، وحجب عليها النور، ووضعت في الظل يخيم عليها الصمت الرهيب والسكون المخيف، فتوقفت كراسيها وتعطلت حلقاتها وانعدم روادها. وعلاها الصدا وران عليها الهدوء فلم يعد تسمع فيها نأمة، ولم يعد يصدح فيها طائر أو يغرد فيها عندليب، وإنما هناك صدى الريح يصوت في كل زاوية ويتجاوب في كل ركن وكأن الزمان توقف ليجعل منها منتدى لزمرة العاطلين، ومنتجعا لطائفة من المتعبين، وحتى إذا سمع فيها صوت فإنما هو صوت مبحوح ومرتعش.
إلى أن هيأ الله لها منقذ البلاد وحامي الملة والعباد عالم العلماء وحكيم الحكماء باعث النهضة في كل مكان ورائد البعث الإسلامي والراعي لمصالح الدين والوطن أمير المومنين الحسن الثاني أعز الله أمره وخلد في الصالحات ذكره. فعالجها بلمسة حانية من جلالته، وأنقذها بإشارة حازمة من سدته وأحياها من جديد بهمته التي لا تتقاعس وعزيمته التي لا تتراجع، وأحدث حفظه الله في البداية إطارا للكراسي العلمية ردت البسمة إلى النفوس، والبهجة إلى القلوب، وأصبحت القرويين يسمع فيها أحكام الدين وتعاليم رب العالمين، وأصبحت دروس الحديث والفقه والتفسير وعلوم الآلة تلقى وتنشر وتدرس وتعلم، وسدت بالطبع بعض الفراغ. لكنه حفظه الله وأدام نصره لم يكتف بهذا الصبيب الضئيل، ولم يرد أن يكون العلاج لهذا الصنف وحده. لأنه ـ وهو الخبير بفنون العلاج ـ يعرف أنه لا يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ـ ولا يمكن أن تستقيم الأحوال إلا عندما تتصل بأسس الدين ومبادئه وتتعرف على أحكامه وتشريعاته بالوسائل المساعدة والأدوات الصحيحة. والدين الصحيح يستقى من معينه ويؤخذ من أصوله ويتعلم بأدواته وبالتدريج والتمرس المستمر، ولذلك أصدر أوامره المطاعة إلى وزيره في الأوقاف والشؤون الإسلامية ليعيد القرويين إلى شبابها وسابق مجدها، ويبعث الدم من جديد في شرايينها، وذلك في إطار الكراسي العلمية المحدثة، فقام معاليه ـ وهو العالم المتفتح والمثقف الواعي والمومن الصادق بقيمة الثقافة



الأستاذ مولاي علي الكتاني يلقي كلمته باسم خريجي جامعة القرويين.

الإسلامية ودورها في ترسيخ جذور الإسلام وتركيزه الصحيح في النفوس والعقول، ومحاربة التمزق والانحلال والاديولوجيات الوافدة ـ قام معاليه بما أنيط به خير قيام، فسعى سعيه الحميد وبذل جهده الموفق الرشيد، حتى أخرج المشروع إلى الوجود، وها نحن اليوم نجتمع في هذا الجمع الحافل لنحتفل بافتتاح العملية. هاته العملية التي كنا نؤمل أن تكون أوسع وأشمل، لكن أول الغيث قطر ثم ينهمر، وكل تحرك لابد أن يسير سيره التصاعدي والخطوة تبدأ صغيرة ثم تكبر وتتوالى. والمهم أن القرويين عاد إليها النور، ورجعت لتأخذ بزمام الأمور كما كانت دائما، رغم أن الكثير اعتقد أن الزمن طواها، وأصبحت في ذمة التاريخ، ولا مجال ليسمع فيها رنين الدرس وصخب الطلبة وهدير الحركة متناسيين أنه على رأس هذه الأمة المسلمة رائد لا كالرواد وقائد ملهم يتحدى كل الصعاب رضع العلم منذ نعومة أظفاره، وتربى في مدرسة محمد الخامس رحمه الله الذي كان شعاره الإسلام ولا شيء سوى الإسلام.

نبارك باسم العلماء أعضاء جمعية قدماء جامعة القرويين، هذه الخطوة المباركة، وتضع أنفسنا رهن الإشارة في كل ما يعود إلى إحياء وازدهار هذه القرويين العامرة ونشكر كل الذين ساهموا من قريب أو بعيد في هذا العمل الطيب البناء. كما نرحب بكل إخواننا العلماء الذين تجشموا عناء الحضور لزيارة أمنا جميعا القرويين والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه.

وختاما نتوجه إلى الباري تعالى أن يحفظ مولانا أمير المومنين بحفظه الذي لا يتناهى وأن يديم عليه الصحة والعافية، ويعز أمره وينصر جنده ويعلي رايته، ويعينه على نصرة الدين وحفظ العقيدة وصيانة الشريعة، وأن يحفظه في ولي عهده الأمير المحبوب سيدي محمد وصنوه الأمير الرشيد وسائر أفراد أسرته إنه نعم المولى ونعم النصير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فاس : محمد بن علي الكتاني

برقية ولاء وامتنان

الى مولانا أمير المومنين جلالة الحسن الثاني

من علماء جامع القرويين

حضرة صاحب الجلالة أمير المومنين وسبط النبي الأمين وحامي حمى الوطن والدين جلالة الحسن الثاني دام الله نصركم وحفظكم، والسلام على مقامكم العالي بالله ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فإن علماء القرويين وعلماء المغرب قاطبة المتفانين في الولاء، والإخلاص لجنابكم الشريف، المتشبثين ببيعتكم الحسنية، وطاعتكم الدينية المتعلقين بشخصكم الكريم وأهداب عرشكم العلوي المجيد، قد استبشروا عظيم الاستبشار وابتهجوا أيما ابتهاج بمبادرتكم المولوية الكريمة ومأثرتكم العظيمة الخالدة، والمتمثلة في إحياء الدراسة بجامع القرويين، وافتتاحها بالسنة الأولى من الطور الابتدائي في إطار الكراسي العلمية التي أذنتم بإحيائها في هذا المسجد العريق الذي ظل منذ نشأته على تقوى من الله ورضوان منار علم وعرفان، ومركز اشعاع للثقافة الإسلامية وعلومها الأصيلة، وحضارتها الدينية، وتخريج العلماء الاعلام، وجهابذة الفقهاء الأجلاء الذين نفع الله بعلمهم داخل المملكة وخارجها من البلاد الإفريقية وغيرها من البلاد الإسلامية.

إنكم يا مولاي. وأنتم تعيدون لهذا الجامع العتيق مجده التاريخي وازدهاره العلمي، ونهضته الدينية وحضارته الإسلامية إنما تجددون بذلك أمر الدين في هذا البلد الإسلامي الأمين وتسيرون في ذلك على نهج أسلافكم الميامين، وسنن أجدادكم المنعمين، وتصلون الحاضر المشرق بالماضي المزدهر، وتركزون مبادئ الدين وتنشرون شريعته السمحة، وأخلاقه الفاضلة وتصونون بلدكم المسلم وجيله الصاعد من كل زيغ ديني وانحراف خلقي وتسمون به إلى مدارج الرقي والازدهار العلمي والحضاري.

وذلك دأب جلالتكم وشأنكم في عنايتكم المولوية سائر شؤون الإسلام والدين، فأنتم ما فتئتم تولون عنايتكم الفائقة ورعايتكم السامية لمساجد الله وبيوته في سائر أنحاء المملكة، إنشاء وتعميرا، وصيانة وتشييدا، وللمعاهد والمدارس العتيقة، والكتاتيب القرآنية التي تعتني بتحفيظ كتاب الله للناشئة، وتشجعون على حفظه وتجويده وتنيرون معالم الطريق لشعبكم المومن بهذه الأعمال الإسلامية العظيمة، التي ادخرها الله لجلالتكم في عهدكم الزاهر الميمون والتي توجتموها بما عزمتم عليه وقررتموه من بناء تلكة المعلمة الإسلامية الخالدة، معلمة القرن العشرين المتجلية في بناء مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء والذي سيكون بحول الله وعونه أعظم جامع أسس على تقوى من الله ورضوان، وأكبر مسجد بعد الحرمين الشريفين، بني في مملكتكم السعيدة لخدمة الإسلام والمسلمين.

إن علمــاء القرويين وعلمــاء المغرب كــافــة، وهم يعيشون هذا اليوم المشهود في تاريخ القرويين الذي يرجع فيه الفضـل إلى جـلالتكم الشريفة ليشعرون بمنتهى الفرح والسرور والبهجة والحبور، ويغتنمون هذه المناسبة الغالية ليرفعوا إلى سـدتكم العاليـة بـالله آيات الولاء والإخلاص، والطـاعة والوفـاء، معتبرين أنفسهم جنـودا مجنـدين وراء جلالتكم وقيادتكم الرشيدة، مستلهمين تـوجيهـاتكم النيرة، وآرائكم السـديـدة، وأقوالكم الحكيمة، فيما يقومون به من علم ونشر للثقافة الإسلامية والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، رافعين أكف الضراعة إلى الله تعـالى القدير وسائلين منه سبحانه أن يبارك في حيـاتكم ويـديم نصركم وعزكم، وسدادكم وتوفيقكم ويحفظكم بما حفظ به الذكر الحكيم، ويجعلكم حصنا حصينا ودرعا واقيا للإسلام والمسلمين، وللعلم والعلماء، وإعلاء منارهم وشأنهم في كل مكـان وحين. ويبقيكم ذخرا وملاذا للبلاد والعباد وأن يقر عينكم بولي عهدكم المحبوب صاحب السمو الملكي، الأمير الجليل، سيدي محمد وصنوه المجيد سمو الأمير المولى الرشيد وسائر أسرتكم الملكية الشريفة الكريمة إنه سميع مجيب والسلام على مقامكم العالي بالله ورحمة الله تعالى وبركاته.

علماء القرويين



الفقيه السيد عبد الكريم الداودي يتلو برقية ولاء إلى أمير المومنين الحسن الثاني.



منظر بديع لاحدى النافورتين الجانبيتين لجامع القرويين



إن من حق الشعر في هذا العرس الديني الكبير أن يحيي هذه الانبعاثة المباركة التي تعيد إلينا الروح بعد مفارقتها، وتضيء مصابيحنا بعد انطفاءتها.. فقد أبى الله إلا أن يتم نوره ويحقق فينا دعوة إدريس باني هذه المدينة الفيحاء.. فألهم سبحانه جلالة الملك الهمام ووفقه ليصلح ما أفسدته يد الأحداث، ويجدّد ما أبلته الأهواء والمتغيرات، لتواصل القرويين رسالتها الروحية الخالدة وتنطلق مواكب الخير والنور من جديد.

وإن من حق شعبنا العربي المسلم أن يسجد لله شكراً على هذه المبادرة السّامية التي جاءت لتحقّق رغبته وتوصّل أصالته ومن أجل أن تظل القرويين. كما كانت قلعة من قلاع الإسلام وحصناً منيعاً من حصون الضاد، ومناراً مشعّاً على مدى العصور والأحقاب.

وعودة الرّوح التي أُقدّمها هي ترجمة لهذه المشاعر وتحية لهذا الجناب الجليل.

مودعة يؤرقها الغياب ... ونازحة تناساها الصَّحاب

ومجد حاضر في كل قلب ... وشمس ليس يحجبها حِجَابُ

قواعدها على التَّقوى استقامت ... ودعوتها إلى الفِردوس باب

أقل صخورها وأسال ماها ... بَنَانٌ لم يُزينه خِضاب !

وكم شادت صُروح المجد أنثى ... وأرست وانثنت عنه الحراب !

أهذي أنتِ ؟ أم أضغاث حلم ... تهاوت من منابرك القباب
وأجدب روضُ أنسك بعد خصب ... وناح على منارتك الغُراب !
مضت للضاد فيك عصور مجدٍ ... مضيئات معارفها عباب
وحجّ لبيتك المعمور خَلقٌ ... ظماءٌ لم تنهنههم صعاب
أتوكِ وكلّهم شوق وحبٌّ ... يهون به العناء والاغتراب
عهدتك روضة غنّاء تشدو ... بلابلها ويمطرها السحاب
وأروقة بها للضاد حصن ... دعائمه الشريعة والكتاب
ومنطلقَ الجهاد إذا تداعى ... له وطني وداهمه مصاب
ومنبر دعوة للحق تعلو ... ونبعاً فيضه شهد وصاب
يضيء منارها والليل داج ... على دنيا يحيط بها اكتئاب
وليس لخائف فيها أمان ... إذا لم يحمه ظفر وناب !
وكنتِ خليّة تغلي نشاطاً ... لها للدين والعرب انتساب
ومنهل كل ظمآن شغوف ... ترويه مناهلك العذاب
عرفت رياضها أسواق علمٍ ... إلى حلقاتها يهفو الشباب
وأبصرت العمائم في جلال ... وتقوى لا يدنسها اكتساب
هداة بالفضائل لا بعلم ... ورسل في إشارتهم خطاب
أضاؤوا كالمشاعل في دُجانا ... وأثمر غرسهم فينا وطابوا

☆ ☆ ☆

دخلت رحابها الفيح الخوالي ... وطفت بها وفي نفسي عتاب
سألت الكراسي الخرساء عمن ... تربعها، فأخرسها الجواب
مضوا لسبيلهم فوجاً ففوجاً ... وهيل على مآثرهم تراب
كراسي العلم فيها جامدات ... وفردوسي التي اخضلت يباب
وآمال معلّقة عليها ... تراءت مثل ما يبدو السّراب
ولم أعجب لمنقلب خطير ... فطبع الدهر قَلْبٌ وانقلاب

☆ ☆ ☆

رآها الأجنبي منارَ شَرٍّ ... وبيتاً مظلماً خطِراً يُهَاب
فكاد لها ولم يعدم نصيراً ... وعاثت في مراتعها الذئاب !
وعقّ جهادها الغالي بنوها ... وكان جزاءها الأوفى العقاب

وما أحد وليس عليه فضل ... لمن خضعت لهيبتها الرّقاب
فيا لله ما ولدت وأعطت ... مواكبها المضيئات الخِصاب !
فكم شهدت ثريّاها نجوماً ... وأشرق في مطالعها شهاب !
ولولا نورها ما كان قدر ... لفاس في الوجود ولا حساب !

☆☆☆

وليس لها سوى الحسن المثنى ... ليبعث مجدها، فهو المثابُ
عسى أن تسترد على يديه، ... حضوراً كان، عثمة الغياب
فكم أسدى لأمّته وأجدى ... وما وهنت عزائمه الصّلاب
سجايا من ملوك بني علي ... إذا مسّت أصالتنا غضاب !
فهل لي أن أبشّرها بعهد ... جديد لا يشوهه استلاب ؟
وهل لي أن أرى بغداد تحيا ... ودعوة من تبنى فاساً تجاب ؟
وهل لي أن أرى فوق الكراسي ... مشاعل مثل من غبروا وغابوا ؟
تقود إلى الهدى وتذود عنه ... وتدعو للحقيقة من أنابوا
وتفضح كلّ شعوذة ودجل ... وتحمي الدين مما يُستراب
فما ارتقت الشعوب بغير دين ... وأخلاق وحكم لا يعاب
ولا عصفت بمركبها رياح ... إذا هي لم تُذب فيما يُذاب
وقد تنسى الفجائع والمآسي ... وتهجين اللغات هو المصاب !
وما عقّ الأصالة غير غاوٍ ... لهُ في مجدِ أمّته ارتياب
وفي الماضي لمن جهلوا اعتبار ... إذا لم يغشَ أعينهم ضباب
ولا تجدي الحضارة صانعيها ... إذا هجروا لغاتهمو وذابوا !
وعارٍ من كستهُ يد الليالي ... عواريها ولو غلت الثّياب !

☆☆☆

فيا نهراً أصيل إلى سواقي ... بغيرك لن يدوم لها انسياب
ولن تحيا الفروع بلا أصول ... تغذيها إذا اتبعَ الصّواب
وما اخضرّت بطاح الأرض لولا ... روافد لا تضن بها الهضاب
ويا أيّامنا الغرّاء فيها ... وريّاها ربيع مستطاب
عبرناها، ولي في كل ليل ... على أوراقها الصُّفر انكِباب
ذكرتك والليالي مسرعاتٌ ... وللأشواق والذكرى التهاب



الشاعر المبدع السيد محمد الحلوي وهو يلقي قصيدته العصماء

وظلّ العمر يدلف في انتقاص ... وشعري في قوافيه انتحاب

فيا بدراً تألّق في سمانا ... وروع أفقنا منه احتجاب

متى يفتر ليلك عن صباح ... ويجري في خلاياك الرضاب ؟

وتنبعث الحياة كما عهدنا ... فتخضر الروابي والشّعاب

فما ذكرى انبعاثك غير عيد ... لشعب لا ينهنهه طلاب

ويا أمّاه لو ترجمت حبّي ... بغير الشّعر ما وفّى اقتضاب

ففيك كتبت أبياتي العذارى ... وعنك رويت فامتلأً الوطاب

وفيك عبدت ربّي في قنوت ... وفتح لي إلى الإيمان باب

إذا افتخرت بما أعطته فاس ... فإنك في جواهرها اللّباب !

على أيامك الزّهر الغوالي ... سلام إليه ما تُلي الكتاب

فاس : محمد الحلوي

فاس مصنع الأعلام فينا..

للشاعر الدرجاوي محمد عبد الرحمن بن أحمد درجة العلوي

أعني بالشعور وبالخيال — على شعر سيظهر كاللالي
أعني بالبراعة في ابتداء — وفي وسط تكون وفي الكمال
أعني بالمهارة في اقتباس — أعني بالإجادة في ارتجال
أعني بالبديع من المعاني — وألفاظ منقحة عوال
وتركيب جلي مستساغ — وحبك في الصياغ والانفتال
أعني بالجميع ولا تعني — بأوصاف التغنج والدلال
ولا بالغانيات ولا المغاني — درسن، ولا الرواحل والجمال
ولا أظعان مية في حدوج — تشق البيد في وعث الرمال،
وتطوي في الهجير ربى الموامي — بذاك الثقل من ءال لآل
ولا تبك المنازل دارسات — تثير الحاجمين عن السؤال،

فإنك في غنى عن كل هذا
بما خاضته فاس من نضال

نضال دون عاصمة المعالي — وعاصمة الخلائف والموالي
وعاصمة الورود تفوح عطرا — على سعة المقاصد والمجال
تجود ببردها في الصيف لينا — وتتحفُ بالسخونة في الليالي
ويكفيك الزلال بها شرابا — فإن زلالها خير الزلال

أرى فاس الحديثة قد تحلت
بما عند القديمة من جمال

جمال من قراها قد أتاها ... بموفور السكينة والجلال

تحلت علم جامعها فبذت ... جميع الحاليات وكل حال

تحلت بالدروس تسير سيرا ... يبين به الحرام من الحلال

فجامعها المنيف لَخَيرُ إرث ... يخلفه الجدود وخير مال

رعاه السائسون بكل عين ... فجازى بالكثير من النوال

وأعطانا من الأعلام وفرا ... تعلمنا بهم كرم الفعال

ففاس مصنع الأعلام فينا

يدور بلا مداخن واشتعال

وفاس دون جامعها كسيف ... تبرأ في القتال من النصال

بنوه،وإن هم شبوا،شيوخ ... لهم حق التقدم في الرجال

ويكفي من سواهم من فخار ... ونبل أن يعد من العيال

فمن أيام إدريس وفاس ... محج للمعارف والمعالي

محج جاء عن فتح ونصر، ... وتمزيق لدين ذوي الضلال

وإظهار لدين الله باد ... يراه المشركون من النكال

ونحن من الإله نراه فضلا ... وعزا عائما في كل حال

وهديا في الحياة وفي ممات ... بتحصيل المعارف والكمال

جزى الله الإمام بكل خير ... على بث المحامد والخصال

وإحياء الكثير من المزايا ... وإظهار الخفي من الجمال

وتطهير البلاد من المساوي ... وإضفاء الظليل من الظلال

حمدنا أنعم المولى علينا ... به حمدا يدوم بلا زوال

فيقضي حقه عنا قضاء ... يتم بالاغتباط والاحتفال

الدرجاوي محمد عبد الرحمن ابن أحمد درجة العلوي

من وحي انطلاق الدراسة بالطور الابتدائي من جامع القرويين :

فمهما يعتصم بالله شعبٌ نجا

للشاعر الأستاذ محمد بن محمد العلمي

يوجهنا أمير المؤمنينا — لما نسمو به، دنيا ودينا :

فـ(للحسن المثنى) في المزايا — روائع تطبع النهج الرصينا

وإن (الجامع القرويّ) يحيي — عصوراً تبعث الأمجاد فينا

فمن تلك المؤسسة استنارت — بمشعلها قلوب العالمينا

مبادرة الإمام لها معان — حسان توضح الحق المبينا

ففي بعث الأصالة كل خير — به تزهو عقول الناشئينا

بتكوين وتربية صعدنا — إلى أمجادنا متيقنينا

وفي ظل الشريعة نحن عشنا — كراماً بالهدى مستمسكينا

وإن عناية الملك المفدى — بأمته.. به عز البنونا

فبالقرآن عصمتنا دواماً، — فنحن بفضله زدنا يقينا

وإن السنة الغراء نور، — وتذكير لقوم يفقهونا

سبيل الله أهدى، فهي ذخر — لمن هم يدركون ويبصرونا !

وفي كنف العقيدة صح منا — ثبات زلزل المتنطعينا

نريد قريحة فيها اقتناع — يصد الكافرين الملحدينا !

نريد بصيرة كانت وتبقى — شعار المسلمين الصالحينا !

نريد تفتحاً فيه اجتهاد … يزيل تلاعبا للمفسدينا !
نريد دراية، وجلاء فكر … أصيل يقطع الشك اللعينا !
فمهما يعتصم بالله شعب، … نجا، إذ حقق العز المكينا !
ففي الإسلام يطبعنا سلوك … قويم أقنع المسترشدينا
وإشعاع الثقافة منه أضحى … يفتح من توهجه العيونا،
وفي بعث الضمائر خير بعث … يهم السابقين اللاحقينا

☆ ☆ ☆

وإن (الجامع القروي) منه … تخرج في الكفاح المخلصونا
فتلك منارة للحق تعلو، … ولو كره الطغاة الجاحدونا !
وفي (فاس) العزيزة قد تجلت … علوم رصعت منها الجبينا !
وللعلماء تأثير بليغ، … فهم قد حاربوا المستعمرينا
وهم صمدوا، فكانوا في جهاد؛ … وصدوا طغمة للطامعينا !
فلم يفلح للاستعمار نهج … يروم به سكوت العاملينا :
فذكر حينما لم يجد منه … (ظهير بربري) لن يكونا !
وذكر (باللطيف) وقارئيه ! … فلم يجد الدخيل له معينا !
ونحن جميعنا حسا ومعنى … بإسلام لنا، متوحدونا !
وحول العرش، ظل الله فينا، … دواماً، إننا متضامنونا !
فلا خمدت مقاومة توالي … ملاحمها، فحاشا أن تخونا !
وهذي نخبة الوطن المفدى، … بطولتها الكبيرة لن تهونا !
وتلك الروح من جيل لجيل، … ستبقى عبرة للسائلينا !
فبالتكوين تزدهر الرعايا، … من اتبعت سلوك المهتدينا،
وبالعلم الشريف يطيب وعظ، … لأن العلم نهج السالكينا.
بيوت الله فيها كل نور … من الرحمان، يهدي الحائرينا،
فقد كانت وما زالت حصونا … تصون تراثنا الفذ الحصينا !

☆ ☆ ☆

من ابتدأ المسير إلى المعالي، … وواصله، يكن في الواصلينا !
ومن عرف المقاصد زاد سعياً : … فليس يحد جهد الطامحينا !

وإن رصيــدنـــا الفكري كنــز   بــه يغنى أمير المـؤمنينـــا ؛
تــوالت منــه في الحسنى أيــاد،   بدت بيضـاء تسبي النـاظرينـا !
فــاكمـل من أبيــه صروح علم،   ونعم الشبـل من حرس العرينـا !
على أبهى جبين لاح نـــــور   تـلألأ منـه تـاج المـالكينـا !
لـــه منـــا ولاء وامتنـــان،   وإخـلاص يـواتي المخلصينـا !



جانب من الطلبة الجدد الذين التحقوا بالدروس الإسلامية

كل يوم مسيرة ونضال

لشاعر الوحدة
الأستاذ
محمد الكبير
العلوي

كيف لا يصبح القريض شعاري وأبث المصون من أشعاري

كيف لا آخذ القلوب بسحري وأعاجيب صنعتني وابتكاري

أنت علمتني الإجادة والإبداع شعرا والسبق في المضمار

تيمتني مآثر الحسن الثاني فليلي أشدو بها ونهاري

لا أباري ولا أجاري إذا ما جلت فيها ولا يشق غباري

أنا أرض أسمو على كل أرض أنا قطر ولست كالأقطار

فلي الفخر والعلا بمليكي وبعرشي وعترتي ونجاري

أنا شعب سما بي الحسن الثاني إلى أوج عزتي وازدهاري

قد أقرت لي الشعوب بقدري وبسامي مكانتي واعتباري

أي شعب يرقى بمجد كمجدي وفخار موطد كفخاري

ربع قرن وألف ألف نضال وكفاح وألف ألف انتصار

ملك المكرمات عرش التحدي مغرب العز قلعة الأحرار

كل يوم مسيرة ونضال وتحد ومطمح لفخار

كل يوم توثب للمعالي وارتقاء لها وخوض غمار

حسن الشعب عـاهلي وإمـامي وزعيمي وقـائـدي في مسـاري
فهـو مجـدي وعـزتي وجـلالي وجمـالي وهيبتي ووقـاري
قـادني للعـلاء وعبـأ شعبي لمسيراتـه وفـك حصـاري
ومضـا بي إلى سبيـل نجـاتي في زمـان يهيج بـالأخطـار
فتسنمت ذروة المجـد عـزا وتبـوأت قمـة الإكبـار
وتسلمت في العروبـة والإسـلام دورا يعلـو عن الأدوار
فجـدير أن أستطيـل ازدهـاء واعتـزازا وأعلن استكبـاري
فـاسـألـوا عني العصور الخـوالي والـزمـان الملم بـالأخبـار
هـل رأى في الشعـوب شعبـا كشعبي في التحـدي والصبر والإصرار
هـل رأى في البـلاد زحفـا كـزحفي وجـدارا في الكون مثـل جـداري
وحشـودا أبيـة كحشـودي واصطبـارا في الحق مثـل اصطبـاري
أمـة أخلصت لعرش عظيم بـاركت زحفهـا يـد الأقـدار
وسجـايـا بهـا الـزمـان تحلى فهي تـزري بلـؤلئى ونضـار
فلقـد جلجـل النـداء المـدوي حسنيـا يبث خير قرار
فـإذا جـامع المعـالي منـار شـامخ الشـأن فـوق كـل منـار
وإذا هـو مثلمـا كـان قـدمـا ملتقى الكـل قبلـة الأنظـار
وإذا نـوره ينير الـديـاجي وإذا جـوده يَعُمُّ الصحـاري
وإذا مغرب الهـداة مشـع وإذا فـاس كعبـة الـزوار
وشعـوب الإسـلام شرقـا وغربـا ترتـوي من معينـه المـدرار
وعيـون الفيـوض علمـا وسرا جـاريـات من بحره الـزخـار
وإذا القـوم بين طـالب علم وإمـام مـدرس أو قـاري
وشيـوخ مثـل الشمـوس وطـلا ب شبـاب يلـوح كـالأقمـار
حلقـات الـدروس فيـه ريـاض يـانعـات وضـاءة الأزهـار
وعلـوم الحـديث والفقـه والتفسيـرفيـه تفـوح بـالأسرار
وإذا مـالـك يحـدث فيـه في جـلال وهيبـة ووقـار
وإذا الأشعري يلقي دروسـا وبحـوثـا في الجبر والاختيـار
وإذا بـالجنيـد ينفـح فيـه نفحـات الأسرار والأذكـار
حلـق كلهن نـور وهـالات علـوم كـأنهن الـدراري

هـــذه هـــالـــة لـــدرس وهـــاتي لنقـــاش مهـــذب وحـــوار

مغرب العـز والنـدا والسجـايـا والهـــداة الأئمـــة الأخيـــار

ملـك المكرمـات قطب البرايـا حسن الشعب عـــاهـــل الأبرار

وولي العهـــد الأمير المجلى شـامـخ المجـد سـاطـع الأنـوار

والأمير الرشيـد بـدر الـديـاجي والنـــوادي وقرة الأبصـــار

الرباط : محمد الكبير العلوي



شاعر الوحدة عبد الكبير العلوي



تحيات المساجد والصلاة ... لعرش العاهل الحسن الصفات
للجامع القروي ترجى ... من الدنيا بأغلى الأمنيات

☆ ☆ ☆

الجامع القروي رمز ... لأمتنا، ورمز للحياة
به فاس تباهت في جلال ... ورجعت المثاني في هناة
وناجى المغرب الأقصى احتسابا ... وإيمانا محاريب الصلاة

☆ ☆ ☆

الجامع القروي أمن ... لماضينا وحاضرنا، وآت
مدى الأزمان واكب في ثبات ... مسيرتنا وخاض الحادثات
فكان مجنة في العاديات ... وكان مرابعا في المبهجات
مرابع للهدى سطعت ضياء ... وشعت رحمة في الضائقات
بهما (الضاد) احتفت زهوا وتاهت ... زواياها بسيدة اللغات
وآيات الكتاب لها رنين ... صداه حديث خير الكائنات
وقامت للهدى آيات صدق ... وللعرفان أفياء الثقات
ورجعت المنابر في انتناء ... وترتيل أناشيد الصلاة

☆ ☆ ☆

جـزيت الخير فـــاطمــــة الفهيرى ودمت مثـــــال خير الأمهـــــات
شريت بجنـــــة للفردوس دنيـــا مبـــاهجهـــا ـ فَطِيمُ ـ إلى فـوات
وآثرت التي تبقى، وأنعم بمــا آثرت روضـــات الجنـــات
فشـــدت لملـــة الإسـلام بيتـــا بنـــــاه على تقى خير الثقـــــاة
فـــأم رحـــابـــه القـوراء ركب وضـــاء الروح غـــزان السمـــات
حمـوا أبهـــاءه علمــــا، وحـــاطـوا ســواريـه بـالصـالحـات البـاقيـات
أقـــام على هـــدى علمـــا تحـــدى أعـــاصير الـــدهـور الســافيــات

☆ ☆ ☆

لقـــد هم الطغـــاة بــــه وكـــادوا فسيمـــوا ـ ويلهم ـ عقبى الطغـــاة
أبـــــو حسن أذاقهم الرزايـــــا وكـــــان عليهم حمى الممـــــات
تحــــداهم، وكـــان الشهم طــودا تحـــدى بـــالثبـــات النـــائبـــات
فـــأسس ـ رغم أنفهم ـ : نظـــامـــا أعـــــاد لـــــه العهـــود الـــزا هرات
وأغرس في مغـــارســـه جـــذوعـــا فـــآتت أكلهـــا رفـــه النبـــات
وأقسم أن يكـــون لــــه وقـــــاء وأن يرعى بنيـــــه والبنـــــات
ومـــا كـــان (بن يـوسف) غير حصن وقى الأوطـــان شر المحـــدثـــات
حمى القرآن والضـــاد احتســـابـــا وعـــاش منـــارة للصـــالحـــات
ومـــا حسن ســـوى شبـــل أمين خطى الآبـــاء يقفـــو في ثبـــات
يـــواكب كـــل مـــأثره ومجـــد ويغتصب المحـــامـــد غير عـــات

☆ ☆ ☆

أمير المـــؤمنين أراك حصنــــا لهـــذا الشعب واقيـــه الهنـــات
لقــــــد آمنت أن العلم نعمي فشِـدت لــه المـدائن شـامخـــات
مـــدائن بـــالمعـــارف وارقـــات مـــدارسهـــا تبـــاهي الجـــامعـــات
ومـــا تنفـــك تعلي في اقتـــدار لهـــا أطمـــا بمختلف الجهـــات
معـــاهـــد مخلصـــات القصـــد تترى معـــاهـــد، عـــاليـــات التقنيـــات
لقـــد أثريت ـ يـــاحسن ـ هـواهـــا وأنت بحبهـــا صـــادق النيـــات
كـــأنـــك والعلـوم على رهـــان سبقت، وأنت من أرمى الرمـــــاة
وآلـــك عترة المختـــار طـــه شرايين العلـــوم الخـــالـــدات

☆ ☆ ☆

وهـــذي الـــدارات إن تحيـوا مليكي رســـالتهـــا، فـــأكرم بـــالحيـات
لقـــد عـــاشت دنـــاهـــا خير ركن لعرشكم المفـــدى بـــالأبـــات
وعـــاش رجـــالهـــا أســـدا تـــواصـوا بـــأن يحمـوا أثيـل المقـــدســـات

فمــا وهنت ولا وهنـوا، وحــاشـا ... ولكن قــاوموا كـل افتيــات
فـإن تحيـوا مـآثرهـا احتسـابـا ... فقــد كنتم لهــا خير الحمـــاة
وكنتم يمن مغنـــاهـــا وبشرى ... وعــدة ربعهــا في النـــازلات

☆ ☆ ☆

أمير المـــؤمنين جـــزاك خيرا ... إلـــه العرش رب الكـــائنـــات
أنرت بسنـــة المختـــار دارا ... وأغـــدقت الحمى بـــالمكرمـــات
وأحييت الكتـــاب، وأنت بر ... بـــآيـــات الكتـــاب المنـــزلات
وأوليت الحنيفـــة كـــل أزر ... فمعقلهـــا بـــأزرك في ثبـــات
أعـــدت لـــه الشبـــاب وكـــان أدنى ... إلى هرم وأشبـــه بـــالمـــوات
فكنت لصـــدعـــه رأبـــا وبعثـــا ... وإحيـــاء وإكسير الحيـــاة

☆ ☆ ☆

أمير المـــؤمنين أقـــل عـــذاري ... فشعري دون وصفـــك بـــالصفـــات
سمـــوت مكـــانـــة وعلـــوت قـــدرا ... وأنت ذرى لكـــل المـــأثرات
وانـــك لم تـــزل تهـــوى المعـــالي ... وتهـــوى من ذراهـــا الســـامقـــات
مـــآثرك الجليلـــة نـــاقـــلات ... بمـــا أســـديت من أسنى الهبـــات
أيـــاد مثلهـــا مثـــل يضـــاهى ... ولكن هي إحـــدى المعجـــزات

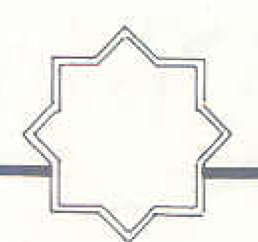
☆ ☆ ☆

أمير المـــؤمنين فـــداك شعب ... وحـــاطـــك حبـــه بمعقبـــات
أطـــال اللـــه عمرك بـــالمثـــاني ... وروق عهـــد ملكـــك بـــالهنـــاة
وقرت عينهم بـــولي عهـــد ... وإخـــوتـــه البنين مـــع البنـــات

فاس : عبد الكريم التواتي



الأستاذ السيد عبد الكريم التواتي يلقي قصيدته



الآفاق التي فتحها القرآن أمام فكر الإنسان

رسالة القرآن في عصر العلم

للشيخ محمد المكي الناصري

تمهيد :

عندما أكرم الله الإنسانية بنزول القرآن كان نزوله بالنسبة لها نقطة انطلاق نحو مرحلة جديدة، وخطوة عملاقة لم تعرفها في أي عصر من العصور، وأكرم الله أمة القرآن التي استجابت لله والرسول فاستوعبت رسالته العظمى وبادرت إلى الاهتداء بهديه، واتخذته رائدها وقائدها، ودليلها ومرشدها، وجعلت منه المفتاح الذي تفتح به أقفال المعرفة، والمصباح الذي تخترق بنوره حجب الكون المجهول.

وبفضل توجيه القرآن الكريم، وتربيته الفكرية والخلقية المثلى، وإشادته بمكانة العلم والعلماء، وتحريره للعقل البشري من الخرافات والأوهام، ودعوته الملحة إلى حل ألغاز الكون والكشف عن آيات الله البينات في الأنفس والآفاق، ورسمه الطريق الصحيح والمضمون، لنمو العلم وتطوره إلى أقصى الغايات، لم يلبث المسلمون إلا قليلا حتى أخذوا يسرحون ويمرحون، ويجولون ويصولون في آفاق العلم الواسعة، التي لا عهد للبشرية بها، وأصبحت لهم الكلمة العليا والقول الفصل في جميع مجالات الحياة التي خاضوها عن بينة وعلى بصيرة، وبإيمان راسخ.

واقتناعا منهم بسماحة الإسلام، وسعة صدره، وامتداد أفقه، وإيمانا بأن الله أقامهم حراسا أمناء، على تراث الإنسانية جمعاء، أخذوا على عاتقهم - باسم الإسلام والقرآن - إحياء ما اندثر من بقايا العلوم والفنون التي كان الفكر الإنساني القديم قد وصل إليها، رغم قلتها، وضيق مجالها، واختلاط الحق فيها بالباطل، والصواب بالخطأ، فصححوا ما فيها من أغلاط وأخطاء، ووسعوا نطاقها، ونقوها من شوائب الأوهام والخرافات، والأضاليل والترهات، واستحدثوا منهجا علميا جديدا استمدوه من روح القرآن، التي تعتمد على المشاهدة والتجربة ولا تقبل سوى الحجة والبرهان، فابتكروا بفضل المنهج القرآني علوما عديدة، فتحت في وجه الإنسانية آفاقا جديدة، وأصبحت تلك العلوم التي ابتكروها عماد الحضارة وقمة العلم منذ ظهورها على أيديهم حتى اليوم، وهكذا رفعوا راية العلم خفاقة في المشرق والمغرب، وحققوا «رسالة القرآن» في العالم على أكمل وجه، طيلة عصور الإسلام الذهبية. بينما كان غير المسلمين لا يزالون يغطون في نومهم العميق، سادرين في ليل الجهالة البهيم، تحت وطأة عصورهم المظلمة «الوسطى»

﴿أو من كان ميتا فأحييناه ثم جعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ (الأنعام، 122). إلا أن الفكر الإسلامي المستمد من القرآن السمح الكريم لم يقتصر على إنارة زوايا العالم الإسلامي بما ابتكره من علوم وفنون إسلامية النشأة والطابع، بل فتح الباب في وجه جميع الوافدين عليه من غير المسلمين، ومكنهم من أسرار العلم الإسلامي والحضارة الإسلامية دون حذر أو تحفظ، فارتووا من معينهما وشربوا من كأسهما حتى الثمالة، وعادوا إلى بلادهم يبثون فيها نفائس العلم الإسلامي ومحاسن الحضارة الإسلامية، مع تكييفها كلها لما يلائم بيئتهم الخاصة. وكان ذلك بداية النهضة الغربية التي واصلها الغربيون دون انقطاع، حتى أصبح لهم في حضارة هذا العصر باع طويل وأي باع ﴿**كلا نمد، هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا**﴾ (الإسراء، 20).

ونظرا لتوقف المد الإسلامي في عالم الفكر والمعرفة فترة من الزمن ـ لعوامل داخلية وخارجية ـ واستمرار الزحف العلمي في الغرب بعد ذلك، ولا سيما في القرنين الأخيرين، أصبح الكتاب الغربيون يعيروننا بأن نهضة العلم الحديث لم يساهم فيها المسلمون أدنى مساهمة، وأنها لا تدين لهم بشيء، كأن العلم الحديث وقف على الغربيين وحدهم، أو كأن المسلمين مسخوا فلم تعد لهم قدرة على خوض هذا المجال، وإن كان أولئك الكتاب أنفسهم يعترفون الآن بأن العلم ـ قبل النهضة الغربية كان إسلاميا، ومن العالم الإسلامي انتقل إلى الغرب، وقد أدى توقف العبقرية الإسلامية عن مواصلة الإنتاج والابتكار في هذا المضمار، بالمحجوبين عن رسالة القرآن والجاهلين بها، إلى أن أصبحوا يتساءلون فيما بينهم وبين أنفسهم ـ وإن لم يصارحوا غيرهم بذلك ـ هل أن رسالة القرآن التي كانت مبعث الحضارة الإسلامية العالمية، ومصدر الفكر العلمي الإسلامي خلال عدة قرون قد استنفذت أغراضها، ولم يعد لها من اللمعان والإشراق وقوة الدفع الخلاق ما يحرك العقول والأفكار، وينير البصائر والأبصار ؟.

لذلك أصبح لزاما علينا أن نلقي الأضواء على رسالة القرآن الخالدة في مجال العلم والكون، بوصفها جزءا لا يتجزأ من معجزة القرآن الباقية أبد الدهر، والمتجددة بما يناسب العصر في كل عصر، وأن نكشف الستار عما تحمله هذه الرسالة في ثناياها من عناصر القوة الذاتية، وما تزخر به من طاقات حية تجعلها قادرة في كل وقت على الإلهام والتوجيه في مختلف الميادين الفكرية والعلمية، بالإضافة إلى ما تتمتع به من حصانة ومناعة تجعلها قادرة على الصمود في وجه الزوابع والأمواج مهما كانت عاتية. وفي ذلك تنبيه لعشاق الحق وأنصار الحقيقة إلى الدور العظيم الذي ينتظر أن تقوم به «رسالة القرآن» في هذا العصر المدعو عند كثير من الناس ب «عصر العلم» وفيما بعده من العصور، لصالح الإسلام والمسلمين، ومنفعة الناس أجمعين.

إن كتاب الله يتوفر على أساليب قرآنية فريدة، ومسالك للكشف عن الحق والحقيقة عديدة وحميدة، سلكها وتوسل بها ـ ولا يزال ـ إلى أداء رسالته وتبليغها في هذا المجال ـ مجال الكونيات والعلميات ـ فمن الواجب إذن لفت الأنظار إليها، وتسليط الأضواء عليها، عسى أن تتحرك الهمم وتنهض العزائم من جديد، لاستئناف الدور المنوط بالإسلام، والقيام به أحسن قيام، في ساحة الحضارة الحديثة والعلم الحديث، فيعود العلم في ظل القرآن، وبتوجيه منه، إسلاميا عالميا، يساهم فيه المسلمون مساهمة فعالة كما كانوا في سابق الزمان، ووقتئذ نفوز في الامتحان، ونكسب الرهان ﴿**ويومئذ يفرح المومنون بنصر الله**﴾ (الروم، 4). ﴿**يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير**﴾ (التحريم، 8).

والآن، فلنشرع على بركة الله في الموضوع، ملتزمين في عرضنا طريقة الإيجاز والاقتضاب، بدلا من التفصيل والاستيعاب، مقتصرين على ما تدعو إليه الحاجة من شواهد معدودة، ونماذج محدودة، تاركين تفاصيل هذا البحث القرآني الجديد، إلى حين نشرها في كتاب جامع مفيد.

مؤملين إذا فسح الله في الأجل أن تسعدنا الأيام بتقديمه هدية إليكم في إحدى المناسبات التاريخية الإسلامية، سائلين الله تعالى أن يعصمنا من الزلل، ويوفقنا لسديد القول وصالح العمل.

وفيما يلي بعض الحقائق التي استخلصناها في هذا الموضوع من كتاب الله.

- وبعض الحقائق التي استخرجناها من تضاعيفه وثناياه.

أولا : إن القرآن العظيم هو أول كتاب إلهي دعا الإنسان دعوة ملحة ومتواصلة إلى مائدة العلم، وأغراه بالجلوس على بساطها، وتناول غذائه الكامل منها. وللوصول إلى هذه الغاية استعمل كل الوسائل النافعة، والأساليب الناجعة، الملائمة لطبيعة الإنسان وتكوينه المادي والروحي، وفي طليعة تلك الوسائل والأساليب :

1 - إثارة ما هو كامن في الإنسان من غريزة حب الاستطلاع.

2 - إثارة ما هو مجبول عليه من حب التظاهر بالعلم، والتمكن من المعرفة، وكراهية الجهل.

3 - إثارة ما فيه من حب لذاته، وحرص على استمرار نوعه، وسعي إلى التوسل بجميع الوسائل لقضاء مآربه وتحقيق مصالحه، وتعريفه بأن الأشياء التي يطالبه القرآن بالنظر فيها، وتتبع أطوارها إنما هي مخلوقة من أجله، ومسخرة لمنفعته، وأن الغاية المباشرة منها هي توفير كل ما يحتاج إليه من ضروريات وحاجيات وكماليات.

ولم ينتظر كتاب الله أن تمر العصور تلو العصور على الإنسان، حتى تتحرك فيه - من تلقاء نفسه - غريزة حب الاستطلاع، وما ارتبط بها من الدوافع الأخرى، بل إنه أثارها وحركها في الإنسان، منذ اليوم الأول من نزول القرآن، وخصص لما عالجه من كونيات وعلميات أكثر من ربع آياته البينات.

فمن شواهد الأسلوب الأول : قوله تعالى في سورة لقمان، (29) :

﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾.

وقوله تعالى في سورة الفرقان، (45) - مكية :

﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل، ولو شاء لجعله ساكنا﴾.

وقوله تعالى في سورة النور، (43) - مدنية :

﴿ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما﴾.

وقوله تعالى في سورة الحج، (63) :

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾.

وقوله تعالى في سورة الزمر، (21) - مكية :

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض﴾.

ومن شواهد الأسلوب الثاني : قوله تعالى في سورة الزمر، (9) - مكية :

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾.

وقوله تعالى في سورة الأنعام، (50) - مكية :

﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾.

وقوله تعالى في سورة الأنفال، (22) - مدنية :

﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾.

وقوله تعالى في سورة المجادلة، (11) - مدنية :

يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾.

وقوله تعالى في سورة يوسف، (76) - مكية :

نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾.

وقوله تعالى في سورة العنكبوت، (43) ـ مكية :

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾.

وقوله تعالى في سورة طه، (114) ـ مكية :

﴿وقل رب زدني علما﴾.

ومن شواهد الأسلوب الثالث : قوله تعالى في سورة عبس، (24 ـ 32) :

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه إنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم﴾.

وقوله تعالى في سورة يس، (33 ـ 35) :

﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾.

وقوله تعالى في سورة النازعات، (30 ـ 31) :

﴿والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم﴾.

وقوله تعالى في سورة يس، (71 ـ 73) :

﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها ياكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾.

وقوله تعالى في سورة ق، (8 ـ 9 ـ 10) :

﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد﴾.

وقوله تعالى في سورة فاطر، (12) :

﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تاكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

ثانيا : إن كتاب الله جرت سنته في نظم آياته البينات على أن يبرز بشكل قوي مشاهد الكون وظواهر الطبيعة، ويجذب نحوها البصائر والأبصار، بل على أن يضعها غير ما مرة في مكان الصدارة، ويخصها بالأولوية والأسبقية في غير ما آية، وذلك كلما أراد توكيد معنى خلقي، أو تقرير مبدأ اعتقادي من أصول الدين، وكثيرا ما يجدد الحديث عن نفس المشاهد والظواهر في عدة آيات وعدة سور مكية ومدنية، هذا مع أن المومنين الذين أنزل عليهم القرآن لا يكذبون بآياته، ولا يشكون في تعاليمه وتوجيهاته، وفي إمكانه أن يعرض عليهم حقائقه ورقائقه رأسا دون تمهيد ولا مقدمات، ودون حاجة إلى تدعيمها بالمشاهد الكونية، والظواهر الطبيعية.

وما دام كتاب الله منزها عن اللغو والحشو والتكرار ـ إذ هو منزه عن كل نقص وما من كلمة من كلماته، أو حرف من حروفه، إلا ووراءه سر دفين وحكمة بالغة، فقد أصبح لزاماً على الذهن الفاحص أن يتلمّس الحكمة في ذلك، مستندا إلى ما يقتضيه المقام، ويدل عليه السياق، وهو أن كتاب الله أراد أن يجعل الكون الذي هو «صنع الله» حاضرا أمام المومنين دائما في ثنايا ما يتلوه عليهم من «كلام الله» حتى يرتبط الإنسان بالكون الذي هو جزء منه ارتباطا محكما وثيقا، وحتى يمتد بينه وبين العالم من حوله جسر متين من الألفة والاندماج يؤدي بها إلى التعارف والتكاثف، والتقارب والتجاوب، والأخذ والعطاء لخير الدنيا والدين.

ومن شواهد هذا الأسلوب المتبع في القرآن الكريم قوله تعالى في سولة يونس، (5 ـ 6) ـ مكية :

﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾.

وقوله تعالى في نفس السورة، (67) :

﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾.

وقوله تعالى في سورة الرعد، (3 ـ 4) ـ مدنية :

﴿**وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾.

وقوله تعالى في سورة الحجر، (19 ـ 22) ـ مكية :

﴿**والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون**﴾.

ثالثا : إن كتاب الله عندما تصدى للدعوة إلى دينه الحق، والكشف عن عقيدته المثلى لم يستعمل من الحجج للدلالة على صدق دعوته وسلامة عقيدته ـ رغم تعدد أجناس الحجج وكثرة أنواعها ـ إلا الحجج المنتزعة من مشاهد الطبيعة وظواهر الكون، فهي وحدها التي وقع عليها الاختيار الإلهي، فأصبحت السند الأول للاحتجاج والاستدلال في جوهر العقيدة وصميم الدين. وما دام كتاب الله قد اختار أن ينتزع من مشاهد الطبيعة وظواهر الكون دلائله القاطعة، وبراهينه الساطعة، على عقائد الدين وحقائقه الأولى، ويعتمد عليها في الإقناع والاقتناع، نظرا لصدق محتواها، وثبوت فحواها، وكونها على طرف الثمام، ليس عليها أي حجاب أو لثام، فقد أصبح لزاما علينا أن نولي وجهنا أولا نحو تلك المشاهد والظواهر، وأن نكشف الستار، عما في الطبيعة والكون من أسرار، فتلك هي الخطوة الطبيعية التي يرشدنا كتاب الله إلى أن نخطوها في البداية، لنصل منها إلى الإيمان بأصول الدين في النهاية، إذ لا سبيل عند الإنسان، لفهم أي مدلول كان، إلا إذا تمكن بادئ ذي بدأ من فهم مضمون الدليل المعروض على نظره فهما تاما، وأدرك وجه دلالته على مدلوله إدراكا شاملا وعاما. وبهذا علمنا كتاب الله أن العلم طريق إلى المزيد من الإيمان، وأن الإيمان وسيلة إلى المزيد من العلم، ونبهنا إلى أن بين العلم والإيمان مزاوجة تكاد تكون مزاوجة عضوية لا يتخلف عنها أحد الطرفين بحال :

﴿**لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ (غافر، 57). ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ (فاطر، 28).

ومن شواهد الطريقة القرآنية للاستدلال على وجود الباري سبحانه قوله تعالى في سورة النبأ (6 ـ 16) ـ مكية :

﴿**ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا**﴾.

وقوله تعالى في سورة الفرقان، (61 ـ 62) ـ مكية :

﴿**تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا**﴾.

وقوله تعالى في سورة فاطر، (9) ـ مكية :

﴿**والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور**﴾.

وقوله تعالى في سورة ق، (11) ـ مكية:

﴿**وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج**﴾.

وقوله تعالى في نفس السورة، (13) :

﴿**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير**﴾. سورة فاطر.

وقوله تعالى في سورة الجاثية، (3 ـ 6) ـ مكية :

﴿إن في السماوات والأرض لآيات للمومنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يومنون﴾.

رابعا : إن كتاب الله لم يكتف بأن يتخذ من مشاهد الكون وظواهر الطبيعة حججه المفضلة للاستدلال على عقائد الملة وحقائق الدين، بل رفع تلك الظواهر الكونية فوق ذلك مكانا عليا، حيث استفتح بها عدة سور قرآنية، وجعلها موضوع قسم ويمين باسم الذات العلية، نظرا لما تمثله تلك الظواهر من عظمة خالقها، وحكمة مكونها ومدبر أمرها، إذ «الدلائل السماوية ـ كما قال فخر الدين الرازي ـ أقهر وأبهر، والعجائب فيها أكثر، وانتقال القلب منها إلى عظمة الله وكبريائه أشد وأكبر».

وواضح أن الله تعالى غني عن كل قسم ويمين، سواء كان القسم بذاته، أو القسم بمصنوعاته **﴿وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا﴾** (الأنعام، 115). **﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾** (النساء، 122). كما أن المخاطبين من البشر لا يعدو حالهم أن يكونوا بين مصدق ومكذب، فالمصدق يصدق بغير قسم، والقسم بالنسبة إليه لا يزيد عن كونه مجرد تأكيد. أما المكذب فلا يصدق ولو مع القسم، وإذن فلا شك أن وراء استعمال هذا الأسلوب ـ أسلوب القسم في كتاب الله ـ حكما الهية، وأسرارا ربانية، أقربها إلى الأذهان، أن تصبح تلك الظواهر الكونية المقسم بها محط الأنظار، ومحل التدبر والاعتبار، حتى يصبح الكون وما حواه مألوفا لدينا، قريبا منا، وحتى يكون موضوع درس وبحث من جانبنا، بحيث يستأثر باهتمامنا، ولا يغيب أمره عنا. وبديهي أن أهمية الشيء المقسم عليه لا تتجلى إلا من خلال التعرف على حقيقة الشيء المقسم به، فبمعرفة الشيء المقسم به معرفة تؤدي إلى المزيد من الاقتناع، يثبت الشيء المقسم عليه ويسلم من كل نزاع، إذ بذلك ينتقل الفكر من الدليل إلى المدلول، وتطمئن النفوس والعقول.

وعندما نستقرئ كتاب الله بحثا عن الظواهر الكونية التي أقسم بها :

نجده أقسم بالسماء والأرض : **﴿والسماء ذات الحبك﴾** (الذاريات، 7). **﴿والسماء ذات البروج﴾** (البروج، 1). **﴿والسقف المرفوع﴾** (الطور، 5). **﴿والسماء وما بناها والأرض وما طحاها﴾** (الشمس، 5).

- ونجده أقسم بالشمس والقمر : **﴿والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها﴾** (الشمس، 1). **﴿والقمر إذا اتسق﴾** (الانشقاق، 18). **﴿كلا والقمر﴾** (المدثر، 32).

- ونجده أقسم بالليل والنهار والشفق : **﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى﴾** (الليل، 1). **﴿والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها﴾** (الشمس، 4). **والليل وما وسق﴾** (الانشقاق، 17). **﴿والليل إذا أدبر﴾** (المدثر، 33). **﴿والليل إذا سجى﴾** (الضحى، 2). **والليل إذا عسعس﴾** (التكوير، 17). **﴿والليل إذا يسر﴾** (الفجر، 4). **﴿فلا أقسم بالشفق﴾** (الانشقاق، 16).

- ونجده أقسم بالفجر والصبح والضحى : **﴿والفجر وليال عشر﴾** (الفجر، 2). **﴿والصبح إذا تنفس﴾** (التكوير، 18). **﴿والصبح إذا أسفر﴾** (المدثر، 34). **﴿والضحى﴾** (الضحى، 1).

ونجده أقسم بالنجوم : **﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾** (الواقعة، 75). **﴿فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس﴾** (التكوير، 15). **﴿والنجم إذا هوى﴾** (النجم، 1). **﴿والسماء والطارق﴾** (الطارق، 1).

ونجده أقسم بالبحر والرياح والسحب : **﴿والبحر المسجور﴾** (الطور، 6). **﴿والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا، والناشرات نشرا، فالفارقات فرقا﴾** (المرسلات، 1). **﴿والذاريات ذروا فالحاملات**

وقرا، فالجاريات يسرا، فالمقسمات أمرا﴾ (الذاريات 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4).

ونجده أقسم بالعصر : **(والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾**. (العصر، 2).

ونجده أقسم بالنفس الإنسانية: **﴿ونفس وما سواها﴾** (الشمس، 7). **﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾** (القيامة، 2).**﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾** (الليل، 3).

ونجده أقسم بالشفع والوتر : **﴿والشفع والوتر﴾** (الفجر، 3).

ونجده أقسم بالشاهد والمشهود : **﴿وشاهد ومشهود﴾** (البروج، 3).

ونجده أقسم بما نبصر وما لا نبصر : **﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾** (الحاقة، 38).

وأما المقسم عليه ـ وهو جواب القسم في هذه الأقسام ـ فأحيانا يكون ـ إثبات التوحيد، كقوله تعالى : **﴿إن إلاهكم لواحد﴾** في سورة الصافات.

ويكون أحيانا إثباتا المعاد والجزاء، كقوله تعالى : **﴿إن ما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾** في سورة الذاريات، وقوله تعالى : **﴿إن ما توعدون لواقع﴾** في سورة المرسلات، وقوله تعالى : عن قيام الساعة ونار جهنم **﴿إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر﴾** في سورة المدثر.

ويكون أحيانا إثبات عصمة الرسول وصدقه، كقوله تعالى : **﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾** في سورة النجم، وتكذيب مزاعم المشكرين ضده كقوله تعالى : **﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾** في سورة الضحى.

ويكون أحيانا التنويه بمكانة القرآن وأنه منزل من عند الله، كقوله تعالى : **﴿إنه لقرآن كريم﴾** في سورة الواقعة، وقوله تعالى : **﴿إنه لقول رسول كريم﴾** في سورة الحاقة.

ويكون أحيانا تنبيه الإنسان إلى ما يتقلب فيه من الحالات وما يتخذه من المواقف كقوله تعالى : **﴿إن سعيكم لشتى﴾** في سورة الليل، وقوله تعالى : **﴿إن الإنسان لفي خسر﴾** في سورة العصر، وقوله تعالى : **﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾** في سورة العاديات، وكقوله تعالى : **﴿لتركبن طبقا عن طبق﴾** في سورة الانشقاق، وقوله تعالى : **﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾** في سورة الطارق، وقوله تعالى : **﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾** في سورة الشمس.

خامسا : إن كتاب الله عندما يأخذ في عرض آياته الكونية لا يعرضها منعزلة مقتضبة، بل يعرضها مصحوبة بتنبيه سابق، أو تعقيب لاحق، ويقدمها للنوع الإنساني محفوفة بأسلوب فريد لا يكاد يفارقها بحال.

فهي في نظامه الخاص إما أن تأتي مسبوقة بصيغة الأمر بالنظر (انظروا) أو بما يفيد مجرد الحض على النظر **﴿أفلا ينظرون ـ أولم ينظروا** (الغاشية، 17) الأعراف، 185).

وأما أن تأتي متبوعة بالنتائج التي تترتب على النظر، من تفكر وتذكر وتدبر واعتبار **﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾** (الروم، 50).

وأما أن تأتي مسبوقة بالوسيلة التي هي النظر، ومتبوعة بالغاية المتوخاة من النظر في آن واحد، ولا شك أن هذه الأساليب كلها تلتقي حول نقطة واحدة هي الإغراء بمحاولة الكشف عن خصائص الطبيعة والتعرف على آثارها ومنافعها، واستخلاص العبرة منها.

1 ـ مثال الأمر بالنظر قوله تعالى في سورة يونس، (101) : **﴿قل انظروا ماذا في السماوات الأرض﴾**. ومثال الحض على النظر قوله تعالى في سورة الأعراف، (185) : **﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء﴾** وقوله تعالى في سورة سبأ، (9) : **﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾**.

2 ـ ومثال التنبيه إلى نتائج النظر قوله تعالى في سورة ق، (8) : **﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾**. وقوله تعالى في سورة الحشر، (2) : **﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾**. وقوله تعالى في سورة النحل في آيات متوالية (11 ـ

17) : ﴿**إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون - إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون - إن في ذلك لآية لقوم يذكرون**﴾.

3 - ومثال الجمع بين الوسيلة والغاية : النظر أولا، والاعتبار أخيرا، قوله تعالى : في سورة الأنعام، (65) : ﴿**انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون**﴾. وقوله تعالى في سورة آل عمران، (191) : ﴿**ويتفكرون في خلق الله والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك**﴾. وقوله تعالى : في سورة الأنبياء، (30) : ﴿**أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يومنون**﴾. وقوله تعالى في سورة النور، (44) : ﴿**يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار**﴾. وقوله تعالى : في سورة لقمان، (31) : ﴿**ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته**﴾. وقوله تعالى في سورة ق، (7 - 8) : ﴿**والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب**﴾.

سادسا : إن كتاب الله عندما دعا الإنسان إلى النظر في «ملكوت» السماوات والأرض وما خلق الله من شيء «لم يكن من المعقول ولا من المنتظر أن يكتفي منه بالنظرة الخاطفة، والرؤية العابرة، والنظر السطحي البسيط، كمن يكتفي من الكتاب برؤية جلده الظاهر، والإعجاب بشكله الفاخر، دون أن يعرف أي شيء مما في باطن الكتاب من الحكمة والعلم، ودون أن يذوق له أي طعم، لأن ملكوت الله، بما يحتوي عليه من بدائع الصنائع أجل وأكبر، وأسمى وأخطر، من أن يلم به النظر القاصر والفكر العابر.

وإذا كان الإسلام - بوصفه دين السماحة واليسر - يكتفي من عوام الناس، بما تشاهده العين المجردة، وتلهمه الفكرة الساذجة، من إيمان «كإيمان العجائز»، فإن من هم فوق هذا المستوى من الخواص لا يقبل الله منهم إلا النظر النافذ الدقيق، والفكر العميق، واستعمال كافة المواهب والملكات، واستثمار جميع الإمكانات، لاستجلاء آياته البينات في كتاب الكون العظيم وكتابه الكريم، وبذلك وحده يستطيع الإنسان أن يصرخ من أعماق قلبه وقد تملى من النظر في عجائب الكون والإعجاب بها قائلا، تمجيدا لله وتقديسا : ﴿**ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك**﴾ (آل عمران، 191).

وتيسيرا للإنسان، سبل الخوض في هذا الميدان على بصيرة من أمره، لم يتركنا كتاب الله مكتوفي الأيدي، بل علمنا ما لم نكن نعلم ﴿**ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم**﴾ (الأعراف، 52)، وأرشدنا إلى الكيفية الصحيحة التي يتم بها النظر، ضاربا لنا الأمثال، ومقدما لنا النماذج ضمن آياته البينات :

أولا : عرفنا بوسيلة النظر - وهي العقل والحواس.

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ (النحل، 78) - والأفئدة هنا جمع فؤاد، وهو في لغة القرآن : العقل الذي يفقه به الإنسان حقائق الأمور، وقوله تعالى : ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا**﴾ (الإسراء، 36). وقوله تعالى : ﴿**قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون**﴾ (الملك، 23). وقوله تعالى : ﴿**وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله**﴾ (الأحقاف، 26).

ثانيا : عرفنا بموضوع النظر - وهو الكون كله بجميع ما فيه من الكائنات، ومن شواهده قوله تعالى : ﴿**أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء**﴾ (الأعراف، 185). وقوله تعالى : ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ (الذاريات، 21). وقوله تعالى: ﴿**أولم يتفكروا في أنفسهم**﴾ (الروم، 8). وقوله تعالى : ﴿**قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يومنون**﴾ (يونس، 101). أي انظروا أي شيء فيهما، فهناك

شيء غامض بالنسبة لكم لابد من كشف الستار عنه وتجليته، وتعميم معرفتــه، ولم يقـل «انظروا السماوات» فــالنظر إلى الشيء هو غير النظر في الشيء.

ثالثا : عرفنا بطريقة النظر، وقدم لنا عدة نماذج من هذه الطريقة.

أ ـ النموذج الأول : مم خلق ؟ ومن شواهده قوله تعالى : ﴿**فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق**﴾ الآية. (الطارق، 5 ـ 6).

ب ـ النموذج الثاني : كيف خلق ؟ ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبـــال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت**﴾ (الغـاشيـة، 17 ـ 20). وقوله تعالى : ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لهـا من فروج**﴾ (ق، 6).

ج ـ النموذج الثالث : كيف بدأ الخلق ؟ ومن شواهده قوله تعالى : ﴿**أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده**﴾ (العنكبوت، 19). وقولـه تعـالى : ﴿**قل سيروا في الأرض فـانظروا كيف بـدأ الخلـق**﴾ نفس السورة (20).

د ـ النموذج الرابع : كيف تطور الخلق ؟ ومن شـواهده قوله تعالى : في وصف الأطوار التي تسبق نزول المطر ﴿**ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب بـه من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار**﴾ (النور، 43 ـ 44). وقوله تعالى في وصف أطوار الجنين : ﴿**ولقد خلقنا الإنسـان من سلالة من طين ثم جعلنـــاه نطفـــة في قرار مكين ثم خلقنـا النطفة علقة فخلقنـا العلقـة مضغـة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسـن الخالقين**﴾ (المومنون، 12 ـ 14). وقولـه تعـالى في وصف أطوار العمر ﴿**هـو الـذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونـوا شيـوخـا ومنكم من يتـوفى من قبـل ولتبلغـوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلـون**﴾ (غـافر، 67). وكذلك قوله تعالى : ﴿**الله الـذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير**﴾.

رابعا : عرفنـا بـالغـايـة المتوخاة من النظر ـ ألا وهي نفع الإنسـانيـة، وتمجيد الربوبيـة، فقد جعل معرفة الكون وسيلة لتسخيره لمنفعتنـا، وسبيلا قـاصدا لمعرفة ربنـا، ومن شواهد هذه الغاية السـاميـة بـالنسبة لمنفعتنـا قوله تعالى : ﴿**أولم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات ومـا في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنـة**﴾ (لقمان، 20). وقوله تعالى : ﴿**يـا أيها النـاس اذكروا نعمـة الله عليكم هـل من خـالـق غير اللـه يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فـأنى توفكون**﴾ (فاطر، 3). ومن شواهد هذه الغاية السامية بالنسبة لمعرفة ربنا قوله تعالى : ﴿**سنريهم آياتنا في الآفـاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنـه الحق أولم يكف بربـك أنـه على كل شيء شهيـد**﴾ (فصلت، 53). وقولـه تعـالى : ﴿**وليعلم الـذين أوتوا العلم أنـه الحق من ربـك فيومنوا بـه فتخبت لـه قلـوبهم وإن الله لهاد الـذين آمنوا إلى صراط مستقيم**﴾ (الحج، 54). وقوله تعالى : ﴿**هـذا خلق اللـه فـأروني مـاذا خلق الذين من دونـه**﴾ (لقمان، 11). وقولـه تعـالى : ﴿**وإن إلى ربك المنتهى**﴾ (النجم، 42).

سابعا : إن كتاب الله عندما دعا الإنسـان للنظر في شؤون نفسه وشؤون الكون المحيط به لم يكلفه بما لا يطيق، بل دعاه إلى استعمال أيسر الوسـائل عنده، وألصقها بـه وهي الحواس والعقل، وندد بمن لا ينتبـه إلى مـا حولـه، ومن لا يستعمل حواسـه وعقله، بـالغ التنـديـد، واعتبره في مستوى

الأنعام أو أشد، ومن شواهد هذا الموقف قوله تعالى : ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ (يوسف، 105). وقوله تعالى : ﴿وما تاتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ (يس، 39). وقوله تعالى : ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ (الفرقان، 44). وقوله تعالى : ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون﴾ (الأعراف، 179).

ولم يقف كتاب الله عند هذا الحد، بل حرض الإنسان على أن يرفض كل ما لم يقم عليه دليل، وجعله أحق بالسخرية والاستهزاء إذا ارتضى لنفسه القناعة بمجرد الظنون والأوهام، أو رضي لنفسه بالتقليد الأعمى.

ومن شواهد هذه الحقيقة القرآنية قوله تعالى : ﴿ نبؤني بعلم إن كنتم صادقين﴾ (الأنعام، 143). وقوله تعالى : ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ (النور، 15). وقوله تعالى : ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (البقرة، 111). قوله تعالى : ﴿ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه﴾ (المومنون، 117). وقوله تعالى : ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ (الأنعام، 148). وقوله تعالى »: ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ (آل عمران، 66). وقوله تعالى : ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ (لقمان، 20). وقوله تعالى : ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ (الملك، 10) وقوله تعالى : ﴿وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم﴾ (الأنعام، 108).

وليبين كتاب الله مكانة الحجة والبرهان، وضرورة الاعتماد عليها وتأثيرهما البالغ في إحقاق الحق وإزهاق الباطل أطلق عليها لفظ «السلطان» في كثير من الآيات، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿فاتونا بسلطان مبين﴾ (ابراهيم، 10). وقوله تعالى : ﴿لولا ياتون عليهم بسلطان بين﴾ (الكهف، 15). وقوله تعالى : ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ (غافر، 56). وقوله تعالى : ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ (النجم، 23). وقوله تعالى : ﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا﴾ (غافر، 35). وإنما سمى كتاب الله البرهان «سلطانا» لقوته على دفع الباطل، كما سمى الأمير «سلطانا» لما يتمتع به عادة من قوة وقدرة على تصريف الشؤون العامة، وصيانة لحقوق الرعية وضبط لمصالحها، مما يجعله أقوى ظهير للضعيف وناصر للمظلوم.

ثم إن كتاب الله كلما استعرض ظواهر الكون ومشاهد الطبيعة نبه الأذهان إلى حقيقة كونية ثابتة سارية المفعول : ألا وهي أن لله سننا في خلقه، ونواميس في كونه لا تتبدل ولا تتخلف، وتحتها تندرج الأسباب والمسببات، والوسائل والمقاصد والمقدمات والنتائج، وفي ذلك تربية للفرد والجماعة على التفكير المنطقي السليم، والتقيد بالنظام في السلوك والعمل، وتنفير من الاعتماد على الصدف والمفاجآت، وتحصين ضد الفوضى الفكرية والحياة الخرافية، ومن نتائج تلك التربية القرآنية أن أصبح كل من يقرأ القرآن بتدبر وروية وفهم، لا يمكن أن يركن إلى الخرافة والخيال والوهم. وبذلك توسل القرآن الكريم إلى تكوين «الأمة العلمية» المثالية كبديل عن «الأمة الأمية» الخرافية، التي عرفتها الجاهلية، إذ لم يبق لها مكان ولا مبرر، بعدما أرسل الله إلى الناس رسولا من أنفسهم، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

ومن شواهد هذه الحقيقة الكونية التي بشر بها كتاب الله قوله تعالى : ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ (الإسراء، 77). وقوله تعالى : ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض﴾ (آل عمران، 137). وقوله تعالى : ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ (النساء، 26). وقوله تعالى : ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد

لسنة الله تبديلا﴾ (الأحزاب، 62). وقوله تعالى : ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ (الأحزاب، 33). وقوله تعالى : ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾. (فاطر، 43).

ثامنا : إن كتاب الله عندما دعا الإنسان إلى النظر في نفسه وفي الكون المحيط به لم يكن من المعقول أن يدعوه إلى النظر فيما هو خارج عن حدود طاقته، لأن ذلك يعد من باب التكليف بما لا يطاق، وإنما دعاه إلى النظر فيما يتأتى له النظر فيه بالوسائل التي يتوفر عليها مما هو داخل في نطاق استعداده وقدرته، وملائم لتكوينه وطبيعته، وبذلك فتح القرآن في وجه الإنسان - أي إنسان كان - باب البحث العلمي على مصراعيه دون تقييد ولا تحديد، أما إذا كان الأمر فوق طاقته أو لا يتوفر على وسائل معرفته، فإنه لا يدعوه إلى النظر فيه أصلا، أو يكشف له عن بعض ملامحه بطريق الوحي والخبر، لا بطريق الفكر والنظر. ومن شواهد الحالة الأولى قوله تعالى في سورة (الإسراء، 85) : ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾. وقوله تعالى في سورة (يونس، 20) : ﴿فقل إنما الغيب لله﴾. ومن شواهد الحالة الثانية قوله تعالى في سورة (هود، 44) : ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾. وقوله تعالى في سورة (الجن، 76) : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول﴾. وقوله تعالى في سورة (آل عمران، 179) : ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾.

ثم إن الأمر بالنظر والحض عليه من قبل الله عز وجل يتضمن الإذن للناظر في مواصلة النظر إلى النهاية، سواء أخطأ أم أصاب، ما دام الأمر يتعلق بمحاولة تفسير وتسخير ظواهر الكون والوجود، دون إنكار للخالق ولا جحود، ونفس الأمر بالنظر يقتضي أن موضوع النظر غير محرم على الناس ولا محجوب عنهم، إذ أن ما يريد الله أن يستأثر بعلمه لا يدعو الناس إلى النظر فيه، بل يوقفهم عند حدهم، ويعرفهم بعجزهم، وهو سبحانه وحده الذي انفرد بكونه عالم الغيب والشهادة قال تعالى : ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾ (النمل، 65). وقال تعالى : ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ (الأنعام، 59). وقال تعالى : ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾ (الرعد، 9). وقال تعالى : ﴿عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾ (الأنعام، 73). وقال تعالى : ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ (سبأ، 3).

تاسعا : إن كتاب الله عندما دعا الإنسان إلى النظر في الكون وجه نظره بالخصوص - علما وعملا - إلى العالم المحيط به والقريب منه، الذي ينتمي إليه ويتوقف في حياته عليه، وهو «عالم الشهادة» الفسيح الذي جعله الله مختبرا للإنسان يدرب فيه عقله، وورشا يمارس فيه نشاطه، وآتاه من الاستعدادات والملكات ما يساعده على كشف خفاياه، وحل ألغازه وخباياه، وتسخير عناصر ومكوناته، والتعرف على حكمة الصانع من خلال مصنوعاته، وعلى العكس من ذلك لم يدفع الإنسان العادي إلى المجازفة والمخاطر باستعمال نظره فيما هو فوق طاقته، من العوالم الأخرى التي لا ينفذ إليها عقله، أو استأثر الله بعلمها دون خلقه، لكونها فوق عقل الإنسان وليست من مشمولات نظره، ومحاولة كشف أسرارها تعد من التخرص على علم الغيب، والتجذيف في متاهات الشك والريب.

وإذا كانت «المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله على مقدار المعرفة بمصنوعاته»، وإذا كانت هذه المعرفة مطلبا ساميا من مطالب الإنسان وأعز رغباته، فإن حكماء الإسلام ينصحون طالبها والراغب فيها بأن يطلبها بالخصوص من «عالم الشهادة» الذي هو العالم المألوف للإنسان، والقريب من مستوى عقله ونظره، بدلا من عالم الغيب الذي هو فوق مستوى إدراكه العادي. قال ابن عطاء الله في كتابه «الحكم» : «أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوناته، وسيكشف لك في تلك الدار عن كال ذاته». وقال أبو إسحاق الشاطبي في كتابه «الموافقات» : «لا يقال إن المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله على

مقدار المعرفة بمصنوعاته، ومن جملتها العوالم الروحانية، وخوارق العادات فيها تقوية للنفس، واتساع في درجة العلم بالله تعالى، لأنا نقول : إنما يطلب العلم شرعا لأجل العمل، وما في عالم الشهادة كاف وفوق الكفاية، فالزيادة على ذلك فضل. ولو لم نجد ما نستدل به على ذلك لنا بعض العذر في التخطي عن عالم الشهادة إلى عالم الغيب، فكيف وفي عالم الشهادة من العجائب والغرائب القريبة المأخذ، السهلة الملتمس، ما يفني الدهر وهي باقية لم يبلغ منها في الإطلاع والمعرفة عشر المعشار، ولو نظر العاقل في أقل الآيات، وأذل المخلوقات، وما أودع بارئها فيها من الحكم والعجائب لقضى العجب، وانتهى إلى العجز في إدراكه، وعلى ذلك نبه الله تعالى في كتابه أن ننظر فيه كقوله تعالى : ﴿**أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض**﴾ (الأعراف، 185). ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت**﴾ الآية ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم**﴾ الآية. (الغاشية، 17)، ثم قال الشاطبي : «ومعلوم أنه لم يأمرهم بالنظر فيا حجب عنهم، ولم يكن لهم الإطلاع عليه ـ عادة ـ إلا بخارقة، فإنه إحالة على ما يندر التوصل إليه. وإذا تأملت الآيات التي ذكر الله فيها الملائكة وعوالم الغيب لم تجدها مما أحيل على النظر فيه، ولا مأمورا بتطلب الإطلاع عليها وعلى ذواتها وحقائقها، فهذه التفرقة كافية في أن ذلك غير مطلوب النظر فيه شرعا، وإذا لم يكن مطلوبا لم ينبغ أن يطلب» (الموافقات، ج 2، ص 283 ـ 284).

عاشرا :إن كتاب الله تحدث في غير ما سورة من سوره المكية والمدنية في تسخير ما في السماوات وما في الأرض للإنسان، وامتن عليه بذلك في غير ما آية من آياته البينات، ولا يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه إلا بنعمه الظاهرة والباطنة. ونعمة «التسخير» التي امتن بها على الإنسان تستلزم وضع الشيء المسخر رهن إشارته، وطوع يديه وفي قبضته، وجعله مسوقا لتحقيق أغراضه وخدمة مصلحته، حتى يتمكن من الانتفاع به، وتوجيهه الوجهة التي يريد، دون عائق ولا مانع.

غير أن الإنسان لا يمكنه الحصول على هذه النعمة الكبرى، والوصول إلى هذه الغاية القصوى إلا إذا كرس جهوده وطاقاته، وواصل محاولاته للكشف عما في الطبيعة من خبايا وأسرار، واستطاع أن يقطع المراحل اللازمة للتعرف على دخائلها واستقراء خصائصها أولا بأول، وبذلك وحده يهتدي إلى طرق استعمالها، ووجوه الانتفاع بها في مختلف الأغراض والمقاصد. فلابد للإنسان إذن من تخطي هذه العقبة الكأداء، حتى تتم له نعمة «التسخير» التي من الله بها عليه، ووكلها إليه، ومقتضى ذلك أن الإنسان مدعو من ربه إلى استعمال فكره ونظره في البحث واستكشاف والاستطلاع، ومطالب باستكناه ما تمثله ظواهر الكون ومشاهد الطبيعة من حقائق وسنن ونواميس وقوانين.

وواضح أن كتاب الله عندما امتن على الإنسان بتسخير الكون له يكون قد أعلن على رؤوس الملإ أن تسخير الطبيعة للإنسان ليس بشيء مستحيل، وإنما هو أمر داخل في حدود الإمكان وحيز الواقع، وأن تسخير الإنسان للطبيعة بإذن الله وحوله وقوته، ليس فوق طاقة الإنسان وقدرته، وإنما عليه أن يمرن عقله، ويصقل فكره، ويبذل جهده، ويمارس حقه في الكشف عن الحقائق الكونية والنواميس الطبيعية، حتى تنقاد له تمام الانقياد، ويبلغ منها المراد، الذي هو خدمة البلاد والعباد، وليكن واثقا بأن هذا العمل من جانبه لا يعد تطاولا على الله، وإنما هو امتثال لأمر الله، وأن الدور الذي يقوم به هو دور البستاني الحاذق الذي يعمل في حديقة الله بإذن من الله.

قال تعالى : ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا**﴾ (البقرة، 29). وقال تعالى : ﴿**ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره**﴾ (الحج، 65). وقال تعالى : ﴿**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ (الجاثية، 13). وقال تعالى : ﴿**وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾ (إبراهيم، 32 ـ 34). وقال تعالى : ﴿**وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى**﴾ (لقمان، 29).

وتوجد نفس الآية في سورة فاطر والزمر). وقال تعالى : ﴿**والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين**﴾ (الأعراف، 54). وقال تعالى : ﴿**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون**﴾ (الزخرف، 13).

حادي عشر : إن الدولة في التصور القرآني الذي يوحي به كتاب الله ليست دولة عشوائية ولا فوضوية، ولا خرافية ولا ديماغوجية، بل «دولة علمية» قائمة عن حسن التقدير، وحسن التدبير، وحسن التسيير، أساسها التخطيط والإحصاء والتتبع والاستقرار، بحيث تتوقع ما يمكن أن يقع، قبل أن يقع، وتعد العدة لمواجهة العدو الظاهر، ومواجهة العدو الخفي، وتتصدى لعلاج ما يعترضها من مشاكل بعد التعرف على طبيعتها وتحليل عناصرها، حتى يكون علاجها لتلك المشاكل علاجا علميا منهجيا. وما دام الله تعالى قد خلق آدم على صورته يعشق ما عند ربه من كمال، ويحاول أن يقتبس من صفات الجمال والجلال، فقد أصبح الإنسان مدعوا ليستوحي من مملكة الله - الكونية - الكبرى ما ينظم به مملكته - الإنسانية الصغرى، في حدود الطاقة البشرية، والإمكانات المادية، وفي نطاق التوجيهات الإلهية.

ومن التوجهات الإلهية التي قدمها كتاب الله للإنسان في مجال العد والإحصاء عى أن يستوحي منها ويقتبس من نورها في هذا الباب قوله تعالى : ﴿**وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا**﴾ (الجن، 23). وقوله تعالى : ﴿**لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**﴾ (الكهف، 49). وقاوله تعالى : ﴿**وكل شيء أحصيناه كتابا**﴾ (النبأ، 28). وقوله تعالى : ﴿**وكل شيء أحصيناه في إمام مبين**﴾ (يس، 12)، وقوله تعالى : ﴿**لقد أحصاهم وعدهم عدا**﴾ (مريم، 94). وقد كانت هذه الآيات الكريمة حافزا لرسول الله ﷺ على القيام بأول عملية إحصاء لعدد المسلمين الأوائل في فجر الإسلام. روى البخاري في صحيحه عن حذيفة (رضي الله عنه) أنه قال : قال النبي ﷺ «اكتبوا لي في تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل، وكان رسول الله ﷺ يأمر بإحصاء من معه كلما هم بمواجهة المشركين في ساحة القتال». روى الطبراني والبيهقي عن أبي أيوب الأنصاري قال : «خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، فقال لأصحابه تعادوا، فوجدهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا، ثم قال لهم تعادوا، فتعادوا مرتين، فأقبل رجل على بكر له ضعيف وهم يتعادون فتمت العدة ثلاثمائة وخمسة عشر».

ومن التوجيهات الإلهية التي قدمها كتاب الله للإنسان في مجال التخطيط قوله تعالى : ﴿**وبارك فيها وقدر فيها أقواتها**﴾ (فصلت، 10). وقوله تعالى: ﴿**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم**﴾ (الحجر، 21). وقوله تعالى : ﴿**وكل شيء عنده بمقدار**﴾ (الرعد، 8). وقوله تعالى : ﴿**وخلق كل شيء فقدره تقديرا**﴾ (الفرقان، 2).

ومن جوانب التخطيط التي سلط عليها كتاب الله الأضواء بشكل خاص قوله تعالى : ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم**﴾ (الأنفال، 60)، فالإعداد للمعكرة، الذي أمر الله به في هذه الآية الكريمة يقتضي عدة أمور متداخلة ومتشابكة لا يتم الاستعداد المطلوب إلا بها، وفي طليعتها إعداد الكفايات والخبرات البشرية اللازمة. وإعداد الكفايات والخبرات على الوجه الأكمل لا يكون إعدادا في المستوى المطلوب إلا إذا كان إعدادا شاملا، صحيا ونفسيا، وتربويا وتقنيا.

كما أنه لابد من إعداد الأسلحة والآليات التي يستعملها الأكفاء المدربون، عند خوض المعركة، أدق استعمال، وهذا الإعداد لا يصبح في متناول اليد على وجه التحقيق إلا بعد التمكن من الفنون العسكرية والصناعات الحربية، والتمكن من هذه الفنون لا يمكن الوصول إليه بعد الحصول على درجة عالية من البراعة في العلوم الرياضية والعلوم الطبيعة.

ثم إن المغامرة بمواجهة العدو لا يصح الإقدام عليها إلا بعد جمع المعلومات الوافية عنه وعن جيشه، وعن مبلغ قوته الضاربة، وقوته التي تقف وراء الخطوط، كل ذلك مع التخطيط الشامل والتعبئة التامة للمعكرة، نفسيا وماديا.

وإذا كان كتاب الله قد نص على الإعداد لمواجهة العدو في حالة الحرب ـ وهي حالة استثنائية ـ فإن ذلك لا يعني أنه يرضى للمسلمين بمواجهة المعارك السلمية الأخرى ـ وهي معارك مستمرة ـ دون إعداد ولا استعداد. بل إن الإعداد لها والاستعداد يكون من باب أولى وأحرى. وفي سيرة رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، والأمثلة الرائعة في التخطيط الدقيق، والإعداد العميق، لمعارك السلم والحرب، مما كان له الأثر البالغ في نصرة الإسلام، وقيام دولته الخالدة على مر الأيام.

على أن نفس التوجيه القرآني لممارسة الإعداد والتخطيط نجده ماثلا فيما قصه علينا كتاب الله من قصة نوح وسفينته، ونجده ماثلا فيما قصه علينا كتاب الله من قصة ذي القرنين والسد الذي أقامه في وجه ياجوج وماجوج، ونجده ماثلا فيما قصه علينا كتاب الله من قصة يوسف وتخطيطه السباعي للأمن الغذائي في مصر، فعن قصة نوح قال تعالى : **﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾**، وقال تعالى **﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾**. وقال تعالى : **﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾** (هود، 36 ـ 41). وقال تعالى : **﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك﴾** (يونس، 73).

وعن قصة ذي القرنين قال تعالى : **﴿حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا ياذا القرنين إن يا جوج وما جوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾** (الكهف، 92 ـ 97).

وعن قصة يوسف قال تعالى حكاية عنه قبل أن يتسلم مسؤولية التخطيط السباعي : **﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تاكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ياكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾** (يوسف، 46 ـ 49) وبعد أن دعاه عزيز مصر للقيام بتلك المهمة الخطيرة قال تعالى حكاية عنهما : **﴿وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾** (يوسف، 53 ـ 58).

ثاني عشر : إن الدولة في التصور القرآني الذي يوحي به كتاب الله ليست دولة علمانية لا دينية «لايكية» ينفصل فيها العلم عن الدين، وإنما هي دولة قائمة على أساس الوئام والانسجام بين الدين والعلم، والدين فيها هو مفتاح العلم، ورائده الأول، ومعياره الصحيح، والتوغل في خبايا العلم، والتعمق في أسراره، وبذل الجهد في اكتشاف نواميسه وقوانينه واجب ديني مقدس لا يقوم غيره مقامه بحال. من أجل ذلك كله لا يقبل منا بصفتنا مسلمين نهتدي بهدي القرآن، ونسترشد بتوجيهاته وإشاراته، أن نكتفي بالقشرة عن اللباب، أو نقف على عتبة الباب. وليس من الحق في شيء أن نعترف بنتائج العلم ثم نتنكر لمقدماته، كما أنه ليس من المنطق في شيء أن نتجاهل حقائق العلم ثم ننتفع بثمراته. ولا يعفينا من مسؤوليتنا في هذا المجال أن نكتفي بالقول : «إن العلم لا يجافي الدين، وإن الدين يشجع على العلم» ثم نقف من العلم وقفة المتفرج المبهوت، فهذا موقف سلبي لا يساعد إلا على إبقاء العلم بمعزل عن الدين، وإبقاء الدين بمعزل عن العلم، على خلاف ما رسمه الإسلام، من الجمع بينهما في وفاق وانسجام، بل ينبغي لنا أن نقول ـ والقرآن حجة لنا من بين أيدينا ومن خلفنا ـ إن العلم جزء لا يتجزأ من مجموع الدين، وإن المسائل التي أثارها العلم الحديث وألقى عليها مزيدا من الأضواء سبق أن أثارها كتاب الله بأسلوبه الخاص، ودعا إلى كشف الستار عنها قبل أن يعتني بها العلم الحديث بعدة

قرون، وإن البحث العلمي القائم على التجربة والاختبار إنما بدأ أول مرة، تنفيذا لأمره، وبإذنه الصريح.

فكم في القرآن الكريم من آيات تحدثت عن السماوات بما فيها من فضاء وهواء، وكواكب ونجوم، وشمس وقمر، وشفق وغسق، ورياح وسحب، وبرق ورعد. وكم في القرآن الكريم من آيات تحدثت عن الأرض وما فيها من أثقال وجبال، وبحار وأنهار، ونبات وأقوات، وإنسان وحيوان. وكم في القرآن الكريم من حقائق علمية تضمنتها آياته الكونية في إيجاز وإعجاز، فكان الكتاب العلمي الوحيد الذي وضع في يد الإنسان ـ منذ أربعة عشر قرنا ـ مفاتح النظام الإلهي الدقيق الساري في أجزاء الكون، بينما لم تشرع أبحاث العلم الحديث في تناول تلك الحقائق بالدراسة والاستطلاع إلا منذ قرنين لا غير. وبهذا يتضح لكل ذي عينين أن ميادين البحث التي يرتادها العلم الحديث في الحاضر، والتي ينتظر أن يرتادها في المستقبل كانت منذ البداية ميادين قرآنية إسلامية أظلها الإسلام بظله، وشملها برعايته، ومهد لدراستها وبحثها تحت قيادته، قبل أن ينتبه إليها العلم الحديث، أو يضرب فيها بسهم.

وإذا كان العلم عندما اصطبغ بالصيغة الغربية قد تنكر للدين وانفصل عنه، بل تبرأ منه، فإن له بعض العذر في ذلك ما دام قادة المسيحية تزعموا محاربة العلم، وقادوا حملة التنكيل بمن نبغ فيهم من العلماء. وما علينا ـ ونحن نحاول عودة هذا العلم إلينا عودا على بدء ـ إلا أن نطهره من شوائب الصيغة الغربية اللادينية التي امتزجت به، ونعيد إليه صبغته الإسلامية الأولى، عندما كان العلم والدين في الإسلام عبارة عن توأمين، بينهما منتهى التقارب وغاية الوئام، ولا يوجد بينهما أدنى قطيعة أو انفصام، إذ لم يكن أي واحد منهما يتوجس خيفة من الآخر، أو يتوقع منه مجابهة أو معارضة، لا في حالة النقض ولا في حالة الإبرام. وبذلك يصبح كل من «صنع الله» و«كلام الله» كما جمعهما كتاب الله في صعيد واحد، يكمل بعضهما بعضا، ويفسر بعضهما بعضا، ولا يناقض بعضهما بعضا، لأنهما صادران عن إله واحد **﴿وإنه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾** (فصلت، 41 ـ 42).

نعم عندما يلقح رجال العلم الحديث معلوماتهم العلمية بكونيات القرآن، ويلقح علماء الإسلام معلوماتهم الدينية بحقائق العلم الحديث الأساسية المطابقة لما في القرآن تصبح وجهة نظر الفريقين متقاربة إن لم تكن واحدة، فتتحد الجهود في نضالها، وتنطلق جميع الطاقات من عقالها، وينصهر الكل في بوتقة واحدة للعمل على حماية الملة، وتعزيز الدولة، في جو سليم، من التفاهم المتبادل، والاحترام المتبادل، وبذلك نخرج من عهد المجابهة والتضارب، إلى عهد التكامل والتقارب، فنستقبل قبلة واحدة ونستعمل معجما واحدا.

ومن البديهي أننا لا يمكننا أن نحلق ونطير بجناح واحد، وإنما نطير بجناحين قويين، سليمين متعاونين، كل منهما يساهم في الحركة ويساهم في التحليق بنا في أجواء الحضارة العليا : دين لا يتنكر للعلم، وعلم لا يتنكر للدين، وقديما قال أحد المبرزين من علماء القرآن : «من أصاب حظا من العلم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر» (الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن» ج 2، ص 25).

ألا وإن لله كتابين في الوجود : كتابا مسطورا أحكمت آياته في الذكر الحكيم **﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾** (العنكبوت، 49). وكتابا منظورا فصلت آياته في آفاق الكون العظيم **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾** (فصلت، 53). وعن هذا الكتاب المنظور يقول الله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل : **﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾** (الأنعام، 75). ويقول الله تعالى حكاية عن خاتم الأنبياء والمرسلين : **﴿ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾** (النجم، 18). الكتاب الأول تنطق آياته بلسان المقال، وهو شبه المدخل والمقدمة، والكتاب الثاني

تنطق آياته بلسان الحال، وهو المقصود والخاتمة ﴿**وإن إلى ربك المنتهى**﴾ (النجم، 42).

وفي كل شيء لــــــــه آيــــــــة
تــــدل على أنــــه الــــواحــــد

الكتاب الأول اقتضت حكمة الله أن يكمل ويبلغ حد التام، فأحصى آياته عددا، والكتاب الثاني اقتضت إرادة الله أن يبقى مفتوحا إلى الأبد، وأن تظل الكتابة فيه دائما سرمدا ﴿**ألا له الخلق والأمر**﴾ (الأعراف، 54).

وإلى كتاب الله المتلو والمسطور يشير قوله تعالى في سورة (الفرقان، 5) ﴿**قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً**﴾. وقوله تعالى في سورة (الواقعة، 75 ـ 80) : ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين**﴾.

وإلى كتاب الله المرئي والمنظور، والمفتوحة صفحاته على مر الدهور وإلى يوم النشور يشير قوله تعالى في سورة (لقمان، 27) : ﴿**ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم**﴾. وقوله تعالى في سورة (الكهف، 109) : ﴿**قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا**﴾ صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم.

الرباط : **محمد المكي الناصري**



السيرة النبوية أو حقيقة النبوة

للدكتور
محمد الكتاني

من الظواهر الملموسة في حياتنا الفكرية غياب التاريخ الإسلامي أو غياب تاريخ العصر النبوي على الأخص من ذاكرة المسلمين متعلمين ومثقفين فضلا عمن دونهم. إلا بالنسبة للمؤرخين المتخصصين وأساتذة التاريخ في المعاهد التربوية والعلمية. وهذه ظاهرة مؤسفة، لأن المجتمع الذي يقوم على العقيدة مثل مجتمعنا الإسلامي مهما كان مستوى التزامه بها ووعيه إياها فإن وضوح البعد التاريخي لعقيدته من شأنه توثيق الرباط الروحي والفكري بينه وبين تلك العقيدة. وربما كان السبب في هذا الغياب أو التعتيم للتاريخ النبوي هو تفشي الجهل وضعف الوازع الروحي لمعرفة عصر الدعوة الإسلامية والوقوف على أطوارها في عصر طغت فيه الاهتمامات المادية على كل نوازع المعرفة وتطلعات الروح والوجدان، ولكن السبب المذكور لا يكفي في نظري لو لم يكن هناك ما يمهد له ويثبته، وهو برامج التكوين التربوي التي عزلت العلوم الإسلامية وجعلتها مستقلة، وجعلت الإطلاع عليها مقصورا على الفئات التي تختار الاتجاه التربوي الديني. وبذلك تغلغل التفكير العلماني في توجيه التعليم بالبلاد الإسلامية بغير استثناء. وهو الاتجاه الذي جاء ببدعة التمييز بين التعليم العصري والتعليم الأصلي، وجعل الذين يفضلون التكوين العصري لخوض غمار الحياة العصرية لا صلة لهم إلا قليلا بالتكوين في مجال علوم الإسلام وتاريخه.

ومن نتائج هذا الفصل أن أصبحت أجيال من المسلمين لا تقرأ تاريخ نبيها ورسولها إلا من خلال ما كتب عنه الأجانب بلغاتهم، لأنهم لا يتقنون إلا تلك اللغات، وبالتالي لا يتأثرون إلا بما يكتبه الأجانب عن حقائق ديننا بما في هذه الكتابات من عداء سافر وأخطاء شنيعة.

إن التاريخ بالنسبة للأمم التي لها تاريخ حافل كالأمة الإسلامية هو الرصيد الذي لا ينضب لإمدادها بمقومات الصمود والبقاء والحفاظ على أصالتها وهويتها. وبهذا التصور للتاريخ القومي أو الديني يصبح التاريخ حافزا على المبادرة والإقدام على التغيير والتجديد والتطور في إطار من الوفاء للقيم المتأصلة في التاريخ القومي والعقدي. لكن قد يتحول هذا التاريخ إلى ذاكرة معزولة عن الواقع، بقدر ما تسوده المبالغة والتهويل، فيتحول إلى أسطورة تجتره الذاكرة ولا تنتفع منه لأنها لا تجد فيه منطق الواقع وسنن الطبيعة.

والسيرة النبوية لرسول الإسلام ﷺ من أصدق الأمثلة الدالة على هذه الحقيقة. فقد تحول هذا التاريخ من

مبعثه ﷺ إلى أن التحق بالرفيق الأعلى وبالنسبة لطائفة عريضة من المسلمين إلى أسطورة تحكي على خوارق الطبيعة وعجائب الأحداث ما لا يتفق حتى مع النص القرآني. كما تحول هذا التاريخ نفسه بالنسبة لفئات من المثقفين المستغربين إلى تاريخ معتم مليئ بالتشكيك، مشحون بالشبهات وافتراءات الحاقدين على الإسلام ورسول الإسلام. والموقف الأول من كتابة السيرة النبوية هو الذي دفع أحد كبار المؤرخين العرب المعاصرين إلى القول : «إن النبي العربي محمدا ﷺ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. وهو عبد الله ورسوله، وهو نبي وبشر مثل سائر البشر إلا في النبوة ونزول الوحي. وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إلاه واحد**﴾ (الكهف ـ 111) وعلى هذه الآية يجب السير في تدريس السيرة النبوية وتاريخها ولو سار المؤرخ بموجبها وبموجب وحي الآيات القرآنية الأخرى لجنب نفسه الوقوع في المزالق والمآخذ، ولجعل من السيرة النبوية سيرة نبي مرسل بالمعنى الإسلامي الصحيح الذي نجد روحه في الآية المذكورة. ولو جنب أصحاب السيرة المتأخرون سيرهم (يقصد السير النبوية) القصص الإسرائيلي الذي أدخل على السير وعلى الإسلام.. لأراحوا السيرة وجنبوا الناس الأخذ بهذا القصص الذي بنى عليه المستشرقون أحكاما وآراء أساءت كثيرا إلى الإسلام، ونفذوا منها إلى التشكيك في صاحب الرسالة. (تاريخ العرب في الإسلام للدكتور جواد علي. ج75/1).

هذا الرأي يشير كما هو واضح إلى نوع من الكتابة لتاريخ الإسلام في عصر النبوة لا يستند إلى تحليل الوقائع والأحداث بالأسلوب العلمي الرصين، وفي ضوء التقيد بالقرآن والسنة الصحيحة. ولكنه يجعل هذا النمط من الكتابة أو الفهم للسيرة النبوية سببا لما وقع فيه الأوربيون من تجن على تاريخ الإسلام وتشكيك فيه، ونحن لا نشاطر هذا المؤرخ رأيه بكامله. لأننا نعتقد أن الذين كتبوا عن تاريخ الإسلام من الغربيين الباحثين متخصصين كانوا أم قساوسة ومبشرين أو علماء ماديين ملحدين كانوا يدركون ما تنطوي عليه الأصول التاريخية للإسلام. وهي القرآن والسنة والمصادر الكبرى للتاريخ الإسلامي كتاريخ الطبري (310) وسيرة ابن هشام (218) وطبقات ابن سعد (230) وكتب الصحاح. ولكنهم كانوا بحكم إيديولوجياتهم يؤثرون الروايات المنحولة، والمدسوسة للطعن في الرسول وفي رسالته. بل إننا رأيناهم في كثير من المواطن يعمهون عن إدراك المعاني القرآنية فيتأولون الآيات على النحو الذي يلائم نزعاتهم. فما كان يحول بينهم وبين إدراك الحقيقة وإنصاف التاريخ الإسلامي أو النبوي ليس هو تهاويل وإسرائيليات القصاصين، وإنما هو أحد أمرين : فإما نزعة إلحادية أو مادية تاريخية لا تؤمن برسالة رسول الله ولا نبوة نبي، ولا ترى في تاريخ الإسلام سوى حركة اجتماعية إصلاحية لها ما لها وعليها ما عليها، مما تعرفه جميع الحركات الاجتماعية والسياسية من عثرات وأخطاء ومغالطات وأساليب براغماتية. وهذا ما نجده عند بندلي جوزي (1942) صاحب كتاب (الحركات الفكرية في الإسلام) القدس 1928.

وإنما نزعة صليبية حاقدة على الإسلام كالذي نجده مثل لامانس (1937) في أكثر من مقالة وبحث.

إننا لا نتصور كيف يكتب المرء عن تاريخ يحقد عليه، فهو لا يكتب عنه إلا من قبيل التشكيك فيه والطعن في كل جوانبه. مثلما كتب الصليبيون والمبشرون والقساوسة من المستشرقين عن الإسلام. بل لا نتصور كيف يكتب عن نبي الإسلام من لا يؤمن بالنبوة أصلا، ولا يدين بعقيدة من العقائد السماوية.

غير أنه وإن كان من الضرورة المنهجية أن يكتب عن السيرة النبوية العالم المؤمن بالكتاب والسنة فإنه يجب على العالم المؤمن أن يتقيد بهذين المصدرين أولا. ولا ينساق لعرض الخوارق والمعجزات التي ترد في الروايات غير الموثقة علميا إلا بقدر ما تدل عليه الآيات وتؤكده السنة الصحيحة مما نجد له أمثلة متعددة في السيرة النبوية نفسها. فالضرورة المنهجية تفترض التعاطف مع الحقيقة لإدراكها إلا أنها تفترض التقيد فيها بالوقائع الثابتة التي لا تخلط الحق بالباطل والصحيح بالمنحول.

ومن الغريب حقا ألا يعتمد القرآن مصدرا للتاريخ النبوي بالأساس. وألا تعتمد السنة النبوية الصحيحة مفسرة ومعززة بالبيان والتفصيل لما ورد في القرآن مجملا. فالقرآن يقفنا على جوهر الدعوة الإسلامية ومنطقها العام وتاريخيتها وحركيتها ونفسية الرسول خلال هذا التاريخ المشرق الوضاء بالقيم العليا وبالأخص في سبيلها.

وهذا ما يجعلنا نذكر بكون القرآن هو دليل النبوة المحمدية ومصدر السيرة النبوية برهان صدقها.

وسنجد في القرآن تاريخا للدعوة وعرضا للرسالات النبوية السابقة لمواقف الأقوام الذين بعث إليهم الرسل والأنبياء. وما نشأ من صراع بينهم وبين المعارضين، وما خضع له هذا التاريخ من سنن إلهية وضوابط اجتماعية. كل ذلك يساق تثبيتا لقلب النبي ﷺ في خضم تلك المعركة الضارية الدائرة بين الإيمان والكفر وبين الهداية والضلال. **﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾** (هود ـ 120).

نقطة انطلاق في تاريخ الدعوة الإسلامية هي الوحي، أو نزول القرآن. ومن النظر في هذا القرآن تصديقا أو تكذيبا أو شكا تقوم كل التصورات الصحيحة أو الزائفة، وتأخذ الوقائع سيرها وترابطها ومنطقها أو تظل أشتاتا لا تستقيم في اتجاه معلوم، أو تحمل على منطق آخر، مغاير لها ولطبيعتها. فتقصى الحقيقة إقصاء. ويقوم الظن والوهم مقامها كما وقع لكثير من كتاب الغرب ومفكريه، حين كتبوا عن حياة النبي ﷺ. إن تأمل القرآن ودراسته دراسة دقيقة يضعان كل باحث أمام حقيقة ساطعة، وهي نبوة سيدنا محمد وتلقيه الوحي الإلهي الذي هو القرآن، وإن الرسول ﷺ حين تلقى هذا الوحي أو هذا الكلام الإلهي كان قد أيقن بذاته أن ما يتلقاه هو أمر فوق الطبيعة لا قدرة له على التحكم فيه، ولا على التحكم في ذاته نفسها إزاءه.

لقد كان محمد ﷺ قد واجه شعور الاقتناع بنفسه بأن ما يتلقاه هو كلام الله، وأنه رسوله إلى الناس، وعندما استيقنت نفسه بالدلائل الباهرة والكشف الرباني وانشراح صدره للحقيقة العليا قام بتبليغ ما يتلقاه بقوة لا تقهر. لأنه كان يحس بأن ما ينزله الروح الأمين على قلبه من كلام الله هو كلام الله المتميز بطبيعته عن كل كلام بشري. وهذه حقيقة أدركها كل عربي يومئذ سمع القرآن، وإن جادل فيها خصوم الإسلام وأعداء الرسالة. رغم يقينهم بحقيقتها الدامغة.

قال ابن إسحاق في سيرته يروي ما قاله النضر بن الحارث، وكان خصما لدودا للرسول ﷺ، وأحد كبار مثقفي عصره، وممن كان يطمح إلى الرئاسة والظهور عن إحساس بمعارفه وعلو مكانته، قال لقريش ينصحهم : «يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، وقد كان محمد فيكم غلاما حدثا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم : كاهن لا، والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتَخالُجهم. وسمعنا سجعهم. وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هجزه ورجزه، وقلتم : مجنون. لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يا معشر قريش. فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أحد عظيم».

ولكن النضر لم يؤمن رغم ذلك. بل جعل يلاحق الرسول بالتكذيب، ويجمع الناس حوله ليحدثهم بحديث الغابرين من قصص الأمم كالفرس، ويدعى أنه يروي للناس ما يرويه محمد ﷺ من أساطير في القرآن. ولعله في شأنه ورد قوله تعالى : **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾** (الأنفال).

القرآن هو دليل النبوة المحمدية الأول ومصدر السيرة. وهو الوثيقة الفذة التي تملكها الإنسانية اليوم بأسرها من غير أن يصيبها تبديل أو تحريف أو تغيير. وتملك استنطاقها والاستدلال بها على النبوة والوحي، وكلام الله تعالى وخطابه للبشرية.

وفي هذا المجال يمكن إيراد الملاحظات التالية :

1 ـ لم تكن شخصية الرسول ﷺ قبل البعثة معروفة بأي مذاهب أدبية أو بلاغية، فلم يكن له أي وصف سوى الأمين. ولم يكن قد صدر عنه لا شعر ولا خطابه على الإطلاق. ويأتي الخطاب الإلهي على لسانه بعد الوحي ليكون دليلا على أنه من عند الله. إذ لا يعقل أن يصدر كلام في هذه الطبقة من الإعجاز بعد أن تمر أربعون سنة من حياة الرسول لم تحفظ عنه فيها خطبة أو كلمة بليغة. وقد كان ﷺ أميا لا يقرأ ولا يكتب. وقد وصفه القرآن بذلك. ﴿**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة...**».

2 ـ عندما تلقى الرسول ﷺ الوحي خوطب بالأمر الإلهي (إقرأ) ثلاث مرات. وكأنما أريد بذلك أن يتهيأ لسماع الوحي بكل جوارحه وتركيز ذاتيته فيه. وعندما كان يجيب ملك الوحي : ﴿**ما أنا بقارئ**﴾، كان ملك الوحي يكرر الأمر. ثم ما لبث أن جاء الخطاب الإلهي الحاسم ﴿**إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم**﴾.

3 ـ عندما تلقى الرسول ﷺ الوحي لم يتلقه مرة واحدة. بل تلقاه خلال أكثر من اثنين وعشرين عاما كان الوحي ينزل خلالها حسب الدواعي وأسباب النزول. ولحكمة أخرى كشف عنها القرآن نفسه. قال تعالى : ﴿**وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك، ورتلناه ترتيلا**﴾ (الفرقان ـ 32).

4 ـ وكان الرسول ﷺ يدرك كامل الإدراك طبيعة الخطاب الإلهي، والنسق القرآني. وقد حرص ﷺ على ألا يكتب أصحابه في بداية العهد النبوي عنه شيئا من أحاديثه غير القرآن، حتى لا يختلط عليهم القرآن بالحديث.

بل كان هناك الحديث القدسي الذي تحدث به الرسول باسم الحق تعالى. ومع ذلك فهو متميز عن القرآن، بكون المعنى من الله، واللفظ أو الأسلوب من رسوله ﷺ.

5 ـ إن الوحي لم يكن طوع إرادة الرسول ﷺ أي لم يكن يتلقاه متى شاء ذلك. وإنما كان يتنزل عليه على غير موعد ولا انتظار لوقت معلوم. وقد كان يشتد به الأمر في بعض المواقف ويسأل ﷺ عن الأمر لا يرى نفسه قادرا على البث فيه، فيعلق الإجابة على الوحي.

روى ابن هشام أن قريشا أرسلت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى يهود يثرب يسألونهم ـ وهم المعروفون بأهل الكتاب، وبأخبار النبوات ـ عن حقيقة محمد ﷺ. فقالت أحبار اليهود لهما سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم عنهن فهو نبي مرسل. وإن لم يفعل فهو رجل متقول. فجاءوا إلى مكة، وأخبروا قريشا فبعثت إلى الرسول وسألته أن يخبرها عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ولهم خبر عجيب، وعن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح. فقال لهم رسول ﷺ سأخبركم بما سألتم عنه غدا. ولم يستثن، فانصرفوا، فمكث الرسول ﷺ ينتظر خمس عشرة ليلة لم يطرقه الوحي خلالها، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة وتحدثوا عن الأمر. وقالوا : وعدنا محمد غدا. فأين الإجابة وقد نسق الأمر على رسول الله ﷺ. وكان الفتية هم أهل الكهف، والرجل الطواف هو ذا القرنين. وعندما نزل الوحي بسورة (الهكف) جاء الأمر خلال قصة القصة ﴿**ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله، واذكر ربك إذا نسيت**﴾ (الكهف ـ 24).

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظنا. فقال له جبريل : ﴿**وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، وما كان ربك نسيا**﴾ (مريم ـ 64).

وهناك حالات أخرى يجيئه الوحي ليصحح أو يعتب أو يؤاخذ النبي ﷺ في أمر من الأمور التي جرى فيها

على اجتهاده الخاص، ففي سورة التحريم ﴿**يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك**﴾، وفي سورة الأحزاب ﴿**وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه**﴾، وفي سورة التوبة ﴿**عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين**﴾، وفي سورة الأنفال ﴿**وما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**﴾.

فلو كانت المواقف النبوية في جميع أحواله مجرد مواقف شخصية منه ﷺ أكان يعلن اليوم ما ينتقد عليه نفسه غدا في نفس الخطاب ونفس الأسلوب ؟ أكان يعلن عن تراجعه بهذا التهويل والتقريع ؟ ألم يكن له السكوت والصمت ملجأ يبقي على حرمته الهيبة أمام خصومه ؟ بلى إن القرآن لو كان مجرد كلام صادر عن ذاتية النبي كما يقول المفكرون والملحدون لما جرؤ النبي أن يتقول عن نفسه الشيء وضده في وقت واحد. وهل كان يستطيع أن يكتم شيئا من خبر الوحي ؟ كلا، لو كان يستطيع الكتمان لكتم أمثال هذه الآيات. ولكنه الوحي يتنزل والرسول ﷺ هو الناطق الأمين به.

نحن إذن أمام أمثلة من القرآن تكشف عن نفسية الرسول ﷺ كما أن هناك أمثلة أخرى تكشف لنا عن حقائق سيرته الشريفة مما يدل على موضوعية الوحي. واستقلاله الكامل عن ذاتية الرسول ﷺ. فالقرآن لا أثر فيه للبشرية كما ادعى ذلك المفكرون الغربيون المحدثون. ولا لفظ فيه مطلقا يمكن أن يكون من غير وحي الله أو خطابه تعالى الموحي به.

بل نرى للوحي ساعة نزوله واقعا فيسيولوجيا له مظاهره المادية التي لا يمكن تفسيرها بغير تدخل قوة عليا في المجال النفسي والفيسيولوجي للرسول ﷺ، فحين ينزل الوحي على الرسول يتفصد جسمه عرقا في أشد أحوال الطقس برودة. وحين ينزل عليه ﷺ الوحي وهو راكب الناقة أو البعير لشدة ما يطرأ على جسمه الشريف من ثقل مفاجئ.

وأخيرا كان تكوين الرسول ﷺ الجسماني والنفسي من القوة والتماسك لا يمكن قدره إلا في هذه الآية الكريمة : ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله**﴾ لكن محمدا ﷺ يتنزل عليه القرآن وهو خاشع النفس متفتح القلب، مشرق الروح يستمع لخطاب الحق في أروع صور الثبات والتماسك. فكان كيانه الجسماني أقوى من أي كتلة مادية في العالم حين يتنزل عليه الوحي.

وفي غمرة الوحي يستبق لسان الرسول للتلفظ بما يتلقى مخافة النسيان أو السهو أو غيرهما. فيقول له الحق : ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه**﴾.

ثم يأتي التأكيد على موضوعية القرآن وعلى استقلاله عن ذاتية الرسول، أسلوبا ومضمونا وترتيبا، وبأنه لم يكن الرسول ﷺ إلا التلقي والتبليغ وذلك من هذه الآية الحاسمة :

﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا إيت بقرآن غير هذا أو بدله. قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، لقد لبثت فيكم عمرا من قبله. أفلا تعقلون**﴾.

بعد هذه الجولة في إثبات كون القرآن العظيم هو دليل النبوة ومصدر السيرة النفسية للرسول ﷺ وكونه هو الخطاب الإلهي الذي لم يتطرق إليه تحريف بإجماع المسلمين وشهادة التاريخ وتواتر نصه تواتر لا نظير له في أي وثيقة تاريخية مهما بلغت.

ننتقل إلى لازم هذه الحقيقة وهي كون الرسول ﷺ كانت سيرته ناطقة بهذا الالتزام. التزام محمد ﷺ بأمر ربه، والتصرف مع الناس تصرفا يفوق تخطيط العقل ويعلو

على ضرورة التقيد بأعراف ومواضعات السياسة والقيادة والتدبير الشخصي.

ودليلنا على ذلك هذه الواقعة، ذلك أننا نقرأ في صحيح البخاري وسنن أبي داود وغيرهما قصة الحديبية، ففيها آية بينة : أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من يعتدي عليهم أينما وجدوه، غير ألا يقاتلوا في الحرم من لم يقاتلهم فيه نفسه، فقال تعالى : **﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾**.

فلما أجمعوا زيارة البيت الحرام في ذلك العام وهو العام السادس من الهجرة أخذوا أسلحتهم حذرا أن يقاتلهم أحد فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع. ولما أشرفوا على حدود الحرم علموا أن قريشا قد جمعت جموعا على مقربة منهم فلم يثن ذلك من عزمهم، لأنهم كانوا على تمام الأهبة، بل زادهم ذلك استبسالا وصمموا على المضي إلى البيت فمن صدهم عنه قاتلوه، وكانت قريش قد نهكتها الحروب فكانت البواعث كلها متضافرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يتمكن فيها الحق من الباطل فيدمغه. وإنهم لسائرون عند الحديبية إذ بركت راحلة النبي ﷺ وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور، فقالوا : خلأت القصواء، خلأت القصواء، أي حرنت الناقة. فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم **﴿ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل﴾** يعني أن الله الذي اعتقل الفيل ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين هو الذي اعتقل هذه الناقة، ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عنوة، وهكذا أيقن أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين، لا بادئين ولا مكافئين. وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى. فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية، وعدل بهم عن متابعة السير امتثالا لهذه الإشارة الإلهية التي لا يعلم حكمتها، وأخذ يسعى لدخول مكة من طريق الصلح مع قريش قائلا **﴿والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها﴾** ولكن قريش أبت أن يدخلها في هذا العام لا محاربا ولا مسالما. وأملت عليه شروطها قاسية بأن يرجع من عامه، وأن يرد كل رجل يجيئه من مكة مسلما. وألا ترد هي أحدا يجيئها من المدينة تاركا لدينه، فقبل تلك الشروط التي لم يكن ليمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم، وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم وبالعودة من حيث جاءوا. فلا تسل عما كان لهذا الصلح من الوقع السيء في نفوس المسلمين، حتى إنهم لما جعلوا يحلقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضهم بعضا ذهولا وغما، وكادت تزيغ قلوب فريق من كبار الصحابة فأخذوا يتساءلون فيما بيهم ويراجعونه هو نفسه قائلين : لم نعطي الدنية في ديننا ؟ ـ وهكذا كاد الجيش يتمرد على أمر قائده ويفلت حبله من يده.

أفلم يكن من الطبيعي إذ ذاك لو كان هذا القائد هو الذي وضع هذه الخطة بنفسه أو اشترك في وضعها أو وقف على أسرارها أن يبين لكبار أصحابه حكمة هذه التصرفات التي فوق العقول، حتى يطفئ نار الفتنة قبل أن يتطاير شررها ؟ ولكن أنظر كيف كان جوابه حين راجعه عمر : «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري» يقول : إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن أنفذ أمر مولاي واثقا بنصره قريبا أو بعيدا. وهكذا ساروا راجعين وهم لا يدرون تأويل هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح فبينت لهم الحكم الباهرة والبشارات الصادقة فإذا الذي ظنوه ضيما وإجحافا في بادئ الرأي كان هو النصر المبين والفتح الأكبر. وأين تدبير البشر من تدبير القدر، **﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا. هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم، ليدخل الله في رحمته من يشاء، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما. إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية**

الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى، وكانوا أحق بها وأهلها، وكان الله بكل شيء عليما. لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا.

مناط الاستدلال في هذه الواقعة ثقة الرسول ﷺ بأمر ربه. وعمله بما يقرره الوحي ولو خالف إجماع أصحابه. وتأكيد الوحي للرؤيا التي أراها الله لرسوله بأنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين لا يخافون.

أكان في إمكان قائد سياسي أو عسكري أن يقدم على ذلك السلوك، وأن يتنبأ بأن الحق معه. وبأن الواقع سيجري تماما طبقا لما يتصوره قبل سنتين لو لم يكن ذلك القائد نبيا مرسلا يتلقى أمر الله، ويصدع به. وينفذ أمره في وثوق مطلق بما يعده الله به.

☆ ☆ ☆

ولكن هذا التوجيه الإلهي للرسول لم يكن ليعني أن سيرة الرسول كانت مجرد تنفيذ للتعاليم الإلهية لا غير، فالواقع أن الرسول كان يتصرف بمقتضى أمر ربه حينا وبمقتضى عبقريته الشخصية حينا آخر. وهذا ما دفع كثيرا من الباحثين في عصرنا الحاضر إلى كتابة سيرته من منظور تحليل عبقريته فكتب العقاد عن عبقرية محمد وحلل لنا شخصية الرسول في منا قبها ومواهبها وصفاتها العالية تلك الصفات التي يتفق على تعظيمها من يدين برسالته ومن لا يدين له برسالة.

وقد تحدث العقاد في هذا التحليل المسهب عن الطبائع الأربع ـ كما حددها ـ وهي طبيعة العبادة، وطبيعة التفكير، وطبيعة التعبير وطبيعة العمل والحركة. فهي في نظره طبائع تتفرق في الموهوبين من الناس أو في عامة الناس ولكنها قلما تجتمع في إنسان واحد على قوة واحدة. فإذا اجتمعت فواحدة منهن تغلب ما عداها لا محالة، ويكون لها الظهور على غيرها. فالإنسان إذن إما **مفكر** يحلل ويتفلسف وينظر ويجادل. وإما **عابد** يتأمل الكون ويفنى فيه ويحاول أن يسمو بأخلاقه في عبادة خالقه ويصبح قلبا كبيرا يحتوي الكون بما فيه، وإما **فنان** يعبر عما يحس ويجد ويتأثر به من مشاهد الجمال ومشبوب الخواطر والعواطف، ويصوغ ذلك في قوالب من الشعر أو النثر أو التصوير الفني. وإما **عامل حركي** يخوض غمار الحياة ويتفاعل مع الواقع ويتأثر به ويؤثر فيه، ويحدث في التاريخ حركة ما محدودة أو غير محدودة.

وقلما يتهيأ لكائن من الناس أن يجعل من كونه بيتا لأسرة ناجحة، ومعملا لبحث علمي ومتحفا لفن وميدانا لبطولة من البطولات، ومعبدا للخالق يتنزه على كل مطالب الحياة. وإنما هي حالة واحدة من هذه الحالات تتحقق على تفاوت لإنسان ولآخر. إلا محمدا ﷺ فهو الذي جمع هذه الطبائع كلها فكان عابدا لا حدود لا يمانه وزهده. ومفكرا مشرق الفكر كأبلغ ما يكون الإشراق وقائلا بليغا أوتي جوامع الكلم، ورجلا قائدا وسياسيا غير الدنيا والتاريخ بعمله.

وربما غاب عن العقاد شيء أهم من كل هذه الطبائع وعن اجتماعها في شخصية الرسول ﷺ وهذا الشيء هو كون الرسول كان في كل طبيعة من تلك الطبائع متخلقا بأعلى صفات التخلق اللائقة بها. إذ ما قيمة العابد أو المفكر أو الفنان البليغ أو الرجل العملي إن لم يكن له من هدف سوى تحقيق ذاتيته من غير تخلق يجد فيه الناس من حوله المثل الأعلى للسلوك المنشود عندهم. فلقد كان ﷺ على خلق عظيم. جعله قدوة المقتدين للعباد والمفكرين والبلغاء والقادة والأزواج والأصدقاء.

وبهذا كان محمد ﷺ نموذجا عاليا بين ذوي المواهب والعبقريات ولكنه كان قبل كل ذلك وبعده (نبيا) ورسولا اصطفاه الله لتبليغ رسالة حملت إلى الإنسانية (الدين) الكامل الذي ارتضاه الله للإنسانية. ونجاح الرسول في رسالته راجع إلى صحة هذه الرسالة وإلى عبقرية القائم بها. أو قل إن نجاح الرسالة المحمدية إنما تحقق لكونها

كانت رسالة تطلعت إليها الدنيا ومهدت لها الحوادث والأطوار سبيل القبول. وقام بها رسول تهيأت له أسباب النجاح من ذاته وسلوكه ومن صدق رسالته وقوتها ومن حاجة البشرية إليها.

على أن الإقرار بهذه الحقيقة يجب أن يكون في حدود اعتبار النبوة المحمدية ظاهرة تؤكد ظاهرة النبوات بصفة عامة. هذه الظاهرة التي ينكرها الفكر العلماني والمادي والوضعي بناء على إنكاره للحقيقة الإلهية سلفا، ونظره إلى (الدين) باعتباره نظاما من الأنظمة الاعتقادية التي أنشأتها المجتمعات والفكر الإنساني في ظل شروط اجتماعية وعقلية متجاوزة، لم يعد للفكر الديني اليوم بالنظر إلى تجاوزها أي معنى. نقول إن الظاهرة النبوية كما تجلت في الرسالة المحمدية وبعثة محمد ﷺ إلى البشرية تعد اليوم المرجع الأساسي لمعرفة حقيقة هذه الظاهرة ودراستها دراسة علمية لأننا نملك من الوثائق والمعطيات والنصوص والدلائل ما يجعلنا نقف على الأقل على حقيقة النبوة في أبعادها التاريخية والاجتماعية والنفسية. حتى إن إثبات النبوات السابقة، وإثبات الرسالات السماوية السابقة إنما تثبته النبوة المحمدية بأقوى مما تثبته المعلومات التاريخية المضطربة للرسالات السابقة.

لماذا كانت النبوة المحمدية وحدها اليوم الشاهد الوحيد على إثبات ذاتها وإثبات النبوات السابقة ؟ لأن دليلها أو معجزتها ما تزال باقية إلى اليوم وهي القرآن. بينما جميع المعجزات التي رافقت ظهور الرسل السابقين قد انتهت بانتهاء اللحظة التي ظهرت فيا للتصديق بها في زمانها، ولسبب منطقي آخر. وهو السبب الذي بينه الفيلسوف ابن رشد حين قرر أن الحكم بصدق نبوة كل من تظهر على يديه المعجزة أمير غير ملزم ولا مقبول، لأن مثل هذا الحكم إما أن يكون شرعيا وإما أن يكون عقليا، وكلاهما مدفوع، فالحكم شرعا على صدق نبوة شرعا من باب تصحيح الشيء بنفسه، أو إثبات الدعوى بمضمونها. وأما الحكم عقلا على صدق المعجزة فغير ممكن، لأن العقل لا يصل إلى ذلك إلا عن طريق تكوين فكرة كلية عن هذا الاقتران بين النبوة والمعجزة، من خلال استقراء تاريخي يثبت أن الأنبياء وحدهم تظهر على أيديهم خوارق العادات. لكن البرهان الوحيد الذي يبقى ممكنا لإثبات النبوة هو إثبات وجود الوحي، وذلك لأن المراد بالمعجزة من حيث هي إنما هو إثبات الوحي، أي اتصال النبي بالغيب، كما لو أردنا تصديق الطبيب بأنه ماهر حقا، فإنه لا ينفعه أن يأتي ببرهان غير إبراء المريض، لأن الحجة يجب أن تكون من جنس ما تثبته من حقائق. وينطبق معنى المعجزة على أكمل الوجوه على معجزة سيدنا محمد ﷺ لأنه أثبت صدق نبوته ورسالته بمعجزة القرآن التي هي في حد ذاتها وحي ورسالة تخاطب الإنسانية حتى اليوم. وهذا معنى قولنا إن الرسالة المحمدية هي الظاهرة النبوية الأقوى من حيث كونها كلية وشاملة وقابلة للإثبات في كل زمان ومكان بفضل القرآن.

فالنبوة المحمدية لا يمكن أن تفسر كما يفسرها الماديون والعلمويون بأنها حركة تحريرية أو ثورة اجتماعية من الحركات التي أفرزها التاريخ. لأنها تفوق في طبيعتها ومضمونها ووسائلها وما رافقها كل السنن الاجتماعية والاحتمالات التاريخية، ويكفي أن ندلي هنا بدليل واحد يفوق كل دليل عداه. وهو أن النص القرآني الذي نحفظه حتى اليوم لا يتميز بكونه معجزة من حيث الأسلوب والمضمون فقط، وإنما يتميز بكونه معجزة فوق طاقة البشر بما تضمن ساعة نزوله من حكم على حوادث المستقبل، أو على مجرى الحوادث التاريخية نفسها بشكل لا طاقة للإنسان على التنبؤ به، ويمكن ضرب الأمثلة على ذلك بما يلي :

- الحكم على مستقبل القرآن نفسه بأنه سيحفظ أبد الدهر. وذلك في سورة مكية كانت كل الظروف المحيطة بالدعوة الإسلامية يومها تتنافى مع هذا التنبؤ، وتشكك في إمكان نجاح الدعوة المحمدية، فضلا عن استمرار القرآن كتابا للإنسانية تدين برسالته الملايين من البشر، قال تعالى : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ وسار التاريخ برغم كل

الحروب وألوان التآمر الرهيب في التشكيك فيه وصرف المسلمين عنه.

الحكم الفذ على حفظ شخصية الرسول ﷺ وإعلاء ذكرها على مدى التاريخ وسط ظروف حالكة من الجهاد المستميت في سبيل الدعوة الإسلامية أي في وقت لم يكن الرسول ﷺ يطمع أن يسمع دعوته من هو خارج مكة، بحيث لقي هو ولقي معه المسلمون الأولون من ألوان الأذى ما جعلهم يفرون أو يهاجرون بعقيدتهم إلى الحبشة، ومحاصر الرسول وأسرته في الشعب خارج مكة ويقاطعون مقاطعة شرسة حتى أشرفوا على الهلاك في هذه الظروف يخاطبه الحق تعالى : ﴿**ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك**﴾. ويخاطبه : ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾.

الحكم الفذ على مصير الصراع الذي كان دائرا زمن البعثة بين الإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية البزنطية المسيحية. وذلك حين قال تعالى : ﴿**ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله**﴾. من كان يجازف أو يستطيع أن يجازف بالإخبار عن واقع ما يزال في حكم الغيب ولا سيما حين يكون هذا الإخبار صادرا عن داعية هو أحرص الناس على ثقة أتباعه والثقة في أقواله وتصديقها بالنسبة لأعدائه وحلفائه على السواء.

إن ذلك لا يصدر إلا بوحي، فهذا الوحي هو الذي كان ينظر إلى الغيب وكأنه ينظر إلى الحاضر، ويأتي التاريخ مصدقا لما يتنبأ به على نحو ما جرت الوقائع في كل الآيات التي مرت بنا وفي غيرها من الآيات البينات.

هذه من النظرات في الرسالة المحمدية وفي الظاهرة النبوية، فود أن ننتهي منها إلى إثبات النتيجة التالية. وهي أن قراءة السيرة النبوية بإمعان وتدبر، وقراءة القرآن باعتباره مصدرا من مصادر هذه السيرة. ووضع ظاهرة النبوة المحمدية في موضعها الصحيح من الظواهر النبوية. والاستدلال بالقرآن على ما تنطوي عليه رسالة الإسلام من حقائق كونية، ومنهج إلهي لإصلاح البشرية. هذه الحقائق كلها هي التي يجب أن نتذكرها ونتعمقها وندرسها الدراسة الوافية لاستخلاص العبرة. وتعمق العقيدة، وتصحيح النظر إلى الإسلام في زمن طغى على فكر أبنائه التقويم العلماني للدين، والرؤية المادية لظواهر الرسالات السماوية. واستغل فيه القائمون بالدعوات الإلحادية جهل أبنائنا بتلك الحقائق التي تحدثنا عنها. أو تحدثنا عن بعضها.

تطوان : محمد الكتاني

أساليب الدّعوة الاسلاميّة في العصر الحديث

للأستاذ الحسن السايح

تستمد أساليب الدعوة في كل زمان ومكان جوهرها من القرآن الكريم. وبعد مرور أربع عشرة قرنا على انبثاق نور الإسلام يجب أن لا تحجب عنا الحقائق الساطعة في أصول الدعوة الإسلامية، فنظرة عجلى على التاريخ تظهر بجلاء مدى سرعة انتشار الإسلام في العالم؛ إذ ليس من الممكن أن ينتشر الإسلام بهذه السرعة إلا إذا كانت الدعوة إليه صادقة في محتواها ووسائلها وأهدافها.

وإذا نحن قارنا بين عصرنا والعصور القديمة وما كان ينقصها من وسائل الدعاية والإعلام والنشر، مع لما يتوفر عليه عصرنا من وسائل الإعلام والنشر فإنه ليبدو لنا مدى تقصيرنا في الدعوة إلى دين الله الذي هو العدل والصدق، واليقين والحق، والإعلام المعاصر ظل قرونا وهو يبحث عن وسائل تطويره. حتى إذا توفرت له تقنيات التبليغ الإعلامي لم يجد ما يبلغه غير الضلال والانحراف والظلم والتسلط، ولذا فمن واجب المسلمين أن يجعلوا من التطورات الإعلامية وسيلة لنشر رسالة الإسلام لا لنشر التسلط والبغي.

لقد واجه الإسلام بعد أن تألق نجمه في جزيرة العرب أمما منغلقة على نفسها، لها لغتها ودينها وعادتها واقتصاديتها، وفي نفس الوقت وجدها أمما مشلولة الفكر، هوجاء القوانين والعادات، يجهل بعضها بعضا ويعادي ما سواها من الأمم، فجاء الإسلام ليكون أهدى الأمم، يحمل إليها دعوى الخير والسلام والعلم والازدهار، يحدد العلاقات، ويقيم جسورا بين الشعوب على أساس التعاون والتآزر.

جاء الإسلام دعوة إلى التحرر والحرية، والتفاهم بين الأجناس والأعراق، والإعلان عن حقوق الإنسان وتطبيقها، وإشاعة المعرفة والمحبة، دون إكراه أو عنف أو تحدي، جاء بدعوة جديدة بين الشعوب لا تؤمن إلا بالقوة والتعدي، وبين ديانات تعتمد على التعصب والانغلاق وأنظمة كهنوتية. ووجد الإسلام نفسه أمام مذاهب سرية تخفي الحقائق، وتحجب المعرفة وتضلل الشعوب وتستغل الدهماء، وأمام رهبان وكهنة وأحبار يهينون الشعوب المستضعفة ليسوسها الطغاة والظلمة، فلا يحققون عدلا، وإنما يسوقون الأمم نحو الحروب المدمرة لتخدم مصالحهم، ولبناء قصور الطغاة فجاء الإسلام ليحرر الإنسان من هؤلاء الطغاة ومسخريهم، وجاء القرآن ...... لكل شيء، جاء بالمعرفة المشاعة المحفوظة بين دفتي المصحف ليخلص البشرية جمعاء مما تعانيه من استغلال وظلم وضلال.

وكانت الدعوة إلى الدين الإسلامي تعني إبلاغ مفاهيم الإسلام ومبادئه وقيمه، فهي حركة تتجدد باستمرار، وليست موجهة إلى خارج البلاد الإسلامية، بل هي دعوة للمسلمين داخل بلادهم وخارج بلاد الإسلام، دعوة لكل مسلم ليجدد

معاني الإسلام في عقله ووجدانه، ودعوة لغير المسلمين ليفهموا الإسلام ويؤمنوا به.

وصحوتنا الإسلامية تعمل لتحافظ على تضامن الإسلام ومبادئه وقيمه، لأنها لا يمكن أن تؤدي رسالتها بغير الإسلام فليس هناك أبدع منه لأنه من فيض الخالق على خلقه والصحوة إطار للتعبير عن حيوية الإسلام في عصرنا، ولذا فهي دعوة تستهدف التمكين للإسلام والنهوض به، وهي اجتهاد للبحث عن صيغ فكرية وعملية كفيلة بإعطاء الإسلام في عصرنا كل مقوماته.

والصحوة الإسلامية تهدف إلى التعريف بالإسلام وإحياء حيويته والالتزام به على المستوى الخلقي، والتشريعي والثقافي، فما أحوج الإسلام اليوم إلى هذه الروح وما أحوج المسلمين إلى إعادة قراءة الإسلام قراءة أكثر عمقا وتحليلا. ليكونوا في مستوى هديه ومستوى قضايا عصرهم.

لقد فتّ في وهم كثير من المثقفين أن الإسلام كالمسيحية، أي أنه ضمير فردي، أما الإسلام فهو عقيدة ونظام ومنهج اجتماعي، فالمجتمع ليس مجموعة أفراد ملتحمين بعلاقات مستمرة بل إنه تنظيم اجتماعي وترابط بين الأفراد يحتاج دوما إلى التسامي، وذلك ما يضمنه دينهم الإسلامي الحنيف الذي ليس مجرد عامل ارتباط، بل هو سبب ترابط يتسامى مع الأجيال. ولقد افتقد المسلمون الإحساس بعزتهم لما أصابهم من تمزق واستعمار، فتخلفوا روحيا وماديا، وفقدوا مصداقيتهم، ولم يعرفوا بعد قوة الدين الذي أصبحوا يعتقدونه بالوراثة، وأصبح الدعاة يتكلمون عن الإسلام بلغة فضفاضة غير مبينة ولا محددة، يتكلمون وهم مندفعون بين التطرف والمبالغة أو بين التفريط والإهمال، لا يواجهون حقيقة خروج المجتمع الإسلامي من حقيقة الدين إلى شكلية الإيمان، والتكالب على المادة، والمراهنة على حب الذات والأنانية الفردية.

ولهذا فمهمة الدعوة الإسلامية اليوم هي الرجوع إلى أصول الدعوة الإسلامية الأولى التي رسمها الرسول الأعظم وأصحابه، ونجحت في تعميق الإسلام داخل الإنسان نفسه، ونشره في العالم القديم آنذاك.

لقد كانت للدعوة الإسلامية في عهد الرسول وأصحابه أصول ثابتة، ونجمل هذه الأصول فيما يلي :

1) دعوة الإسلام إلزامية، وأركانه وأحكامه مبنية على الإشهار لتحقيق التضامن الإسلامي، فالشهادة يجب الإعلان بها والصلاة يعلن عنها بالآذان، والحج مؤذن في الناس به، والصيام بإعلان رؤية الهلال والزواج والطلاق بالإشهار، والبيع بالكلمة العاقدة بين المتعاقدين وهكذا.. فهو دين الوضوح والإعلان يقطع الطريق أمام التدليس والمراوغة والكذب والتحايل.

2) الإعلام الإسلامي ليس أسرارا ولا طقوسا ولا شكلا كهنوتيا وإنما هو استمرارية التعريف بالمعرفة وتذكير بالمألوف المشهور في عقائد واضحة مفهومة ومحفوظة.

3) التشريع الإسلامي معرفة محفوظة لا عذر في جهلها، والقرآن أول كتاب سماوي يضعه الله بيد الأمة جمعاء لتقرأه ليس فيه أسرار ولا في حاجة إلى تأويلات فلسفية، وقواميس اصطلاحية وإبداء فصول وإخفاء أخرى، فلا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، والعلماء هداة وليسوا طبقة خاصة تستأثر بالمعرفة. ومن حق كل إنسان أن يقول للعالم أنه أخطأ إذا أساء الفهم والتفسير أو أساء السلوك والالتزام.

4) الدعوة الإسلامية للشعوب كافة فهي لا يصدر جزء منها ويحتفظ بجزء آخر، والحرية والمساواة حق للجميع، وحقوق الإنسان مطلب طبيعي يتمتع به كل إنسان، وتلتزم الدولة بحمايته، وكم من عقائد ومذاهب في عصرنا صدّرت الفتن إلى خارج أرضها، وكم من إيديولوجيات أصدرت الاضطرابات والتضليل في مقابل العملات الصعبة.

5) الدعوة الإسلامية دعوة إلى عقيدة، فهي لا تلزم أي أمة بتعلم اللغة العربية، فاللغة قضية قومية، ولكن تعليم العربية كلغة حضارة بجانب اللغات القومية مما يعزز وحدة المسلمين وكل أمة تحتفظ بتقاليدها وأعرافها، ولهذا فالشريعة الإسلامية اعتبرت العرف، والعادة محكمة (كما يقول علماء الأصول).

6) الدعوة الإسلامية لا تعني الإكراه والضغط والتشكيك في الآخرين وتضليلهم والتشويس عليهم بالدعايات والجاسوسية والتشهير بالأخطاء.

7) الدعوة الإسلامية تفتح للمسلم الأمن والاطمئنان، فبالإسلام يجب ما قبله، والتوبة إقرار بالحق، وعدم الإصرار على المخالفة للنهج الإسلامي.

8) الدعوة الإسلامية موعظة من الماضي، وتدبير في الحاضر، والمسلم يقرأ التاريخ ليرى ما أصاب الأمم والشعوب وما خلق بها. فالإنسان لن يخرج عن السنن التي تحكم البشر. ومن الصعب أن يتهم الصهاينة العرب بعدم قراءة كتبهم التي تستطين خططهم، ولا يقرؤون هم التاريخ البشري وما تلاقيه الدول المشيدة على الظلم، وفي تاريخهم أفلا ينظرون.

9) الدعوة الإسلامية لا تسعى إلى السيطرة على وسائل الإعلام لتخضعها للتوجيه الإعلامي فالقرآن الكريم يقول للرسول الأمين : ﴿**لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر**﴾.

10) الدعوة الإسلامية شمولية المعرفة الإسلامية، ففيها كل ما يمكن أن يواجه الإنسان، والقرآن قاعدة سليمة ومنطلق صلب للسلام والتعاون (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون).

11) الدعوة الإسلامية تخاطب البشر أجمعهم غير مفرقة بين ألوانهم وأعرافهم وبيئتهم ووضعهم الاجتماعي فليس لها عالم ثالث، وعالم مصنع، ولا إذاعات موجهة، فالقرآن ﴿**كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور**﴾ ﴿**إن هو إلا ذكر للعالمين**﴾.

هذه هي أصول الدعوة الإسلامية وهذه هي المجالات التي حددها الإسلام والأسلوب الذي نهجه يدعو إليه ﴿**بالتي هي أحسن**﴾.

وهذه الأصول توضح أسباب ما في المجتمعات في انحرافات وتيارات تقوده للانحدار. فتخطط للمستقبل وتنتقد السلوك والاقتصاد، وتعطي النماذج من سيرة الرسول وأخلاقه.

وهذه الأصول واضحة إيجابية لنشر الدعوة الإسلامية، غير أننا نقف في كل عصر أمام سلبيات خاصة، كما نقف أمام تقنيات جديدة للدعوة، فما هي سلبيات هذا العصر وما هي التقنيات الجديدة.

أول السلبيات، أثر مخلفات الاستعمار في البلاد الإسلامية التي خضعت لنفوذه وتأثرت كل بلاد إسلامية بثقافة مستعمريها وبذلك فقد العالم الإسلامي توازنه، وأصبح المسلمون مختلفين ثقافة وتفكيرا ولغة.

1) ضعف التعريف بالإسلام في «المنظمات الكبرى» التي تعمل للنيل من الإسلام معتمدة توجيهات الاستشراق والصهيونية.

2) ترك المذاهب المعادية للإسلام المحسوبة عليه، حرية النشاط في البلاد الإسلامية، كالبهائية والإسماعيلية والأحمدية.. الخ.

3) تغاضي المسلمين عن الحروب المدمرة للصف الإسلامي، مثل الحرب بين العراق وإيران، وليبيا وتشاد، والأفغان.

4) الصراع بين المسلمين والمتمذهبين بالعلمانية الذين أصبحوا إسفينا في جسم الأمة الإسلامية.

5) الدعاية المنظمة ضد الإسلام في المدارس، والمعاهد التربوية الإسلامية، وفي الصحافة مما يعتبر طابورا خامسا في البلاد الإسلامية.

6) وأخيرا فالدعوة الإسلامية تواجه حواجز متعددة، جعلت في طريق الإسلام، لتحول بينه وبين الانتشار؛ حواجز منها ما هو خارجي تولى كبره المبشرون والمستشرقون والماركسيون.. وحواجز قومية داخلية تولاها من تربى في أحضان الفكر الغربي وتغذى بلبان معادية للإسلام، وحواجز تاريخية موروثة عن العهد الاستعماري على يد

المستعمرين والمبشرين الذين اختلفوا على البلاد الإسلامية منذ الحرب الصليبية إلى الحروب الصهيونية، وما زالت هذه الحواجز تختفي بسرعة عندما يواجه بالدعوة الإسلامية الحق كما بلورها القرآن والسنة؛ وكما التزم بها المخلصون من علماء الأمة الإسلامية.

إن الإسلام يعاني في عصرنا مشاكل شتى والعلماء يتحملون في هذه المرحلة مسؤوليات عظمى لمواجهة هذه المشاكل.

وإذا كان الإسلام نزل على الرسول عليه السلام بلسان عربي مبين، ففهم العرب حقيقة هذا الدين الأغر في وضوح وبيان، فإن المسلمين اليوم في حاجة إلى فهم هذا الدين كما فهمه الذين تلقوه من الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك لأن المتربصين بالإسلام حاولوا أن يعبثوا كثيرا من حقائقه، ويلبسوا مفاهيمه حتى يقدموه في صورة غير صورته الحق. لذلك أصبح الاعتاد على الدعوة الإسلامية عملا أساسيا في تصحيح المفاهيم الإسلامية سواء بالنسبة لمعتنقي الدين الإسلامي أو بالنسبة لمن تدعوهم إلى معرفته.

ولقد خط القرآن للمسلمين الأهداف والأساليب العملية للدعوة الإسلامية في قوله تعالى : ﴿**أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾. والحكمة لن تكون إلا بالحكم والتحكم والإحكام، فالحكمة تعني العقل واللباقة بحيث تكون حكما حازما نافذا، وحكما متقنا، والحكمة في حكم بإحكام تجمع بين الجوهر والعرض بين جوهر التبليغ وأسلوبه وهدفه، وليست مجرد دعوة كسولة؛ أو دعوة متطرفة مشتط فيها، أو دون منهجية واضحة.

ولن تكون حكمة حتى تكون حكمة تصوغ الموضوع ﴿**وهو الموعظة الحسنة**﴾، فلن تكون الموعظة بالجبر بل الإقناع والجدل، ولن يكون الجدل بالحيلة والخداع ولكن بالتي هي أحسن، ولم يكن هو أحسن محصورا في كلمة أو رأي بل حذف الموصف، وذكرت الصفة لتعني توسع دائرة الموضوع والأسلوب والمنهج.

وللدعوة دعاة لابد أن يكونوا أهلا لتحمل هذه المسؤولية؛ والداعي الحق من يفهم الإسلام حق فهمه، يفهم القرآن والحديث، وعلومها، ويفهم اللغة العربية وآدابها، ويفهم عصره وقضاياه، ليتحدثا للناس بقضاياهم، ويجدون من التابعين القناعة لمواجهة التطورات المعاصرة.

ومع الأسف فدعاة الإسلام اليوم تجدهم من الذين يتقوعون داخل أنفسهم، لا يعرفون الإسلام، ولا المدعوين إلى الإسلام، ولا يجدون قدرة على تقديم الإسلام، أو تجدهم يفهمون، ولكنهم يتطرفون تطرفا يفقد الإسلام سهولته وسيادته.

كما تجد من الدعاة من يعمق الخلاف بن المذاهب، ويقيم حربا عوانا بينها رغم أن الخلاف بين المذاهب ظاهرة صحية، والصراع الفكري هو الطريق الأجدى للبحث عن الأصلح، لكن بشرط أن يتحور في منهج موحد في المنهج الإسلامي : ﴿**فهذه أمتكم أمة واحدة**﴾.

إن الدعوة الإسلامية يجب أن تجعل الدعاة يهرعون إلى خدمة الإنسان في مختلف مناحي تفكيره، وتطوير نفسه ليكون إنسانا عاملا في مجتمعه، معطيا ومفيدا بإسهاماته في مجتمع الآخرين ناشرا الثقافة الإسلامية التي هي عملية حضارية لا تعدم أجزاؤها في حدود زمانية ومكانية، وهذا هو الانفتاح، أي في الزمان والمكان مما يلتزم الأخذ والعطاء والتنوع. إن الثقافة الإسلامية متحركة دائما، وليست هي الفلسفة فقط، ولا الحاضر فقط، بل العطاءات المتنوعة. والثقافة الإسلامية تشكل المشاعر والأحاسيس والتطلعات والفهومات للمدركات التي ينتجها الإنسان ولذلك لم تضق هذه الثقافة الرحبة بثقافات الصين والهند، وبثقافات اليونان والرومان، وثقافات الفراعنة وغيرهم، والثقافة الإسلامية ليست هي الرصيد الذي يميز رقعة جغرافية العالم الإسلامي ولكنها (منهج وغط) متميز بذاته مستقل في كل مكان، وصالح لكل بيئة، والثقافة الإسلامية تعني استهداف تحقيق المثل العليا التي يطمح إلى تحقيقها عبر الجهات التي تعتنق رسالته.

وكثير من الناس يعتبرون متأثرين بالثقافة الإسلامية ولو لم يكونوا مسلمين دينيا فالذين عاشوا في المجتمع الإسلامي من غير المسلمين كانوا متأثرين بالثقافة الإسلامية، لأن الثقافة الإسلامية تعنى ما جاء به الإسلام،يوما أخذه المسلمون من

الفرس واليونان والهنود وغيرهم من الشعوب التي اعتنقت الإسلام، وصاغته صياغة جديدة طابعها الأساسي هو القيم والمبادئ الإسلامية. وأصول العلم لا تختلف ولكن مناهج التفكير تختلف، إذ أن لكل مجتمع خصوصياته وتنوعاته ومميزاته.

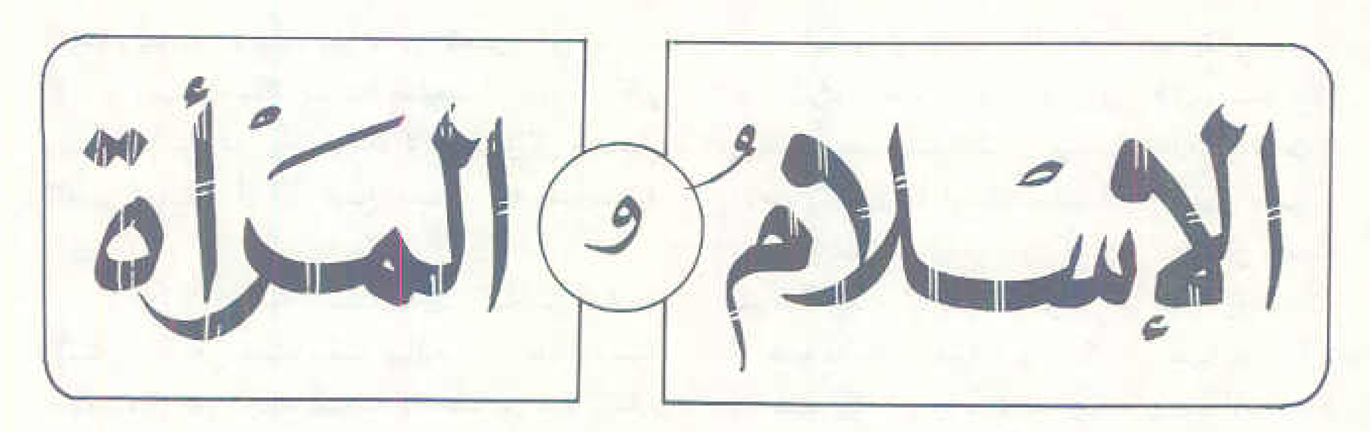
وأخيرا إن الدعوة الإسلامية هي تعبير عن الصحوة الإسلامية التي هي حقيقة واقعية وعالمية، تعتمد على الوسطية الإسلامية التي هي الجامع المشترك، والقاعدة العريضة للإسلام والمسلمين، هي صحوة وعي عقلي ووجداني، ودعوة جادة إلى طريق الله وهدى رسوله.

والصحوة ليست دعوة لها بواعث اقتصادية أو سياسية أو سيكولوجية، وإنما هي رجوع إلى الحق وتمسك بالقيم والمبادئ، ومهما اختلف المسلمون بينهم فاختلافاتهم ليست في جوهر الإسلام وإنما في ملائمته لبيئاتهم ووسطهم، وكفى أن يأتي الإسلام في أواخر القرن العشرين ليعلن عن وحدة الثقافات وانعدام الطبقات ويعلن من جديد حقوق الإسلام، كما أعلنها منذ خمسة عشرة قرنا. وليكن للوسطية والمرونة في الاقتصاد والاجتماع ووحدة الشعوب، وأن يجد المسلمون في عقيدته ملاذا لتضامنهم ووحدتهم وفصلا لمقاومة الانحراف والظلم والاعتداء.

الرباط : الحسن السائح



الأستاذ العلامة السيد محمد الأزرق يلقي درساً نموذجياً دشن به الدروس الجديدة.



للدكتور يوسف الكتاني

لا خلاف أن الباحث والمنقب في خزائن الأرض والراحل في أنحائها وأطرافها، لا يجد في البشر عل اختلاف وجوه العظمة والإكبار، من تتبع الناس منه وقائع الميلاد وحوادث الوفاء وكل الحركات والسكنات، وأحوال الإقامة والتنقلات، وأطوار الغضب والرضاء ودقائق السلم والحرب، والعطاء والمنع، والتحريم والتحليل، غير فرد واحد في العالم الإنساني هو خاتم الأنبياء والمرسلين ورسول رب العالمين سيدنا محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، بحيث لو قدر لدولة أو مؤسسة أن تجتهد في جمع كل ما كتب عنه لتوفر لها من ذلك خزانة عظمى لا تقصر عن أعظم خزائن الدنيا.[1] وهو مصداق ما أكده الحافظ شمس الدين السخاوي المتوفى سنة 923 هـ : إنه لو حصل التصدي لجمع إسم من كتب في السيرة النبوية لكان ذلك في عشرين مجلدا فأكثر، علما بأنه عاش في القرن التاسع الهجري فأين هو مما كتب بعده خلال القرون الخمسة الأخيرة.[2] وهذا يدل أشد الدلالة على اهتمام المسلمين بشؤون نبيهم اهتماما لم يشاركهم فيه رجال دين اخر قط سواء كانت ديانات سماوية كاليهودية والنصرانية أو غيرها كالبوذية والبرهمية وسواهما، وهو شاهد على كمال سيادة الرسول ﷺ وعظيم مكانته، وتفرده بين الأنبياء والمرسلين، بل تميزه عن الخلق أجمعين بما خصه الله به من الكمالات، وما ميزه به من الصفات، ما جعله منهلا عذبا عكف على وروده العلماء وأسوة وقدوة لجميع العالمين، كما أكد ذلك القرآن الكريم، هو ما اهتدى إليه أحد العلماء المعاصرين الذي جعل الرسول الكريم على رأس المائة المختارة من الخالدين.[3]

لقد كان ظهور الإسلام وبعثة خير الإنام تحولا جذريا وانقلابا شاملا، غير المفاهيم وأقام الموازين وفتح أمام الإنسانية طريقها الصحيح، وأبواب النهوض والتخلص من الأنانية والطغيان، والسمو إلى العلا والكمال مما يؤكد أن التمدن الإسلامي مبني على الشريعة ومرتبط بها، وأن من عرف نهضة الإسلام وتعاليم النبي ﷺ، وأمعن النظر في تلك النهضة تحقق أن ليس هناك من مظاهر التمدن ما لم يكن الإسلام في وقت ظهوره أصلا له وينبوعا، ذلك أن من تأمل ما اشتمل عليه القرآن الكريم من أدوات الاجتماع، ومن طرق التعاوف والتمازج، وما أودع الله في غضون كتابه من أحكام الطبيعة وأسرار الوجود وما ضبط من الحقوق ونظامات الحياة، وما جاءت به السنة النبوية من تهذيب النفس والأخلاق والإرشاد للأخذ بالأحسن والأفضل، وما أحكمته من سنن

1) التأليف المولدية : محاضرة للشيخ عبد الحي الكتاني.
2) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للحافظ السخاوي.
3) أنظر كتاب الدكتور مايكل هارت «المائة المختارة من الخالدين» ترجمة أنيس منصور.

الارتقاء والإخاء البشري، والتمتع بضروب الحرية وغيرها من التعاليم السامية والمعالم العالية.[4] وأن ما وصلت إليه النهضة الإسلامية من التغيير والتأطير في الفترة المكية القصيرة، وما بلغته في الفترة المدنية المحدودة من الترقي والتطور من حيث العلم والكتابة، وقوة الإيمان والجامعة، في بيئة كان أهلها يمشون حفاة، وإذا أكلوا مسحوا أيديهم في أفواههم وما قام به الصحابة الطاهرون من أعمال، وما فتحوا من ممالك مما لم تبلغه أمة من الأمم لا دولة من الدول في قرون وأحقاب وذلك كله بفضل الشعلة النورانية النبوية التي أضاءت دفعة واحدة من أول وهلة على العالم، فأحدثت نهضة شاملة في جميع أنحاء الدنيا، بجهاد وعمل قواد الإسلام المحنكين ودعاته وحكمائه وعلمائه من أصحاب الرسول الذين كانوا بحارا في العلوم على اختلاف أنواعها، حتى يروى أن عليا جلس عند ابن عباس يتدارس حرف الباء من بسم الله من العشاء إلى الفجر.[5]

وهكذا سن رسول الله ﷺ من القوانين والأنظمة ما يحفظ كيان الأمة، ويجمع شملها، ويلم شعثها، ويجعلها وحدة متكاملة، تؤمن بالله، وترعى حدوده وتتعاون مع بعضها في السراء والضراء، وبما يأمن من معه كل ذي حق على حقه ويدفع التعدي على أفرادها.

وسن للأسرة نظاما كاملا نموذجيا تقوم على أساسه يجعل منها الوحدة الأساسية في الأمة، والأساس الصالح لها، وأقام الزواج على أكمل طريقة وأبدع نظام، وبين حقوق الزوجين على بعضها مجتمعين ومتفرقين مصداقا لقوله تعالى : **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**.[6]

وأحاط الأولاد بكامل الرعاية وبالغ العناية على نحو لم يسبق إليه بما يحقق التوازن بين أفراد الأسرة أباء وأمهات وأولاد، كما أكد ذلك القرآن الكريم : **﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها﴾** الآية[7] وكما أوضح ذلك الرسول ﷺ بقوله : «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[8] وسن أحكام المعاملات من بيع وشراء وإجارة وشركة وقسم التركات على طريقة الحكمة.

وسن العقوبات والقصاصات والتعازير بما يحفظ الأنفس والأموال والأعراض.

وسن جميع الآداب من كل باب كآداب الأكل والشرب وآداب النوم، وآداب الكلام، وآداب المحاسبة والمحادثة والزيادة وآداب الحضر السفر وآداب الزوجية وآداب الأصحاب وآداب جميع المسلمين بعضهم مع بعض ومع أهل الذمة، بما يكفل نظام المجتمع وصلاح أحواله واستقامة أمره، وطهارة النفوس، وعمارة الديار، فعل ذلك كله ﷺ مع أنه أمي نشأ في أمة أمية، ولم يفارق وطنه إلا أشهرا قلائل، ولم يجتمع مع أحد م أهل المعارف، مما يؤكد أنه مرسل من عند الله إلى هداية الخلق وإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدارين.[9]

لقد كانت حياة الرسول وبعثته الشريفة بداية لتاريخ جديد للبشرية، وحياة كريمة لم تعرفها من قبل، كانت بحق بداية مرحلة الإنسان الذي بلغ أرفع مستويات الفكر العقائدي، واستطاع التجاوب مع دعوة الوحدانية لله تعالى حتى تغيرت مفاهيم ومعالم أمة عريقة خلال أقل من ربع قرن من الزمان وانتقلت الإنسانية كلها بمولد ﷺ ورسالته من ضياع العصور والماديات، ومن متاهات الأزمان والآلهة إلى حقيقة الوجود واستقامة الحياة مما أنشأ خير أمة أخرجت للناس، وهي أمة الإسلام التي انطلقت تصنع للدنيا كلها حضارة الرقي الفكري والسمو الروحي، وتنشئ أجيال الإيمان ليحققوا للبشرية أعظم تقدم عرفته في تاريخها مصداقا لقوله

4) مقدمة التراتيب الإدارية للشيخ عبد الحي الكتاني.
5) كتاب الفروق للقرافي 167/4.
6) سورة الروم ـ الآية : 21.
7) سورة البقرة ـ الآية : 233.
8) رواه الترمذي عن عائشة مرفوعا.
9) أنظر التراتيب الإدارية 7/1 وما بعدها.

تعالى : ﴿**ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون**﴾[10] إن أعظم تغيير أحدثته الرسالة المحمدية أنها فرقت بين عهدين وفصلت بين عصرين : عصر الجاهلية وعصر الإسلام، وكان العصر الأول قائما على تأكيد وجود الذات الحاضرة، إذ أن المستقبل كان غائبا بالنسبة للإنسان هذا الغياب الذي كان مرتبطا بعدم وجود نظام متكامل لانعدام الدين الحق الذي يقدم له مفهوما واضحا لعلاقته بالزمان والمكان ولغاية الحياة. ثم جاء الإسلام ليغير المفهوم السائد في العصر الجاهلي من رؤية غامضة إلى رؤية واضحة، إذ الزمان ذو البعد الواحد أصبح ذا بعدين : زمن حسي وزمن كوني، أي تلك اللحظة التي يدعى فيها الإنسان ليحاسب على ما قدم في الدنيا، إذ أن حياته ليست حقا خالصا له يتصرف فيه كيف يشاء، لأنه لم يخلق عبثا ولا سدى[11] مصداقا لقوله تعالى : ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**﴾[12].

وهذا أول تغيير أدخله الإسلام على مفهوم الإنسان لوجوده في الحياة مما أزال عنه الإحساس بالقلق، حيث إنه لم يوجد فيها إلا ليموت، ولذلك أكد الإسلام مسؤولية الإنسان في الحياة، وأنه خُلق من أجل السعي وراء حياة أفضل ولا يتحقق ذلك إلا بأعمال عقله في اختيار العمل الصالح ونبذ العمل الطالح، وهذا ما يجعله مسؤولا عن نتائج عمله مما يدفعه إلى ترجيح كفة الخير على الشر، لارتباط أول الحياة بآخرها من جراء ارتباط فعل الإنسان بمعيار ثابت من القيمة والإيمان بالله، وهذا هو ما جعل مستقبل الإنسانية كله يشهد تغييرا جذريا في معايير الحياة بأسرها من جراء ظهور الإسلام وقيمه وتعاليمه وأحكامه، ونظامه الذي يقوم على التوحيد والحق والعدل والصالح العام[13] وعلى جعل الإنسان سيد هذا الكون وأعظم مخلوقاته فيه ومناط تطور الحياة باعتباره خليفة الله في الأرض وحامل أمانة الحياة ومسؤوليتها مصداقا لقوله تعالى : ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان**﴾ الآية[14].

وهكذا شمل تأثير الإسلام جوانب الحياة كلها في مجالات العقيدة والسلوك، والأخلاق، وعلاقات الشعوب بعضها مع بعض، وفي مجالات العلوم والآداب.

إن أهم ما قام به الإسلام في هذا المجال هو تحليل الحضارة التي اختمرت تحليلا كيماويا، وفرز العناصر التي دخلتها في عهود مختلفة وفترة تاريخية وإرجاعها إلى أصلها وفطرتها، مبرأة من كل شرك منزهة عن كل زيغ.

إننا نجد أولى خصائص هذا التأثير، أن الإسلام، يختلط بحياة الناس اختلاط الدم باللحم، فيفتح عقولهم وينورها بنور العلم، ويملأ قلوبهم بالإيمان، ويطهرها من حيث يشعرون أولا يشعرون، وذلك واضح من نظام حياتهم ومناهج تفكيرهم وعلمهم.

ويمكننا أن نذكر هنا بعض عناصر التأثير والتغيير فيما يلي :

أولا : عقيدة التوحيد النقية الواضحة، والتي بنى الإسلام عقائد المسلم وفروضه وواجباته عليها، وكانت أساس الإيمان وركيزة العقيدة، ومظهر اليقين وسر استمرار الدين ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾[15].

ثانيا : مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية، إذ الناس كلهم من أصل واحد ومصدر واحد ﴿**كلكم لآدم وآدم من تراب الناس سواسية كأسنان المشط**﴾[16].

ثالثا : كرامة الإنسان وسموه على سائر المخلوقات «حرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمة الكعبة»، ولذلك أكد الإسلام مساواة المرأة للرجل ورد الاعتبار إليها ومنحها حقوقها.

---

10) سورة المائدة ـ الآية : 56.

11) معالم إسلامية ص 10 و 11 للدكتور يوسف الكتاني.

12) سورة القيامة ـ الآية : 36.

13) السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي ـ نبيلة إبراهيم ـ مجلة عالم الفكر ـ المجلد 12 مارس 1982.

14) سورة الأحزاب ـ الآية : 72.

15) سورة آل عمران ـ الآية : 18.

16) من خطبة حجة الوداع.

رابعا : قيام الحياة على الجمع بين الدين والدنيا، بين
ـدة والروح. في العبادة، والسلوك، والأخلاق وسائر الأقوال
ـأفعال، وهو ما أكده الرسول ﷺ للدين أرادوا التفرغ
ـنيا دون الأخرى حيث رد عليهم مؤكدا **﴿أما والله إني
ـخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي
ـرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس
ـي﴾**[17].

خامسا : توحيد هدف المؤمنين بالإسلام في حياتهم
ـماشهم ومعادهم، نحو جهة واحدة ومقصد واحد، وهو الله
ـلى : **﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب
ـالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول
ـسلمين﴾**[18].

سادسا : ربط الدين بالعلم، وقيام أحدهما على الآخر
ـبراز قيمة العقل والعلم في الحياة والدين والعقيدة وسائر
ـون المسلم **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف
ـيل والنهار لآيات لأولى الألباب﴾** الآية[19].

سابعا : قيام حياة الإنسان على الرجاء في الله،
ـلاعتاد عليه وطلب عونه وإحسانه بعد العزم والحزم، ومن
ـا دعا الإسلام إلى نبذ التشاؤم واليأس وعدم إساءة الظن
ـله والناس **﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى
ـ الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله
ـك هو الفوز العظيم﴾**[20].

وإذا كانت مظاهر التغيير والتحول لم تقتصر على المجال
ـجتماعي وحده بفضل الإسلام وتشريعاته وأحكامه بل
ـت مظاهر الحياة الإنسانية كلها وفي سائر المجالات جميعا،
ـ يصعب حصره وتناوله في عجالة من الزمن أو صفحات
ـدودة، فإنني سأكتفي هنا بمثل واحد على التغيير : وهو
ـوقف الإسلام من المرأة، وتحريرها من قيودها وصيانة
ـرامتها، والاعتراف بإنسانيتها ورفعها إلى المكانة اللائقة بها في
ـمع، باعتبارها شقيقة الرجل وقرينته وشريكته في بناء
ـياة وقيام المجتمع.

ـ سنن النسائي 60/6.
ـ سورة الأنعام ـ الآية : 164.
ـ سورة آل عمران ـ الآية : 190.

وهكذا نتساءل أولا كيف كان حال المرأة قبل الإسلام عند العرب وعند سائر الأمم ؟ وما هو دورها في المجتمع آنذاك ؟ وما هو اعتبارها عندهم ؟

وما هو موقف الإسلام منها ؟ ماذا صنع لها ؟ وماذا صنع منها ؟ هل وضع أمامها السدود والقيود كما يقال ؟ أم فتح أمامها الآفاق وجعلها ركيزة المجتمع وأساسه ؟ وما هو دوره في تحريرها وتكريمها ؟

لقد ظلت المرأة طول التاريخ مظلومة مقهورة مستعبدة، حتى اعتبرت عند أقوام كما مهملا وروحا شريرة، ورجسا من عمل الشيطان، لا كيان لها ولا وجود إلا تابعة للرجل وظلا له، هضمت التشريعات البشرية التي ادعت الكمال حقها، وغبنتها حتى جعلتها لا قيمة ولا عصمة لها، يقامر الزوج على زوجته فيخسرها وإذا مات عنها وئدت أو أحرقت نفسها حزنا عليه وحرمها العرب من حق الملكية والأرث، ووضعها آخرون في الحزام الحديدي حتى لا تقع في الخطيئة[21].

ففي الهند كانت المرأة تحرق مع زوجها إذا مات وفي اليونان جعل أفلاطون في الجمهورية الفاضلة المرأة موزعة على الأمراء والقادة والسادة والجنود، وفي العهد القديم اعتبرت المرأة ملعونة لكونها كانت السبب في إخراج آدم من الجنة، وفي العهد الجديد اعتبرت المرأة شريرة إلا مريم أم المسيح عليه السلام، وفي أوروبا ظلت تباع إلى القرن التاسع عشر، كما كان الأمر في انجلترا حيث كان من حق الزوج أن يبيع زوجته بشلنات معدودة، وما زالت إلى اليوم في عهد الذرة والصواريخ وفي عصر التكنولوجيا، ما زالت ذمتها المالية غير مستقلة وناقصة. إذ لا بد من توقيع زوجها على العقد والمصادقة عليه قبل إتمامه.

لقد اعتبر الإسلام المرأة أيما اعتبار، وكرمها تكريما فاق كل تكريم، وحفظ لها حقوقها، وصان شخصيتها وأنزلها المنزلة اللائقة بدورها في المجتمع الإسلامي.

20) سورة يونس ـ الآيتان : 63 و 64.
21) أنظر مقال الكاتب «الإسلام والمرأة».

فقد كانت جاهلة فعلمها ورباها وأحسن تربيتها وكانت مستعبدة مقيدة مظلومة فحررها، وفتح المجالات كلها أمامها، وكانت خاملة مغبونة فرفعها وأعلى شأنها.

وفي ظل الإسلام أنصفت المرأة وتمكنت من حقوقها التي كانت محرومة منها، بعد ما ظلمتها الأمم كلها ووضعها في مكانتها، ومكنها من القيام بدورها، وقدرها وكرمها باعتبارها إنسانا وبنتا، وزوجا، وأما، وعضوا في الأسرة والمجتمع.

لقد رفع الإسلام المرأة بعد انحطاط، وأعزها بعد إذلال، وأحياها بعد موات وجعلها بجانب الرجل أختا وزوجا وأما وسيدة تمارس حياتها وتقوم بدورها مستشارة ومعلمة ومجاهدة وممرضة وعالمة، وانطلق صوت الرسول الكريم ليعلن للإنسانية كلها ولأول مرة في التاريخ ـ هذه المكانة السامية للمرأة في الدنيا والآخرة بالقرآن الكريم : ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾[22].

﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا**﴾[23].

وقوله تعالى : ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾[24].

وانطلق الرسول الكريم ليؤكد ذلك وليبينه وليطبقه بقوله وفعله ﴿**إنما النساء شقائق الرجال**﴾[25] أي أمثالهم وبقوله : ﴿**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرا من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله**﴾[26] ويجلس إلى النساء كما يجلس إلى الرجال يعلمهن ويربيهن ويغرس الإيمان في قلوبهن

22) سورة الحجرات : الآية : 13.
23) سورة النساء ـ الآية الأولى.
24) سورة الروم ـ الآية 21.

ويوجههن إلى الخير والحق والفضل ويجعل أول مستشارة له في الدنيا زوجته خديجة أم المومنين، فيعود إليها من غار حراء وقد نبئ وأرسل إلى العالمين كافة قائلا لها : وفؤاده يرجف : ﴿**لقد خشيت على نفسي، فآمنت به وصدقته مجيبة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل ـ العناء ـ وتكسب المعدوم، وتقري الضيف ـ تكرمه وتعين على نوائب الحق**﴾[27].

وينوه بشجاعتهن وجرأتهن في التعلم والتفقه في الدين والحياة حتى قالت عائشة : «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين» ويرعى تعليم النساء وتربيتهن، فيتخذ لهن المعلمات في القراءة والكتابة والحياكة والتطريز حتى تصبح السيدة عائشة من أعلم المسلمين بالرواية والحديث والشعر والفقه، كما أعلن ذلك عمر بن الخطاب وتعد في مقدمة كبار رواة المسلمين لحديث رسول الله ﷺ، وتصبح الشفاء محتسبة على السوق بجانب عمر، وتفدي سمية الإسلام بنفسها فتصبح أول شهيدة في الإسلام، ويسلم عمر بن الخطاب على يد أخته فاطمة وبسبب شجاعتها وقوة إيمانها وصلابة موقفها.

وهكذا وفي ظل الإسلام أنصفت المرأة وتمكنت من حقوقها التي كانت محرومة منها بعد ما ظلمتها الأمم كلها ووضعها في مكانها ومكنها من القيام بدورها، وكرمها تكريما لم تعرفه في دين قبله ولا في مذهب أو نظام بعده، كما يشهد بذلك تاريخ المسلمين وواقع المرأة في ظلال دين الله وبرعاية نبيه وصحابته والتابعين لهم بإحسان.

ومن هذا المنطلق ومراعاة للتوازن في الطبيعة والعمل فإن الإسلام قد أعطى المرأة الحقوق نفسها التي أعطاها للرجل من حيث القيمة الإنسانية والشخصية الاعتبارية وفي سائر التصرفات من ملكية ورأي وزواج وشهادة وعمل وفي الوقت نفسه كلفها بما كلف الرجل من عبادات وواجبات واعتبرها مسؤولة مثله عما تؤديه من أعمال وطاعات.

25) رواه أحمد والترمذي وأبو داود.
26) رواه ابن ماجه عن أبي أمامة.
27) فتح الباري 23/1.

وقد سوي الإسلام بين الرجل والمرأة في التكاليف والواجبا وفي الحقوق، وضمن لها كامل شخصيتها المدنية مستقلة عن زوجهات، وفي سائر التصرفات وبكل مقوماتها، ولم يفرق بين الجنسين في الحقوق والواجبات إلا من حيث تدعو إلى ذلك مراعاة طبيعة كل من الجنسين في الحياة، وما يصلح له، وكفالة الصالح العام، وصالح الأسرة، وصالح المرأة نفسها وبذلك، اعتبر الإسلام المرأة نصف المجتمع، وربة الأسرة وأم الأولاد، وعضوا أساسيا في المجتمع، ولم يعتبرها دمية جميلة أو لعبة للرجل، أو أداة من أدوات الزينة والتجميل والتسلية ولم يحرمها في الوقت نفسه من التزين والتجميل لزوجها مصداقا لقوله عليه السلام : «جهاد المرأة حسن تبعلها» أن تزينها وتجملها وطاعتها له بالمعروف.

لقد كرم الإسلام المرأة منذ أن أعلن أنها مكلفة كالرجل تثاب إن أحسنت، وتعاقب إن أساءت ولم يعتبرها جزءا من المجتمع أو بعضه، بل اعتبرها أحد شقيه بجانب الرجل فقال تعالى : ﴿**فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى**﴾ الآية[28] واكد ذلك الرسول الكريم بقوله : «إنما النساء شقائق الرجال»[29].

ورعاها بنتا فأنكر أشد الإنكار وأدها وقتلها خوف الإملاق، وأوجب تعليها وتأديبها ورعايتها والإنفاق عليها حتى تتزوج، وفرض على أبيها إلا يزوجها إلا برضاها وإذنها.

إن للمرأة في الإسلام الحق في اختيار زوجها الذي تعيش معه العمر كله، وتعطيه قلبها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تنكح الايم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن قالوا : يا رسول الله، وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت»[30] وإذا زوج رجل ابنته وهي كارهة فالزواج مردود وروى الجماعة إلا مسلما عن خنساء بنت خذام الأنصارية «أن أباها زوجها - وهي ثيت - فكرهت ذلك فأتت رسول الله، فرد نكاحها»[31] أي أبطله.

28) سور آل عمران - الآية : 195.

29) رواه أحمد في المسند والترمذي وأبو داود.

30) فتح الباري 191/9.

31) فتح الباري 194/9.

وروى أبو داود وابن ماجة، عن ابن عباس رضي الله عنها - «أن جارية بكرا أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباها زوجها، وهي كارهة، فخيرها النبي ﷺ»[32].

وفي صحيح البخاري من كتاب النكاح باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد ؟.

حدثنا محمد بن سلام، حدثنا ابن فضيل حدثنا هشام، عن أبيه قال : «كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة : أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل ؟ فلما نزلت (ترجى من تشاء منهن) قلت : يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»[33].

وفي صحيح البخاري أيضا في نفس الكتاب : باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح.

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا مرحوم قال : سمعت ثابتا البناني قال : « كنت عند أنس وعنده ابنه له قال أنس : جاءت إمرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها قالت : يا رسول الله ألك حاجة ؟ فقالت بنت أنس : ما أقل حياءها واسوأتاه قال : هي خير منك، رغبت في النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها»[34].

وفي صحيح البخاري أيضا من نفس الكتاب : عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير.

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب قال : أخبرني سالم بن عبد الله، أنه سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنها يحدث «أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفي بالمدينة - فقال عمر بن الخطاب : أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة فقال : سأنظر في أمري فلبثت ليالي ثم لقيني فقال : قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا. قال عمر : فلقيت أبا بكر الصديق فقلت : إن شئت زوجتك حفصة

32) راجع سنن أبي دواد وابن ماجة.

33) فتح الباري 164/9.

34) المصدر السابق 174/9.

بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إلى شيئا، وكنت أوجد عليه مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال : لعلك وجدت علي حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئا ؟ قال عمر : قلت : نعم قال أبو بكر : فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أني كنت علمت أن رسول الله عليه وسلم قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها»[35].

إن الإسلام أعطى المرأة البالغة العاقلة بكرا كانت أم ثيبا، كامل الحرية في رفض من لا ترضاه لها زوجا، ولاحق لأبيها أو وليها، أن يجبرها على من لا تريد، وحتى لا تقع المرأة في خطأ فادح كهذا في اختيارها لنفسها بسبب عاطفتها، فقد جمع الإسلام بين جعل الزواج لولي المرأة وحقها في الموافقة على من ترغب فيه، ورفض من لا توافق عليه، فمنع بذلك من استبداد الأولياء ببناتهم، وفي الوقت نفسه لهن الحق في رد من لا يرونه كفئا لهن.

وما دام للمرأة الحق في الموافقة أو الرفض فمن يتقدم للزواج منها، فلها الحق في رؤيته، والنظر إليه كما له الحق في ذلك فقد روى البخاري[36] وابن ماجة في (باب النكاح) أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ يخبره أنه خطب فلانة فقال له هل نظرت إليها ؟ فأجاب : لا، فأمره أن يذهب، وينظر إليها.

وكرمها زوجة فجعل لها مثلها للرجل من حقوق، وأوجب لها نفقتها ورعايتها، والمعاملة بالحسنى «وعاشروهن بالمعروف الآية»[37] «وخيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[38] كما جعل الزواج لا يفقد المتزوجة شخصيتها وممارسة كامل حقوقها والمحافظة على إسمها وكرمها أما فجعل الجنة تحت أقدامها، وأمر بحسن مصاحبتها، ومعاشرتها إكراما لأمومتها وجزاء ما تعانيه وتتحمله في سبيل أولادها فقد أجاب الرسول سائلة عن أحق الناس بحسن مصاحبته ومعاشرته فقال «أمك، ثم أمك، ثم أمك، وفي الرابعة أبوك»[39].

35) نفس المصدر 175/9 ـ 176.
36) المصدر السابق 180/9 و 181.
37) سورة النساء ـ الآية : 19.
38) رواه الترمذي عن عائشة مرفوعا.

وكرمها باعتبارها عضوا في المجتمع وفي الأسرة فأنكر اعتبارها عند موت زوجها شيئا يورث كما يورث المتاع، وكما كان الأمر قائما وقرر أهليتها للتملك والبيع والشراء وسائر العقود والتصرفات «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن»[40] وجعل لها كالرجل حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع فقال :

﴿والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة﴾ الآية[41] كما فتح أمامها المجالات كلها، من أجل العمل والجهاد والتعلم والتعليم والعبادة وشهود الجماعات وكل عمل مفيد وصالح.

وقد حرص الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه الراشدون والمسلمون من بعدهم على تكريم المرأة وإعزازها وتقديرها واعتبارها، حتى جعل الإسلام منها خلال عقدين من الزمان مجاهدة، وعالمة وراوية وحافظة ومحتسبة، وشاعرة، وشهيدة وداعية.

وفي ظل هذه التعاليم الإسلامية تربت المرأة وتعلمت وتفقهت، فأنتجت وأفادت ونبغت وبرزت، حيث نجد في تاريخنا المغربي كثلا نابغات شهيرات سجل التاريخ أسماءهن بمداد الفخر، وخلد ذكرهن في ميدان العلم والمعرفة كالعالمة المسندة أم المجد مريم بنت أبي الحسن الشاري السبتي.

والعالمة المحدثة عائشة بنت عمر الصنهاجي المتوفاة سنة 739 ه وقد أخذ عنها الحافظ ابن حجر بواسطة تقي الدين محمد الفاسي.

كما كانت النساء يروين السنة ويحفظنها خاصة صحيح الإمام البخاري، ومنهن العز بنت محمد بن علي العبدري التي كانت ترويه عن أبيها، ومنهن المحدثة العالمة أمة الرحيم بنت ضياء الدين السبتي التي أشاد بها ابن حجر، وأجاز لها علماء عصرها في القرن الثامن الهجري.

39) رواه البخاري في الصحيح.
40) سورة النساء ـ الآية : 32.
41) سورة التوبة ـ الآية : 71.

كما كانت خناثة بنت بكار المعافري زوج السلطان المولى إسماعيل العلوي عالمة حافظة راوية، وهوامشها وتعليقاتها على الإصابة لابن حجر مشهورة معروفة ولما حجت وزارت مصر روت وأخذت كما روي وأخذ عنها علماء الحجاز ومصر.

كما اشتهر من بين نسائنا العالمات فاطمة بنت أحمد زويتن التي كان لها ولوع خاص بصحيح البخاري حتى كتبت نسخة منه في خمسة أجزاء بخط يدها، والحافظة العالمة رحمة بنت الجنان المكناسية إلى غيرهن مما يضيق عن ذكرهن المجال[42].

أما الصورة التي توجد عليها المرأة اليوم في بعض البلدان الإسلامية فذلك ناتج عن بعدنا عن قيم الإسلام وتعاليمه وسماحته، فقد كان الرسول إذا رأى النساء مقبلات وقف لهن وقال : «اللهم أنتم من أحب الناس إلي»[43].

كما كان يقول لابنته فاطمة ويقبلها ويساعدها في بيتها، ويسابق زوجته عائشة فتسبقه مرة ويسبقها أخرى ويقول لها مداعبا : «هذه بتلك»[44] وبلغ من عنايته بتعليمها وتربيتها حتى قال عنها عروة : « ما رأيت أحدا أعلم بالحلال والحرام وأعلم بالشعر والطب من عائشة»[45] وحتى كان الصحابة يسألونها عن الفرائض، وكذلك كانت سائر أمهات المؤمنين والصحابيات.

كذلك سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في العبادة والإيمان، وأمر الرسول النساء أن يشهدن صلاة العيدين بجانب الرجل «ولو لم يكن لهن جلباب فليستعرنه من جاراتهن»[46] وأمرهن أن يشهدن الصلوات ويحضرن الجماعات ﴿**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**﴾ وكانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء مع الجماعة في المسجد فقيل لها : لم تخرجين وأنت تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار ؟ قالت : وما يمنعه أن ينهاني ؟ قال : يمنعه قول رسول الله ﷺ «لا تمنعوا إماء الله ـ أي النساء ـ مساجد الله».

وسأكتفي هنا ببعض الأمثلة والوقائع الشهيرة في تاريخنا تدليلا على مكانة المرأة وقيمتها في دين الإسلام :

فقد حدثت السيدة عائشة أم المومنين أن فتاة جاءتها شاكية بأن أباها زوجها من ابن أخيه ليرفع بها خسيسته (دناءته) وهي كارهة، فأمرتها أن تجلس، حتى يأتي النبي ﷺ فلما جاء ﷺ أخبرته فدعا أباها وجعل الأمر إليها ـ أي أن تنفذ الزواج وتجيزه أو ترفضه ـ فقالت :

يا رسول الله، قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن أعلم للنساء من الأمر شيء ؟[48].

والواقعة الثانية التي تؤكد حرمة المرأة واستقلالها في أمرها، أن السيدة عائشة اشترت جارية تسمى بريرة، وأعتقتها ـ أي حررتها ـ فأصبح لها الخيار بعد تحررها بالبقاء مع زوجها «مغيث» أو تركه، فلما خيرها الرسول اختارت أن تتركه، فهام على وجهه وراءها في طرقات المدينة باكيا يترضاها وهي كارهة، وبلغ ذلك الرسول ، فرق لحاله وقال أو ذاك شيء واجب علي ؟ فأجابها الرسول ﷺ «إنما أنا شافع» فما كان منها إلا أن ردت : لا حاجة لي فيه»[49].

كما أننا نجد في تاريخ السيرة النبوية واقعة لها دلالتها في تكريم المرأة في شخص زوجة الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري والتي منحها الرسول عليه السلام قلادة وضعها بيده الشريفة حول عنقها تكريما لموقفها وبلائها في غزوة خيبر، فكان هذا أول وسام لإمرأة مجاهدة في الإسلام.

كما أن الإسلام أباح للمرأة أن تشترك في الأمور السياسية العامة بنص القرآن والسنة وفعل الصحابة وإجماع المسلمين.

فقد نص القرآن على مبايعة النساء للنبي ﷺ على السمع والطاعة والقيام بالأحكام والحدود، وهو مصداق قوله تعالى : ﴿**يا أيها النبي إذا جاءك المومنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا**﴾ الآية [50].

---

42) أنظر تفصيل الموضوع في كتابنا مدرسة الإمام البخاري 375/1 وما بعدها.
43) فتح الباري 348/9.
44) رواه ابن ماجة وأبو داود والنسائي.
45) رواه الحاكم.
46) فتح الباري 469/2.

47) أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر.
48) سنن النسائي ـ كتاب النكاح 87/6.
49) أنظر صحيحي البخاري ومسلم والمسند لأحمد.
50) سورة الممتحنة ـ الآية : 12.

وعلى أية حال فإن الوضع بعد ما تغير وانفصلت على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والاحتكام إلى الله وإلى رسوله وإلى العمل لما فيه مصلحة الأمة وسعادتها وعزها[51].

ومعروف ما جرى بين هند إمرأة أبي سفيان وبين النبي عليه السلام حين المبايعة وجوابها له عليه السلام، إذ قال لها في البيعة : «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا»، فقالت هند : «وكيف نطمع أن يقبل منا ما لم يقبله في الرجال»، فقال عليه السلام : «ولا تسرقن» فقالت : إن أبا سفيان رجل شحيح، وقد أصبت من ماله هناة فما أدري أتحل لي أم لا. فقال أبو سفيان ـ وكان حاضرا ـ ما أصبت من شيء فيما مضى فهو لك حلال، فضحك النبي عليه السلام وقد عرف أنها هند التي لاكت كبد حمزة في معركة أحد وقال :» «إنك لهند أكلة الكبود» فقالت : أني وحقود، أعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك، فقال عليه السلام : «ولا تزنين» فقالت : أو تزني الحرة» فقال : «ولا تقتلن أولادكن» فقالت : ربيناهم صغارا وقتلناهم كبارا فأنت وهم أعلم» تشير إلى قتل ولدها حنظلة في معركة بدر، وتبسم رسول الله ﷺ فقال : «ولا يأتين ببهتان» فقالت : إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق» فقال : «ولا تعصيني في معروف» فقالت : «والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء»[52].

وقد صح أن عمر رضي الله عنه كان يحلف المرأة المهاجرة هكذا «بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله[53] وقد ناقشت المرأة الرسول عليه السلام في الشؤون العامة وفي مختلف القضايا، وكن السبب في نزول الوحي وفي تقرير التشريع العام للمسلمين فقد سجل القرآن في سورة المجادلة الحوار الذي جرى بين الرسول وبين خولة بنت تعلبة زوج أوس بن الصامت، بعد أن اشتكت إليه زوجها لقوله لها : أنت علي كظهر أمي» مما يحرمها عليه في الجاهلية ثم دعاها لنفسه فأجابته : والذي نفس خولة بيده لا تصل إلي وقد قلت حتى يحكم الله ورسوله، فأجابها عليه السلام : «ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن وما أراك إلا قد حرمت عليه» قالت : ما ذكر طلاقا، وجادلت الرسول الكريم مرارا حتى أنزل الله فيها وفي قصتها مع زوجها ومجادلتها للرسول في أمرها قرانا وتشريعها في الظهار كما قال تعالى : ﴿**«قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تجاوركما إن الله سميع بصير**﴾[54].

وفي حادث الافك وموقف عائشة وتكذيب الله للمنافقين والمرجفين في سورة النور وفي اعتراض امرأة من المسلمين على عمر عندما ردت رأيه حين أراد تحديد المهور فقالت له : أيعطينا الله ويمنعنا عمر فقال : «أخطأ عمر وأصابت إمرأة»[55].

وفي ترجمة أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية أنها أتت الرسول ﷺ فقالت : «انى رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين يقلن بقولي وعلى مثل رأيي إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فأمنا بك واتبعناك ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات، قواعد بيوت وموضع شهوات الرجال وحامل أولادكم، وإن الرجال فضلوا بالجماعات وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم وربينا أولادهم، أفنشاركهم في الأجر يارسول الله ؟ فالتفت بوجهه إلى أصحابه وقال لهم : «هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه» فقالوا لا يارسول الله، فقال لها : «انصرفي يا أسماء واعلمي من ورائك من النساء أن حسن تبعل إحداهن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته تعدل كل ماذكرت» فانصرفت وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها ﷺ[56] فهذا مثل حي على أن المرأة كانت تمثل في سور البقرة، والنساء، والنور، والأحزاب، والفتح، والمجادلة، والممتحنة، والطلاق، وما حفلت

51) أنظر الحوار الرائع بين الرسول وهند زوجة ابن سفيان عندما بايعته مع النساء «المجتمع المتكافل في الإسلام» ص 135 و 136 للدكتور عبد العزيز الخياط.

52) السيرة الحلبية 137/3 المطبعة العامرة مصر سنة 1292.

53) المجتمع المتكافل في الإسلام عبد العزيز الخياط ص 136.

54) سورة المجادلة ـ الاية الأولى.

55) نيل الأوطار للشوكاني 180/6.

56) الاستبصار في مناقب الأنصار.

وتحديد مكانتها، وتامين حقوقها مما لم يبلغ مبلغ الإسلام فيه دين سابق ولا مذهب لاحق، ومما يدعو المرأة المسلمة إلى الدفاع عن حقوقها ومكانتها في إطار الشريعة الإسلامية والبعد عن التشبه والتقليد والجري وراء كل ما هو أجنبي وغريب، مما لم يمكنها من أي شيء حقيقي ناهيك وقد كانت آخر وصية الرسول عليه السلام للأمة جمعاء بالمرأة خيراً، الأمر الذي يدل على المركز الكبير الذي وصلت إليه المرأة في دين الإسلام وعلى عناية رسول الله وبره بها فقال في حجة الوداع».

«اتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً».

ويكفيني هنا مثل واحد على مدى تغير المرأة في ظلال الإسلام وخلال زمن يسير فقد كانت الخنساء الشاعرة امرأة مخضرمة عاشت في الجاهلية والإسلام فقدت أحد أولادها قبل الإسلام فلما نعي إليها قالت :

«ولولا كثرة الباكين حولي لقتلت نفسي».

معركة القادسية المشهورة شارك فيها اربعة من اولادها واستشهدو في سبيل الله، فلما أخبرت بذلك رضيت بقضاء الله فيهم وفرحت باستشهادهم في سبيل الله وقالت : «الحمد لله الذي شرفني بموتهم وأرجو أن أكون مثلهم».

ونحب هنا أن نشير إلى بدعة طغت على مجتمعات المسلمين بسبب تخلفهم وضعفهم وتقليدهم وهي تسمية المرأة بالسيدة فلان نسبة إلى زوجها، فهذا تقليد فاسد يفقد المرأة شخصيتها، والانتساب إلى أبيها وأسرتها فقد كانت أمهات المومنين أنفسهن تنسبن إلى أبائهن حيث يقال : عائشة الصديقية وخديجة بنت خويلد وحفصة بنت عمر، ولم ينسبن إلى زوجهن مع أنه أشرف زوج في الدنيا، وهو رسول الله ﷺ حفاظاً للمرأة على شخصيتها الكاملة واستقلالها الكامل مما بوأها مركزاً عظيماً طول تاريخ المسلمين، ومما يعتبر فتحاً عظيماً في تاريخ النظم الاجتماعية كلها، بفضل الإسلام وتشريعاته، ونظمه وأحكامه وقيمه، التي كانت خيراً للإنسانية كلها إلى يوم الدين».[57]

الرباط : يوسف الكتاني

[1] راجع في الموضوع بحث الكاتب ـ الإسلام والمرأة ص 3 وما بعدها.

العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بأوروبا

للدكتور يان سلوب JAN SLOMP
ترجمه عن الانجليزية : الاستاذ محمد الصائغ ..

II

ISLAMIC UNITY MAGAZINE

نشر هذا المقال في مجلة الوحدة الإسلامية الصادرة بمدينة جنيف بسويسرا ـ العدد الملحق رقم 36 ـ الصادر في صيف عام 1405 هـ/الموافق لسنة 1985 م ـ The Firmest Bond P.O Box 82 – 1218 – Geneva.

في السنوات الأخيرة بذل المسلمون والمسيحيون مجهودات متواصلة من خلال حوار مفتوح قصد الوصول إلى تفاهم وثيق ـ خال من الشكوك والشوائب ـ وذلك خدمة للسلم والعدل والمصالح الإنسانية وعلى سبيل المثال، فقد انعقد مؤتمر الحوار الإسلامي ـ المسيحي بمدينة كولومبو ـ عاصمة سريلنكا ـ (سيلان) فيما بين 30 مارس وفاتح أبريل 1982م، تحت عنوان «التعايش» والتعاون بين المسلمين والمسيحيين، فضائل وتطبيقات البرامج الخيرية والتنموية، وقد كان من وراء أخذ المبادرة وتنظيم هذا المؤتمر كل من المؤتمر الإسلامي العالمي ـ كراتشي ـ (والمجلس) العالمي للكنائس ـ جنيف ـ وكان الناشر لهذا المقال من بين المشاركين 63 في المؤتمر حيث تمكن من نشر التقرير النهائي للمؤتمر في مجلتنا [المشار إليها] (The Firmest Bond) في عددها ـ 8 (الثامن). ولقد رحب المسلمون الحاضرون بالتصريح الرسمي الذي أصدره المجمع الثاني للفاتكان سنة 1963.

وكانت البيانات الأخيرة المنبثقة عن ندوة الكنائس الأوروبية المنعقدة بمدينة S. Polten في شهر مارس حول منزلة رسول الله محمد ﷺ والبيان الصادر عن اللقاء الإيكوميني الثالث المنعقد بمدينة Riva Del Garda بإيطاليا في شهر أكتوبر 1984 جديرة بكل تقدير خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار المفهوم المسيحي للإسلام. أما خلال الملتقى الثاني لأئمة المساجد الذي نظمته جمعية الدعوة الإسلامية في شهر يناير 1985 بمدينة Utrecht بهولندا، فقد ألقى الأستاذ «Dr. « Jan Slomp ـ وهو عالم ديني ومفكر هولندي شهير ـ كلمة مهمة حول موضوع «العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في أوروبا»وفي ما يلي نص الكلمة التي ألقاها الدكتور « Dr. « Jan Slomp ننشرها كاملة حتى يستفيد منها قراؤنا [الأعزاء].

[يقول الدكتور «Dr.« Jan Slomp» : أستسمحكم أن أبدأ أولا بتشكراتي للجنة التنظيم التي طلبت مني أن ألقي محاضرة في موضوع العلاقات بين الإسلام والمسيحية، وأن أطبعها بطابع شخصي، فيصير موضوع المحاضرة هو العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في قارتنا الأوروبية، انطلاقا من مفهوم مسيحي. لقد قبلت هذه الدعوة بكامل السرور [والاعتزاز] لأنني، منذ ربع قرن مضى، كنت سخرت حياتي لتحسين هذه العلاقات بالفعل، إنه من المناسب، على ما يبدو لي، أن ألفت انتباهكم إلى أن حدثا من هذا القبيل، أي كأن يتحدث مسيحي أمام جمهور مسلم، أو كأن يتحدث مسلم أمام جمهور

مسيحي، هو في حد ذاته دليل على أن أكثر الناس ينقصهم الاطلاع إلى حد بعيد في هذا المجال، كما أنه دليل على أن كلتا الجماعتين الدينيتين كانتا في العصور الماضية في عزلة متبادلة.

ففي مقال نشر قبل أسابيع قليلة من وفاته سنة 1982، صرح القس الأنجليزي M. Bishop David Brown أنه يود أن ترقى اللقاءات مع المسلمين إلى روح الاحترام والمعرفة والأمانة والتفتح والأمل [في المستقبل] وسأحاول في محاضرتي هاته أن آخذ بعين الاعتبار هذه الإقتراحات وأتتبع هذه الآثار.

أربع مراحل :

لقد دخلت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في أوروبا ، حسب تقديراتي ، مرحلتها الرابعة . إن المسلمين يكونون جزءا [لا يتجزأ] من التاريخ الأوروبي إنهم ينتسبون لحاضره وسيقررون مستقبله. إن هذا الوجود الإسلامي، عبر القرون، إذ يشكل في حد ذاته موضوعا للتفكر والاهتمام، سواء داخل الكنيسة أو داخل المجتمعات التي تواجد فيها، فإنه أصبح حقيقة إنسانية لا للشرق فحسب، ولكن أيضا، ومنذ عقود مضت بالنسبة لـ (دول) غرب أوروبا.

إن محاضرتي هاته ليست، على أي حال، موضع وصف توضيحي للتاريخ المعقد والمتشابك للعلاقات بين أوروبا [المسيحية] والعالم الإسلامي، وبالأخص للعلاقات بين الكنائس والمسيحيين في أوروبا والعالم الإسلامي، سواء عندنا أو في الجهات النائية من آسيا وافريقيا. ومع ذلك، لكي نفهم المرحلة الراهنة من التاريخ [المذكور] فإنه من الضروري أن نلقي نظرة موجزة على الماضي. إن كل المؤشرات تبين لنا أننا دخلنا مرحلة جديدة من هذا التاريخ.

ـ إن المرحلة الأولى : من ذلك التاريخ تتفق مع ما يسمى بتاريخ إسبانيا المسلمة (الأندلس) وما ترتب عن تلك الفترة التاريخية. ولقد كان لهذه المرحلة أثر عميق في نمو الثقافة الأوروبية وأن المسلمين كثيرا ما يشيرون إلى هذه المرحلة [من التاريخ] بمبالغ من الاعتزاز والخوف معا. وذلك ما صوره الأستاذ أمير علي عندما اعتبر نتيجة معركة Poitiers سنة 732 م بمثابة نكسة ذات نتائج مضاعفة بالنسبة للعرب وبالتالي بمثابة كارثة لكل من أوروبا والمسلمين معا (راجع كتابه « روح الإسلام، صفحة 398).

فالمواقف الغربية تجاه الإسلام كثيرا ما تحددها الأحداث التاريخية، وبالتالي المفاهيم المختلفة للتاريخ، وهي مفاهيم تختلف عامة مع مفهوم التاريخ عند المسلمين.

لقد بدأت الحملات الصليبية أثناء المرحلة الأولى، تظهر وتتوارى، إلا أن العقلية الصليبية بقيت، ويا للأسف، حية لمدة طويلة. فالأوروبيون بما فيهم المسيحيون وغيرهم، ميالون إلى تجاهل ما تلقوه من العالم الإسلامي لتعزيز رصيدهم المادي وتنوير حضارتهم الأدبية والثقافية. فمن الواجب عليهم، كبقية العالم الثالث المتخلف أن يتذكروا ما ورثوه من العالم الإسلامي ليضيفوه إلى حضارتهم الأوروبية.

إن Anslem من Canterbury الذي عاش من (1109 هـ ـ 1033 م) و Thomas Aquinas (1274 هـ ـ 1225 م) و Raymoud Lull (1316 هـ ـ 1235 م) و«نيكولا» Nicolas من Cosa (1464 هـ ـ 1401 م) كانوا هم وحدهم تقريبا من رجالات الدين المسيحيين الذين فهموا الإسلام، خلال هذه الفترة من الزمن، بطريقة فلسفية موضوعية.

ـ أما المرحلة الثانية : فهي تغطي تقريبا مدة التفاعل بين الإمبراطورية العثمانية والقارة الأوروبية خاصة منها الجهة الشرقية وبعض بلدان وسط أوروبا. وبعد انهيار هذه الإمبراطورية سنة 1453، بدأ النفوذ [العثماني] التركي يتلاشى في هذه الأقطار [الأوروبية]. ولا زالت ذكريات تلك المرحلة حية في هذه البلدان كبلغاريا، وقبرص، واليونان، ورومانيا، ويوغسلافيا، وما زال أثر هذه الذكريات يطبع لحد الآن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في هذه البلدان.

ـ أما المرحلة الثالثة : وهي تلتقي إلى حد ما مع المرحلة الثانية، فإنها تابعة لتوجهات التوسع الأوروبي، وذلك غالب الأحيان على حساب ما نسميه اليوم ببلدان العالم الثالث، وهي مناطق شاسعة، أغلبية سكانها مسلمون، كما هو الحال بالنسبة لشمال ووسط إفريقيا، والشرق الأوسط، وآسيا الوسطى، وماليزيا وأندونيسيا... فكل هذه البلدان [وغيرها] صارت تحت السيطرة الاقتصادية الأوروبية وفي غالب الأحيان تابعة للنظام السياسي الغربي.

لقد أرسلت المسيحية الأوروبية، بتياراتها الرئيسية الثلاثة : (1) الكاثوليكية الرومانية، (2) البروتستان، (3) الأرطودوكس في الدرجة الأخيرة، بعثات دينية إلى هذه البلدان فأقامت فيها الكنائس وجندت بعض الأشخاص بعدما أبعدتهم عن دياناتهم الأصلية، كالهندية والبوذية.. الخ ـ والذين لم يسبق لهم اعتناق الإسلام ـ خاصة في الهند والشرق الأوسط، أو بعدما اختارتهم من بين عمار الكنائس القديمة التي كان الحواريون المصلحون قد أقاموها في هذه البلدان.

ولقد عملت الطبقة المثقفة (Enlightenment) خلال هذه المرحلة، على تشجيع الدراسات الإسلامية والاستشراقية، بحثا عن الوصول إلى حضارة ذات انتشار عالمي، فانطلقت مثل هذه الدراسات من بعض الجامعات الأوروبية خلال الشطر الثاني من القرن السادس عشر، فعلم الاستشراق، رغم اتساع أفقه نظرا للبحوث والدراسات الجامعية التي كان محورا لها، لم يتمكن دائما من التحرر من الأفكار المسبقة السائدة و(الأنانية (SELF – Centredness الأوروبية. بدأت الأصول المذهبية والتطبيقية لهذه البحوث والدراسات تشق طريقها. وفي آن واحد تقريبا، ظهرت المدرسة الرومانتيقية مع كل من الفيلسوف الألماني Gœthe والأديب الفرنسي Voltaire وغيرهم الذين اكتشفوا المشرق [بما فيه].

وصار الحماس في الاكتشاف والتنقيب متبادلا. فاكتشف المسلمون بدورهم أوروبا فكان الفيلسوف ـ الشاعر محمد إقبال من رجالات الإسلام الذين تجاوبوا بصفة إيجابية مع الفكر الرومانتيكي الأوروبي (وعلى الأخص مع مدرسة Gœthe الرومانتيكية) بعد قرن ونصف من نشأتها إلا أن العرقية الأوروبية التي كانت من أسباب [نشوب] الحرب العالمية الأولى (1918 ـ 1914) تسببت كذلك في زعزعة القارة الأوروبية رغم ما حظيت به شعوب هذه القارة من احترام وتقدير إن الإيديولوجيات المضادة للإستعمار والتي تطورت خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين، وما آلت إليه الحرب العالمية الثانية من نتائج سلبية بالنسبة لأوروبا، كل هذا أدى بالمرحلة الثالثة من العلاقات الإسلامية المسيحية في أوروبا إلى النهاية.

ـ **أما المرحلة الرابعة** : التي نعيشها الآن، فقد اتسمت بشيء من التشويش والفوضى والشك والتردد، وتقويم للماضي غير المبني على تقد ذاتي صريح، يؤدي بكل من المسلمين والمسيحيين إلى التفاهم والتعاون داخل الوضع الراهن.

بعض المواقف الإيجابية : خلال هذه المراحل الأربعة نجد في طول أوروبا وعرضها بعض العلماء والطلبة المسلمين، لا سيما في الجامعات والكنائس، بل حتى من بين الشعراء والمفكرين، وهم يقفون من الإسلام موقفا إيجابيا إلى حد ما، يشكلون حالات استثنائية بالنسبة للقاعدة العامة الأقل إيجابية، ففي «انجلترا» مثلا، نجد المفكر Thomas Carlyle يساهم في هذا المضمار برسالته المؤرخة سنة 1840 م حول الرسول محمد ﷺ كبطل ورسول يفتح آفاقا جديدة، وفي ألمانيا مثلا، نشير إلى Gœthe]ومدرسته الرومانتيكية الشهيرة] وإلى Adriaan Reland من هولندا. وهنا أريد أن أقول بعض الكلمات حول شخصية Adriaan Reland الذي عمل كأستاذ في جامعة Utrecht، هذه المدينة التي تحظى بالاجتماع فيها هذه الليلة.

ففي سنة 1705 م، أي قبل مائتي سنة وثمانين عاما، أصدر Adriaan Renald كتابا تحت عنوان «الديانة المحمدية» قال فيه : «لو أن هناك ديانة كانت موضعا لسوء التأويل من طرف الأعداء، والاحتقار وسوء الفهم، وتعتبر غير جديرة بالإقناع، لكانت هي الديانة الإسلامية». لقد قال عنه Norman Daniel : «إن كتاب .A.R يعتبر [بحق] من بين عدة كتب أهم مرجع يعين على إزالة الأسطورة ليقيم محلها الحقيقة، والحقيقة فقط، فعلينا أن نتدارسه اليوم قصد الاستفادة... فإن Adriaan Reland هو الذي أثبت أن المرجع الحقيقي والوحيد في الإسلام هو المسلم».. وهنا [يقول Jan Slomp] أود أن أضيف تعليقا على هذا المقال، لكي أثبت قاعدة صلبة وهي أن المرجع الحقيقي والوحيد في المسيحية لن يكون إلا الإنسان المسيحي. فكل ديانة، سواء كانت المسيحية أو الإسلام، لا تقيم حقيقة وفي الدرجة الأولى إلا بأتباعها ومناصريها.

[هذا من جهة، ومن جهة أخرى] فإن المسيحيين كثيرا ما يحكمون على القرآن كأنه الإنجيل، والمسلمون يطبقون المقاييس

والمفاهيم المستمدة من القرآن ليقيسوا ويقوموا بها الإنجيل. والمسيحيون يحكمون على محمد ﷺ كأنه المسيح، والمسلمون لا يجدون (أو لا يلاقون) المسيح في مستواه [الحقيقي]. إن هم قاسوه بسيرة نبيهم محمد ﷺ ومعتقداتهم في المثل الأعلى. وهكذا، فإن كثيرا من المقارنات كهاته تعطينا فكرة دقيقة عن الأشخاص الذين يستعملونها أو عن الذين تستعمل في حقهم. فالمقارنة بين الأديان يمكن أن تكون علما مفيدا شريطة أن تستعمل في الاتجاه الصحيح وأن يكون هدفها هو الدفاع عن الحق. من أجل تفاهم أفضل.

إن الحركة من أجل الوصول إلى فهم أحسن للإسلام أحرزت تقدما ملموسا (أو مهما، أو سريعا) خلال الخمسينات أو الستينات الأخيرة من هذا القرن، وأذكر على سبيل المثال فقط :

لويس ماسينيون Loui Massignon (1962 ـ 1883) الفرنسي، وهاندريك كرايمر Hendrik Kraemer (1965 ـ 1888) الهولندي، و كينث كراكَ Kenneth Cragg (المولود سنة 1913).

فالعالم الهولندي Hendrik Kraemer مثلا عبر عن رأيه في هذا الموضوع كالتالي :

«إن تاريخ البعثات المسيحية في العالم الإسلامي، كنظام موروث من القرن التاسع عشر (ميلادي)، هو الذي أعان المسلمين، حسب ما يظهر لي، على تصميم العزم وبذل المجهود في تصفية الاستعمار وفيما بعد.. فعلينا العمل إذا على إنشاء فكر جذري جديد وأسلوب جديد إن كنا ندرك علامات ومميزات العصر، وإن كان فينا الاستعداد للسير وفق مناهج جديدة قصد امتثال أوامر السيد المسيح [عليه السلام].

(من كتاب العالم الإسلامي، ص 250. الصادر عام 1960).

إن هذا الفكر الجديد يعتبر كتحدي من طرف المجلس العالمي للكنائس. فبالتعاون مع بعض المفكرين المسلمين، انعقدت ندوة بالتراب السويسري عام 1976 حول الرسالة التبشيرية المسيحية والدعوة الإسلامية. فالإسلام والمسيحية كلاهما ديانة ذات رسالة تبشيرية. ولقد نص البيان المشترك في آخر هذه الندوة على أن الحرية الدينية وهي الحرية المطلقة للإقناع والاقتناع المتبادل، كما رفع بعض التوصيات فيما يخص العمل الموضوعي للبعثة المسيحية. والعمل على تأكيد نفس المبدأ بالنسبة لتطبيق الشريعة الإسلامية، كما نص على ذلك تدخل وزير العدل الباكستاني السابق السيد مجيب الرحمان (S.A Rahman) المولود سنة 1903 م، في كتابه «معاقبة الردة في الإسلام» الصادر عام 1972.

وهذه النقطة تكتسي أهمية بالغة في تطوير العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في أوروبا. فالتحولات العقيدية Conversiense يجب أن تكون من كلتا الجهتين، ودواعيها يجب أن تتعدد وتتكاثر، لا سيما بالزواج المشترك [كزواج المسلم بالمسيحية. ولكن كنتيجة [حتمية] للبحث عن الحقيقة. ففقدان [الثقة] والتسامح فيما بين الجماعتين يؤدي إلى القلق والانزعاج لكل من كان له ضمير حي [سواء كان مسلما أو مسيحيا]. فالأستاذ عبد المجيد الشرفي [مثلا كان يحذر من اللقاءات الإسلامية ـ المسيحية المحشوة بالمجاملات المتبادلة فقط، وكان يدعو إلى الاهتمام بلب المشاكل بروح نقية وتضحية كاملة، وإني أتفق مع الأستاذ عبد المجيد الشرفي، ويبدو لي أنه ليس من المناسب أن نتجنب هذه المشاكل، عوض أن نجعلها أثناء هذا اللقاء الاستشاري محور الحوار الإسلامي ـ المسيحي البناء.

تصريحات رسمية : إن المسلمين على اختلاف مذاهبهم رحبوا بالبيان الصادر عن المجلس العالمي الثاني للفاتكان (1963) الذي جاء فيه : «إن الكنيسة تنظر إلى المسلمين نظرة احترام وإجلال. فهم يعبدون إلها واحدا، وهو الحي الباقي، الرؤوف الرحيم، القوي الجبار، خالق السماء والأرض. ومخاطب البشر والمسلمين، إذ يجاهدون أنفسهم بإخلاص ليخضعوها لأوامر الله وأحكامه وإن كانت مبهمة أو لا تدرك العقول حكمتها، تماما كما فعل إبراهيم [عليه السلام]، ذاك النبي الذي يسر العقيدة الإسلامية أن تتشبه به. ورغم أنهم لا يعتبرون المسيح إلها ؟؟ فهم يبجلونه كنبي ورسول [ويوقرونه]. وهم يحترمون كذلك مريم الأم [البتول] ويبجلونها وأحيانا يزورونها بكل تفان وإخلاص. وبالإضافة إلى هذه، فهم يؤمنون بيوم الحساب ويترقبون اليوم الذي سيوفي فيه الله [عز وجل] كل إنسان حسابه وجزاءه بشكل وافر. وهم بالتالي

يتاضلون من أجل حياة فاضلة، ويعبدون الله، خاصة من خلال الصلاة والصيام والزكاة والإنفاق في سبيل الله.

ورغم الأعمال العدائية والنزاعات التي نشأت عبر القرون بين المسيحيين والمسلمين. فإن هذا المجمع الديني الموقر يلزمنا بإلحاح أن ننسى الماضي ونجتهد بإخلاص قصد الوصول إلى تفاهم مشترك، وذلك لمصلحة البشرية جمعاء، كي تكون قضيتهم العليا هي المحافظة على الأمن وإنشاء العدالة الاجتماعية والقيم الخلقية والسلم والحرية».

ولقد علق الدكتور Albert Horani الذي عمل كأستاذ بجامعة Oxford حتى عام 1979 في مادة تاريخ الشرق الأوسط الحديث، على بيان المجمع الثاني للفاتكان بالتعليق التالي : [يقول الأستاذ Hourani] : «إننا نجد في تصريحات المجمع الثاني للفاتكان، ولأول مرة في التاريخ المسيحي مجهودات [ملموسة] لتحديد موقف مسيحي من الإسلام، هذا الموقف الذي يمكن للمسيحيين أن يتقبلوه تجاه (أو نحو) عقيدة التوحيد (أو توحيد الإله الذي يخاطب البشر)، ونحو رأي الإسلام الذي يعتبر المسيح [عليه السلام] نبيا ورسولا. وهذا يكفي جدا لإنشاء تعاون ممكن داخل كيان طبيعي.

ففي مارس 1984 : انعقد الملتقى الاستشاري (لندوة) الكنائس الأوروبية بـ S. Polten لدراسة موضوع معرفة الإله (الله) عند الإنسان المسيحي والإنسان المسلم حسب المنظار الأوروبي. وكان من ضمن النتائج المهمة التي (توصل إليها) هذا الملتقى الاستشاري البيان الذي تضمنه التقرير النهائي حول منزلة نبي الإسلام محمد ﷺ. ولقد كونت هذه التأملات المبتكرة (أو المرتجلة) الحجر الأساسي للعمل الجديد الذي قام به (الكاتب) Kenneth Cragg [حول موضوع] : «محمد [في منظار] الإنسان المسيحي، سؤال وجواب». [هذا] وسينشر التقرير الرسمي لهذا الملتقى الاستشاري في صيغة موجزة بمدينة جنيف [بسويسرا].

ومن ثالث إلى ثامن أكتوبر 1984، انعقد الملتقى الثالث للمجلس الإيكوميني الأوروبي بمدينة «ريفاديل كاردا» Riva Del Garda . بإيطاليا. وقام بتنظيمه كل من مجمع ندوات الأساقفة الرومانيين الكاثوليكيين في أوروبا وندوة الكنائس الأوروبية المشار إليها أعلاه. ويجدر بنا أن نستشهد هنا بالفقرتين 12 و 14 التي جاء فيها ما يلي: [ففي الفقرة 12 نجد] : إننا نؤمن بإله واحد. وهو [الإله] الوحيد الذي بيده قلوبنا وحياتنا كلها. ونحن نعلم أن المعبود لا يمكن أن يموت ويحيا، فإذا ليس هناك إلا إله واحد. رغم أنه يمكن أن يكون هناك عدة ما يسمى بالأرباب في الأرض والسماء، كما هو الواقع بالنسبة لتعدد الملوك والسادات. غير أنه بالنسبة إلينا ليس هناك إلا إله واحد، فنجد : «لا إله إلا الله : هي أيضا (العقيدة الدينية في الإسلام) (عقيدة الإسلام الدينية). فالمسلمون يوجدون في كثير من بلداننا، وهم يعيشون في وسطنا. فكل فهم شاذ يكون بالنسبة (لدياناتهم) أو (لشعائرهم الدينية) وبالنسبة لنا كذلك فهما مؤسفا يؤدي إلى التوتر بين المسلمين والمسيحيين خاصة في الوقت الراهن. فعلينا إذا ألا ننسى أن المسلمين كذلك، (ومعهم) اليهود والنصارى يؤمنون بإله واحد ؟ ؟...

إن الكنائس الأوروبية تولي الإسلام اهتماما بالغا، والدليل على ذلك كثرة المراكز والأمانات العامة واللجان [الخاصة بالشؤون الإسلامية] المقامة من طرف الكنائس المختلفة.

إن التصريحات والبيانات التي صدرت عن مختلف الكنائس في أوروبا والبرامج العملية التي نظمتها هذه الكنائس، بتعاون في غالب الأحيان مع المسلمين [والهيئات الإسلامية] للوصول إلى اطلاع أحسن على الإسلام، لخير دليل، في نظري، على التغيير (أو الانتقال) نحو الأفضل. إن الكنائس عملت كل هذا (أو قطعت كل هذه المراحل) لأنها اهتمت بإنشاء علاقات طيبة مع المسلمين، وهي تريد أن تسخر كل طاقاتها وإمكانياتها ليبقى مجتمعنا متعايشا مع الجميع (أو ملائما لحياة الجميع)، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو ملحدين. فمن خلال تربية شبابنا، يمكننا جميعا أن نساهم في إنشاء الغد الأفضل.

بعض العقبات وفرص جديدة للاختبار :

في الخمسينات الأخيرة وفي بداية الستينات، بدأ شيء من التفاؤل يعم (أو يسود) الأوساط المسيحية الملتزمة بالدراسات الإسلامية. وأصبح يبدو أن مفاهيم القرون الوسطى (القديمة)

بدأت تمحي (أو تختفي من أوروبا الغربية وأمريكا [الشمالية] والشاهد على هذا كتاب «دانيل» Daniel Norman : «الإسلام والغرب» [الذي جاء فيه] : «إن الرجل المسيحي في عصرنا الحديث (أو في عصرنا هذا) عليه أن يبقى متحررا كتحرره في المناظرات الجدلية. وسيبقى [أيضا] مسيحيا عندما يؤمن بأن الحقيقة الوحيدة هي في المسيحية، وأن العقيدة الإسلامية لا تكون خطرا عليه وأن المجتمع الإسلامي لا يكون خطرا على حضارته، وليس هو في حاجة لتوكيد الخلافات، أو الفوارق...

وإذا دعت الضرورة إلى ذلك فإنه، حينما (يشهر) أو (يبرز) يظهر نقاط الخلاف، فهو حر التصرف، لكي يجعل أغلب هذه المظاهر - أي مظاهر الخلاف - أقل إثارة وأقل عرضة للتوتر والغضب. فالمسيحي، إذن هو أولى أن يكون بمثابة (الطالب أو الباحث) المخلص الذي لا يتأثر بالعواطف في علاقته بالإسلام

إن هذه المواقف الجديدة، الصادرة سنة 1960، وضعت في محك الاختبار أمام الأحداث الأخيرة. ولا بد من الاعتراف (بدلا من : ولا مفر من الواقع) بإن بعض الأوروبيين بما فيهم بعض المسيحيين وأهل الخير أحسوا بأنهم مهددون من جراء الأحداث في الشرق الأوسط ومن [جراء] تقلبات الإسلام الأصولي الملقب بالإسلام النضالي (أو الثوري). وكذلك من جراء التزايد المفاجئ في عدد المسلمين الأوروبيين الذي ارتفع من 18 إلى 24 مليون [نسمة]. ولا عجب، أمام هذه الأحداث، أن [نرى] غير المسلمين في أوروبا يرجعون إلى الوراء وينزلقون من جديد نحو مواقف القرون الوسطى تجاه الإسلام.

وإن هناك بالفعل علامات خطيرة ومخيفة تشير إلى هذا الاتجاه. غير أنها لا تنشأ بالتأكيد أو دائما في الدوائر المسيحية. فأذكر على سبيل المثال، الانتقاد الموجه ضد التذكية الشرعية للماشية كعمل وحشي تجاه الحيوان، وانتقاد التربية الإسلامية الموصوفة بالتزمت والرجعية - (Obscurantism Unavoidable)، والانتقاد الموجه ضد وضعية المرأة [المسلمة] بصفتها أدنى درجة من مرتبة الرجل.

وإن كانت هذه هي مبررات هذه الانتقادات، فعلى المسلمين أنفسهم أن يزيلوا أسبابها. وإذا كانت هذه الانتقادات لا أساس لها، فستجدون الكنيسة بجانبكم، تقاوم هذا التحامل وسوء الفهم، وذلك في خدمة المعلومات الصحيحة إنه ليس من الضروري أن نقوي هذه الإحساسات والتخوفات بفقدان الحساسية تجاه المواقف السائدة داخل الجماهير المعادية وبالتباهي في إعداد برامج مزعومة وبإضافة تقريرات إحصائية للبيانات الرسمية، للتأثير على الغرباء الأجانب سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، ففي كل مكان، ارتكب المسيحيون نفس الأخطاء التي تسببت لهم في نتائج معاكسة.

إن الوضع الحساس للأقليات [في العالم المسيحي] يعكس غالب الأحيان الصورة الحقيقية للتورط (أو للمأزق) الذي وقعت فيه البشرية جمعاء. وإني أفضل الوصول إلى هذا الاستنتاج على التباهي بآراء متفائلة والتي يكون منطلقها دائما من موقع القوة.

إن الإسلام والمسيحية والمسلمين والمسيحيين، لهم جدول أعمال مشترك إن كانوا مستعدين للتعاون.

مع تشكراتي من جديد على دعوتكم.

الدكتور يان شلومب - Dr. Jan Somp
أوتريخت - هولند - Utrecut – Nederland



العامية والفصحى في القاهرة والرباط (*)

للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله
عضو أكاديمية المملكة المغربية والمجامع العربية

سبق أن نشرنا بحثا مسهبا في عدد سابق حول رسل الفكر بين المغرب وبلاد الكنانة طوال ألف عام وننشر اليوم هذه الدراسة التي تعتبر معطياتها من نتائج هذا اللقاء الموصول.

في هذا الجمع الحافل نحيي بكل اعتزاز وإكبار اليوبيل الذهبي لظهور مجمعنا الموقر مجمع اللغة العربية بالقاهرة كمجمع رائد، أخذ على نفسه منذ اللحظة الأولى إمداد العروبة بالرصيد الأصيل للغة الضاد لغة العلم والحضارة والتكنلوجية وقد وفى في شمولية نادرة وعمق وبعد كبيرين بهذا الوعد الخطير مما جعل منه المنتدى العروبي الوالد الذي برهن بمنجزاته الرائعة عبر خمسة عقود من السنين على أن لغة القرآن كانت ولا تزال منبع الكلمة الرصينة الجزلة الطيعة ذات المحتوى العلمي والحضاري الدقيق.

وقد كان لإبداعات مجمعنا ـ الذي يضم في رحابه العامرة أقطاب الفكر وجهابذة العلم من أبناء الوطن العربي ـ القول الفصل في سيولة الكلمة وشيوعها فهنيئا لمجمعنا بعيده الذهبي وهنيئا للعروبة بهذا الكيان الذي تنضوي تحت رايته معتزة فخورا.

أما البحث الذي اخترناه لهذه المناسبة الفذة فهو موضوع نال من رعاية مجمعنا الحظ الأوفر وسيكون إسهامنا فيه متواضعا يستمد أصالته وبعده من النهج البناء الذي ركز أسيسته، مجمع اللغة العربية في مآت الدراسات والبحوث التي أبدعها أعضاؤه الموقرون من مختلف أنحاء العروبة.

العامية هي ما يسميه الجاحظ بلغة المولدين والبلديين (البيان والتبيين ج 1 ص 111). وقد لاحظ أن في كل مدينة ألسنة ذلقة غير أن اللحن كان فاشيا في العوام (ص 111).

وقد تحدث أحمد أمين عن العامية في القرن الرابع، فقال : «إن اللغة العامية أصبح معترفا بها يبحث في

(*) أعد هذا البحث بمناسبة اليوبيل الذهبي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة. ومعلوم أن القاهرة أسست في القرن الرابع الهجري والرباط في القرن السادس.

ألفاظها وأساليبها وينتقى منها خيرها إلا بعض علماء كأبي العلاء المعري (ظهر الإسلام ج 2 ص 100).

وأغلب الأصول والقواعد الأساسية مشتركة بين الفصحى والعامية حتى ما يتصل بالقلب والإبدال والتسهيل والترخيم والنحت وغير ذلك وتمتاز العامية بمظاهر بسيطة تجعلها في بعض الأحيان أكثر إيغالا في القلب والتسهيل.

ولهذه الوحدة الأصلية أمثلة لا تنفرد بها العامية في قطر عربي دون آخر بل تمس اللهجات الدارجة في معظم أجزاء العالم العربي. فمن مجالي التخفيف في اللسان الفصيح والتي أثرت في ألسنة العامة وجود مترادفات يختلف بعضهما عن بعض بإضافة حرف واحد وقد اختار الدهماء لتخاطبهم اليومي أخفها نطقا وإن كان أكثرها أحرفا مما يؤكد أن عقلية العامة لا تنحرف عادة عن الأصيل إلا إذا لم تجد في صيغه ما يتفق وطبيعتها الميالة إلى التسهيل.

وتوجد في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لجنة للهجات من أهدافها استقراء الألفاظ والتراكيب الجارية على ألسنة أهل الأقطار العربية من الناحية الصوتية ومن ناحية المعنى وتدوين هذا في معاجم وأطالس لغوية وقد اتخذت اللجنة لهجة القاهرة مقياسا وترتكز اللجنة في هذا البحث على تنقل القبائل لما له من أثر كبير في لهجات الأقاليم وتطورها واختلافها (مجلة المجمع جزء 7).

وهناك مترادفات يختلف ترتيب حروفها مثل جبذ وجذب (جبذ) وخربش وخرشب العمل أي لم يتقنه.

أما النحت فأمثلته كثيرة : ويلمه وهي منحوتة من أصلها (ويل لامه).

صبحه : أي قال له صباح الخير.

مساه : قال له مساء الخير.

تويل : قال يا ويلي.

فسقه : قال له يا فاسق.

ما شا الله - (ما شاء الله) - ما طيبو (ما أطيبه) - محلاه (ما أحلاه) إلخ.

ومن أمثلة الإتباع أو الإبدال بنفس المعنى :

العجر والبجر - حيص بيص - هين لين (سهل) - هش بش (مسرور) - الكوع والبوع (كعو وبعو) - الجوع والنوع - شيطان ليطان - حسن بسن إلخ.

وهناك مآت الكلمات تحكي الأصول أو الحركات وتتحد فيها اللهجات.

أما الصيغ فكثيرا ما تتخذ نفس الوزن في العامية والفصحى للتدليل على نفس المدركات كالمبالغة والتفضيل والبقية والسقاطة والتظاهر والتشبيه أو التشبه والوصف مثل كنز (مكنوز) وعلاج (دواء) ووقف (موقوف) وغصب (مغصوب). وتفاقر (أظهر الفقر) وتباكى وتجاهل وتماوت وتناعس وتشيطن وتفحل وتفرعن وتفرنج وتمدن وتوحش وبخل وجهل وسفه وضعف وفسق وغلط وكفر وأحمق (أي موصوف بالحمق) وأبله وأعمى.

ويجمع المذكر في اللسانين بإضافة تاء مربوطة إلى المفرد مثل : حمارة (أصحاب الحمير) وخيالة ورحالة وعمالة (أصحاب العمل) وتشترك الفصحى والعامية في الاشتقاق المنطقي من ألفاظ ذات معنى حسي مجرد كالحمام من حم الماء أي سخنه ومخدة من الخد والسماء من سما أي ارتفع.

وقد تعددت اللهجات في الجاهلية بتعدد القبائل الكبرى وخفت أوجه الاختلاف بما استوثق إذ ذاك من صلات في الأسواق الإقليمية والمبادلات التجارية والمصاهرات، وقد لعبت قريش بدور هام في انتقاء أجود اللغات، فنسقت واجتبت أفضل لغات العرب حتى صارت لغتها أفضل لغاتهم (لسان العرب) فنزل القرآن بها وازدادت مظاهر الوحدة تحت راية الإسلام بالرغم عن الفوارق القبلية البسيطة التي ساندتها أحرف القرآن السبعة وقد احتفظت السنة جهوية بميزات خاصة «من حيث التصريف والهيئة والإبدال وأوجه الإعراب والبناء» (متن اللغة ج 1 ص 47) فقريش مثلا تفتح نون المضارعة وأسد تكسرها والحجازيون يثبتون ما النافية وتميم تهملها أما الاختلاف في الأسماء فلا يكاد يظهر إلا في حمير التي ظلت محتفظة بكثير من مفرداتها (المدية الحميرية بدل السكين مثلا).

ويتجلى الاختلاف بين لهجات العرب في مظاهر مختلفة كالإظهار والإدغام والإشمام والتفخيم والترقيق والمد

القصر والإمالة والفتح والتسهيل والإبدال وهو اختلاف في
صور الظاهرة لمخارج الحروف مع وحدة اللفظ، وقد
رف العرب منها قديما العنعنة عند تميم وقيس (إبدال
همزة عينا) والكشكشة والكسكسة عند ربيعة (إبدال كاف
خطاب شينا) والغمغمة عند قضاعة (وهي إخفاء بعض
حروف) والفخفخة عند هذيل (إبدال الحاء عينا مثل حتى
عتى) واللخلخانية في عمان واليمن (وهي حذف همزة ما
ـاء الله) (مشا الله) والتلتلة في بهراء وهي كسر تاء
مضارعة (تلعب) والوتم عند أهل اليمن (قلب السين
متطرفة تاء كالنات في الناس).

وقد لاحظ الأستاذ فريد أبو حديد (مجلة مجمع اللغة
عربية ج 7 ص 205) أن حركة الكسر تكاد تكون شائعة
ي كثير من الدول العربية مثال ذلك كسر آخر الإسم
مضاف إلى ضمير المؤنثة المخاطبة فيقولون في الشرق
نت مالك (يقول المغاربة مالك بفتح اللام) هي لهجة لخم
لتي تكسر ما قبل كاف المخاطبة.

والوكم والوهم عند ربيعة وكلب (كسر كاف الخطاب
هاء الضمير (عليكم عنهم (والأ ستنطاء في لغة سعد بن بكر
هذيل والأزد وقيس والأنصار هي قلب العين الساكنة قبل
طاء نونا (انطى - أعطى) ومازالت مظاهر ذلك إلى الآن
ند الأعراب.

والمشترك نفسه يرجع لتعدد الألفاظ للمدلول الواحد
ين القبائل كما أن في اللغة الموحدة نفسها اختلافا في
لأبنية من لغتين إلى ثلاث عشرة لغة (عباءة - عباية إلخ).

وقد أرجعت أصول الكلمات الواردة في القرآن إلى
خمسين لهجة من لهجات القبائل علاوة على وجود كلمات
معربة.

وظهر الانحراف في الحركات الإعرابية منذ صدر
لإسلام فسار العوام في منهجهم المنحرف واستفحل هذا
لزيغ اللغوي باختلاط العرب بالاعاجم بعد الفتوح فهب
علماء اللغة لتقويم العامية وإرجاعها إلى أصالتها الفصحى
تجلى هذا المجهود في «أدب الكاتب» «لابن قتيبة «ودرة
غواص» للحريري فخف البون بين الفصحى والعامية إذا
روعيت شاعته في اللغات الراقية اليوم وبقيت العامية في
جميع مظاهرها لغة عربية محرفة الشكل غير مضبوطة
القواعد.

وتجلى هذا الانحراف كما سنرى في عامية الشمالين
الشرقي و الغربي للقارة الإفريقية أي مصر والمغرب.

وقد أشار الثعالبي في فقه اللغة (طبعة 1978 - 1959
- القاهرة ص 450) إلى أسماء فارسيتها منسية وعربيتها
محكية أوصلها إلى مائة وواحد وأربعين منها البياع والدلال
والبقال والجمال والطراز والخياط والند والبخور والغالية
والحناء والمضربة والقمري والربعة والخرج والدواة والمرفع
والفتيلة والمجمرة والمزارق والطبل والشكال والقلية
والهريسة والعصيدة. وقد دخلت كلها في عامية البلدين.

ثم ذكر (ص 453) أسماء تفردت بها الفرس فعربها
العرب أو تركوها منها :

الإبريق والكوز والطبق والقصعة والسندس والياقوت
والبلور والميذ والكعك والكنجبين والجلنجبين والفلفل
والكروياء والقرفة والزنجبيل والسوسن والياسمين والمسك
والعنبر والكافور والقرنفل.

وقد تأثرت العامية المغربية بالفارسية عن طريق
الدخيل في المعجم العربي لا بكيفية مباشرة كما هو الحال
في مصر لأن المغرب ظل في منحى عن التأثيرات
الفارسية.

ويختلف هذا التأثير في الأقطار الأخرى ولعل
الدخيل من الفارسية في لغة العراقيين يوازي الدخيل فيها
من التركية خلافا لما عليه الحال في مصر فإن معظم
الدخيل فيها في لغتها الشائعة من التركية ثم من اللغات
الإفرنجية (محمد رضى الشبيبي مجلة مجمع فؤاد الأول للغة
العربية ج 8 ص 131).

وديوان العراق لم ينقل من الفارسية إلى العربية إلا
في عهد الحجاج الذي أمر بذلك كاتبه صالحا بن عبد
الرحمن الذي كان يتقن اللغتين (تاريخ ابن خلدون -
المجلد الأول القسم الثاني ص 437).

وكذلك الأمر بالنسبة للغة التركية مثل باشا وبكرج
(إناء معدني) وخازوق وتخوزق (التخوزيق) وسنجق

وطـابـوروطـز (للاستهزاء والاستياء) وطـوبجي (مـدفعي) وصابونجي وجبدولي (صدرية) وجـامكيـة (مرتب عـسكري في عبد الموحدين) وخواجي (تاجر) وبابوشة (بابوج) وبازار وباشادور وبرنامج إلخ.

ومن الكلمات العربية المقتبسة من اليونانية على ما يقال :

يـاقوت، وملوخية، ومصطكى، ولـوبيـاء، ولجنـة، وكرويـاء، وكرنب، وكـافـور، وقيطـون، وقيراط، وقيثـارة، وقنطرة، وقنب، وقمقم، وقلم، وقصـدير، وقرنفـل، وقرميـد، وقانون، وقالب، وقـارب، وقـادوس، وفنـدق، وفنـار، وفلس، وفص، وفخ، وطـاجن، ورطـل، ودلفين، ودرهم، وتـؤلـول، وبلغم، وبجمـاط، وبطـاقـة، وبـارود، واوقيـة، واقليم، والألماس، والرز.

أمـا اللاتينيـة فقـد استمـدت منهـا اللهجتـان الفصحى العامية ألفاظا يقال إن منها اسطبل، وبوق، ودينار، وسجل، وصراط، وصـاقـور، وطرطـور، وقرصـان، وفرن، وقفـة، وقلنـسوة، وقميص، وقنـديـل، وقنطـار، وكـوفيـة، ومـد (مكيال)، ومنديل، وميل إلخ.

وبينما كـان التـأثير الإسباني في اللهجة المصريـة منعدما إذا به يتخذ طابعا عميقا بالنسبة للعاميـة المغربيـة نظراً للتبـادل الموصول بين الأندلس والمغرب خلال الحكم الإسلامي أي طوال ثمانية قرون ثم ثلاثمائة عام بعـد ذلـك احتل البرتغـاليون والإسبـان في غضونهـا مراكـز هـامـة في شواطئ البحر الأبيض المتـوسـط والمحيـط الأطلنطيقي من المغرب.

وقـد ذكر برونـو Brunot (هـسبريس 1949 ـ العـددان الثالث والرابع) أن اللغة الرومانية اللاتينية أمدت العامية عن طريق الفصحى بألفـاظ مثل مـد وقصر أو مبـاشرة بكلمـات مثل الطابية وكرزية وكركور وذكر أن لفظ قنديل (Candi) مقتبس من اللفظ العربي quindid وأن الكفتـة مـأخوذة من التركية.

ولاحظ في مقدمة مـذكراتـه حول المفردات البحريـة بالرباط وسـلا أن وفرة الألفاظ الإسبانيـة الـدخيلـة في هـذه المفردات تدعو إلى نسبة بعض الكلمات إلى أصل يونـاني لاتيني وهذا الغلط هو الذي وقع فيـه سيموني Simonet في معجمـه Glosario حيث ذكر مثلا أن الشـابل alose مستمـد من اللفـظ اللاتيني sapidus وقـد أعطى (برونـو) صـورة عن مروح التأثيرات الأجنبية في العامية البحرية بالربـاط وسلا فذكر أنه بالإضافـة إلى 455 لفـظ عربي يوجـد 217 كلمـة إسبـانيـة و30 لاتينيـة يـونـانيـة و6 فرنسيـة وإيطـاليـة و6 إنجليزية وكلمة واحدة برتغالية وعشر كلمـات بربريـة عشر تركية وإحدى عشرة كلمة مشكوك في مصدرهـا وذلـك من مجموع يبلغ 753 لفظـة ويلاحـظ هنـا قـوة تـأثير العربيـة الفصحى بـالنسبـــة إلى مـوانـئ أخرى في المغرب مثـل مستغـانـم بـالجـزائر ففي الربـاط مثـلا تسمى chaloupe بالعشارية وفي مستغانم ببوطة من bota الإسبانية.

على أن البرتغالية قد تأثرت بـاللهجة المغربيـة حيث كان البرتغاليون يراسلون بـالعجميـة التي كـانت عبـارة عن برتغالية مملوءة بالألفاظ المغربية وكانوا يكتبونها بـالحروف العربيـة (تـاريخ المغرب كـواسـاك Coissac de Chavrebière ص 273).

ولعل أول نواة حضارية عربيـة تلقاهـا المغرب بعـد الفتح الإسلامي قد جاءتـه عن طريق القيروان التي بـدأت تنصهر فيهـا الحضارة الأموية بعـد مرور ثلاثـة أربـاع قرن على الهجرة فأقيمت المساجد والـدواوين والمصـالح والـدور الصناعية على غرار ما عرفته مصر والشام.

فـأول مـسجـد على النـسق المعمـاري الإسـلامي في المغرب هو ذلـك الـذي بناه سعيـد بن صـالح الحميري في نكور في نهايـة القرن الأول استمـد في تصميمـه من جـامع الإسكندرية التي ظلت مهبط الرواد المغـاربـة وعلى رأسهم الصوفي أحمد البدوي دفين طنطا وكـانت البـساطـة آنـذاك هي طابع الفن المعماري الذي لم يعرف بعد المقرنصات ولا التعاريج العربية).

والواقع أن انعدام الاقتباس من الطبيعة والإمعـان في دراسة الريـاضيـات ونزعة الإبداع حـدت مسلمي الأنـدلس والقيروان ومصر ثم المغرب إلى التـسطيرات الهنـــدسيـــة

الساذجة. مما يبرز تأثير الأندلس إحداث الموالي الصقالبة لقرية تحمل إسمهم فوق مدينة نكور (المسالك والممالك، للبكري مطبعة الجزائر 1911 ص 97). أو منح إسم القاهرة تيمنا وإجلالا لمركز في قلب الأطلس بقبيلة بني دويران.

ولعل الوحدة السياسية التي حققتها الدولة البربرية في المغرب الكبير قد تجلت خاصة في تجديد الاتصال بين الفن المغربي الأندلسي والفنين المصري والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس الخضراء وبذلك تعززت الوصلة بين جناحي العروبة واندرجت في المجتمع المغربي مصطلحات كانت عصارة الاحتكاك الموصول.

وقد كان للأندلس أثر على بعض مظاهر الحضارة المصرية نظرا لهجرة طائفة من الغرناطيين إلى بلاد الكنانة[1] ففي عام 1019 هـ هاجرت ألوف الأندلسيين إلى فاس وألوف إلى تلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الأعراب ونهبوا أموالهم في تلمسان وفاس وسلم أكثرهم في تونس وتطوان وسلا وفحة الجزائر ووصل جماعة إلى قسطنطينية العظمى ومصر والشام (نثر المثاني عن نفح الطيب ص 101).

ففي الحقل العمراني يلاحظ أن «قصر البديع» الذي استغرق بناؤه زهاء العشرين سنة (986 هـ - 1002) يبرز لنا مدى التطور الحاصل في الفكر الحضاري ولغته، فقد ظهرت معه فنون طريفة ومصطلحات فريدة كالرخام المجزع والزليج الملون والقباب الخمسينية كتبت في أبهائها الأشعار بمرمر أسود في أبيض تذكرنا بروائع الأندلس : فمن شعر أبي فارس عبد العزيز الفشتالي يصف فن هذه الروائع :

فإنها والتبر سال خلالها
وشي وفضة تربها كافور
وكأن أرض قراره ديباجة
قد زان حسن طرازها تشجير
وكأن موج البركتين أمامه
حركات سحب صافحته دبور
صفت بضفتها تماثيل فضة
ملك النفوس بحسنها تصوير

وقد كتب بجدران المصرية المطلقة على الرياض :

باكر لدي من السرور كؤوسا
وارض النديم أهلة وشموسا

(المصرية أي الغرفة الواقعة في طبقة عليا (العلية بالفصحى) ولعل لوجود طبقات في الأبنية منذ القديم بمصر أثرا في هذه التسمية).

ولا يخفى ما لتوازي الأصلين القبطي والبربري من أثر في تكييف كثير من أوجه الشبه بين العاميتين بالإضافة إلى تأثير مظاهر الأصالة العربية في فصحى المغرب وعاميتها عن طريق القوافل التجارية ومراكب الحجيج ورسل الفكر من كبار الرحالين منذ القرن الهجري الثاني لعظيم ما اكتسبوه على طول منازلهم بأرض الكنانة.

لقد كان لكثير من القبائل العربية التي دخلت المغرب لهجات محرفة عن لهجة قريش التي نزل بها القرآن ولكن تطورها اللغوي لم يخرج عن النطاق العادي في تبادل التأثير بين الفصيح والعامي، لأن المغرب ظل بعيدا عن التأثيرات الفارسية والرومية والتركية، وعاش في إطار مقفل طوال قرون تمكن خلالها من الحفاظ على كثير من معطياته اللغوية، فكان الخلاف أقل بين الفصيح والعامي، ويتجلى ذلك في المصطلحات المستعملة في كثير من مرافق الحياة، ولعل أبرز مظهر لعراقة المحتد العربي في قبيلة أو إقليم يتجلى في صفاء لسانها، وقد ارتكز ابن خلدون لتحقيق الأرومة على عنصرين هما : الموطن والعجمة (التاريخ ج 6 ص 96) وإن كان الموقع الجغرافي

---

1) وكذلك الأندلسيون الربطيون الذين ثاروا على الأمير الأموي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ووصل بعضهم على رأس المائتي هجرية إلى الإسكندرية. وكان فيهم علماء (نفح الطيب ج 1 ص 318).
تاريخ ابن خلدون ج 4 ص 1/275 مجلة السيراء ج 1 ص 44 ط 1963.

لا يمثل في نظرنا عاملا جوهريا لإمكانية الهجرة في فترات سالفة.

ومن الصعب أن نميز بعد التفاعل اللغوي الناتج عن ارتباط الأقاليم بين ما جد وما تلد في هذه اللهجة، غير أننا إذا قارنا بني المصطلحات المستعملة في هذه القبيلة والتي تتبع المستعرب الفرنسي لوبينياك عام 1916 الكثير منها في كتابه «نصوص عربية في زعير» (طبعة باريس 1952) لمسنا مدى الصفاء الملحوظ في الكثير من الكلمات التي درجت على ألسنة العامة من أهل (زعير) مما لا نجد له مثيلا إلا عند القبائل التي لا يتطرق الشك إلى عروبتها كالشاوية، وقد أشار كثير ممن درس أنساب الفصائل السلالية المغربية إلى أن القبائل الرحالة في سهول المغرب الغربية وأقاليم عبدة ودكالة والشاوية وشرقا بالحدود الجزائرية مازالت تحتفظ بعروبتها الأصيلة التي طبعتهامنذ الفتوح الأولى، وقد أثر ذلك في العنصر البربري حيث لوحظ أن عامية القبائلية بالجزائر تشتمل على نحو ثلث الألفاظ العربية (حضارة العرب - كوستاف لوبون - الطبعة الفرنسية ص 250)، ولا يخفى ما تتسم به لهجات الأندلس وإفريقيا الشمالية من صفاء رغم عدم تقيدها بالهندام الشكلي للفظ، ورغم الألفاظ البربرية التي تسربت إلى الأقاليم العربية نفسها على أن الكثير من الكلمات التي يزعم بعض اللغويين رطانتها يتضح أصلها العربي بعد التحليل فقد نشرت مثلا مجلة مجمع اللغة العربية (ج 8 ص 326 عام 1955) بحثا للأستاذ شارل كونتز خبير لجنة اللهجات حول أثر اللغة العربية في عربية المغرب أورد فيه نماذج من الصيغ والكلمات الدخيلة التي ترجع إلى أصل بربري، وقد وفق الأستاذ في طائفة من الكلمات ولكنه لم يتحر في مقارنة الأصل العربي المحتمل لطائفة أخرى مثل :

1 - أملوس (الوحل) الذي تمكن مقارنته باللفظ العربي (الملس) وخاصة الملص بمعنى الزلق إذ أعظم خاصية في الوحل أنه مدعاة للزلق.

2 - داليس (الخيزران) bambou تقارن بالدلس وهو نبت يورق آخر الصيف، ومعروف أن الخيزران لا يترعرع إلا في الحرارة وفيه عشرات الأنواع.

3 - المازوزي (الأخير من النتاج) ويظهر أنه مشتق من مزز الفصحى حيث يقال فعلته على مزز أي على مهل فالمازوزي يأتي متأخرا كأنه يتمهل في انبثاقه.

4 - قطوس (قط) : من مميزات العامية سواء في المغرب أو بعض الأقطار العربية كسوريا ولبنان تقل بعض الصيغ من فعل أو فعلل أو أفضل إلى فعلول مثل أحق وحمقوق أو حموق وبط (كالبطة في السمن) وبطبوط وخنفر أو مخنفر وخنفور فيمكن القول إذن بأن قط العربية أعطت قطوس العامية.

5 - أقراب وهو الخرج أو الجراب من القراب (لأن أداة التعريف بالبربرية هي الهمزة للمذكر والتاء المتصدرة أي في أول الكلمة والمتكعة أي في آخرها).

6 - ساط بمعنى نفخ ولعلها من ساط الفحم أي خلط بعضه ببعض ليتقد كله إذا كانت النار لم تمس سوى جانب دون آخر والبادية تستعمل الكثير من ذلك كالمسوط للتحريك والنفخ وقد ورد في المعجم الوسيط أن المسجر هو الخشبة التي تسوط بها الوقود في التنور.

7 - كفس بمعنى لطخ بسواد أو فضح أصلها كفس أي أعوج، والتكفاس بالعامية الاعوجاج إلخ...

وقد تحدث (كرد علي) عن «عجائب اللهجات» (مجلة مجمع اللغة العربية ج 7 ص 128 سنة 1953) فقال :

«لعل الدخيل كان نادرا في أرض الأندلس لأن الأمويين توخوا الوحدة في كل شيء»، إلى أن قال : «وكانت اللهجة الأندلسية من أجمل اللهجات نقلها أهلها بعد الجلاء إلى البلاد التي نزلوها : مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام، ولعلها كانت لقربها من الفصحى أشبه بلهجات اليمن والحجاز، والأندلس استعملت ألفاظا فصيحة ما استعملها العراق ومصر والشام».

ولاحظ فليش Fleisch في «المدخل لدراسة اللغات السامية» (ص 101) أن لهجة المثقفين العامية تقتبس من الفصحى اللغوية بكيفية خاصة ويعني بذلك أنها لا تتقيد كثيرا بالأوزان والصيغ.

وإذا أردنا أن نبلور مدى تأثير لهجة مصر في المغرب وجب أن ننظر بين عاميتي القاهرة والرباط إذ التوافق ملحوظ في اللهجة العامية بين القاهرة والرباط عدا خلاف بسيط في الشكل مثل بات وباح يبات ويبوح بكسر فاء المضارع في القاهرة وبتسكينه في الرباط وقد نشرت مجلة (مجمع اللغة العربية) (ج 7 ص 319) تسعا وخمسين كلمة بصدد دراستها للهجة القاهرية ولاحظنا من بينها خمسا وثلاثين لفظة مشتركة في المادة عدا الخلاف الشكلي المذكور. ومن بين أمثلة ذلك بخس يبخس بكسر الخاء في القاهرة وفتحها بالرباط، وبدا يبدي (ق) ويبدأ (ر) وبدر يبدر وبرق يبرق وبرم يبرم وبشر يبشر بضم عين الكلمة (ق) بدل فتحها (ر) وبطأ يبطئ بكسر الطاء (ق) وفتحها (ر) وبل (ق) عوض بلل (ر) يضاف إلى ذلك تباين خفيف في النطق (ترقيقا وتفخيما وإمالة إلخ) مع المؤثرات اللغوية الخاصة كالتركية على نسق التأثير السرياني والنبطي في الشام وهنا نورد مفردات تفاعلت خلال التاريخ في نطاق مؤثرات موحدة أو مختلفة :

- ء -

أبو جعران : كنية الجعل بوجعران.

أبو علي : الرجل اللطيف الكريم (مصر) وابا علال في المغرب كناية عن الفقر المدقع.

أتسرق أي أنسل خلسة من انسرق (المغرب) ويقال انسرأ في (مصر).

اعشاري أي عشري نسبة إلى عشرة (مصر والمغرب).

امتا أي متى (ويقال أيضا يمتى في المغرب وميته بالإمالة في الصعيد المصري).

انفضح بمعنى افتضح في مصر ويحتفظ المغرب باللفظ الفصيح وهو افتضح لأن المغرب لا يستعمل صيغة انفعل إلا لمعنى المطاوعة.

أور عينيه (مصر) قلعهما أو عورهما ويقال خور عينيه بالمغرب ولعل الكلمتين من قار يقور قورا بمعنى العور.

ايس لغة في يئس وهي مستعملة في البلدين.

ايش بمعنى أي شيء خفف منه نص عليه ابن السيد في شرح أدب الكاتب وصرحوا بأنه سمع من العرب (شفاء الغليل ص 15)، (ايش).

- ب -

باب الفتوح إحدى أبواب القاهرة وفاس.

بابوج : بابوش (كلمة فارسية) حذاء.

باس : قبل والبوس التقبيل (يقال بأنه فارسي معرب) (شفاء الغليل).

باسل : فلان باسل أو كلامه باسل أي ثقيل لا معنى له.

الباع : مقياس يمتد من طرف أصابع اليد إلى طرف أصابع الأخرى. وتقول العامة في مصر والمغرب «فلان باعه طويل» أي له قدرة ونفوذ.

بتاع : هذا الشيء بتاع فلان أي متاعه أو في ملكه (متاع المغرب).

بحلق بعينيه : أي حدق النظر وحملق.

برا : أي في الخارج، ومنه براني أي غريب وأجنبي.

البربر : لفظ يطلقه المصريون على سكان النوبة لبربرتهم أي كثرة كلامهم وجلبة لسانهم ويطلقه العرب في المغرب على سكانه الأصليين لنفس السبب.

برطم : تكلم بكلام غير مفهوم (بركم في المغرب).

برمكي : معناه في مصر فاقد الغيرة ذو أعمال جنسية شائنة أما في المغرب فمعناه الكريم نظرا لكون البرامكة كانوا في عهد الرشيد موصوفين بذلك.

بريمة : مثقب (لعلها مشتقة من الإيطالية Barrena.

البزبوز : القصبة أو القضيب المجوف ويطلقه المغاربة على أنبوب الصنبور.

بسبس : دعوة الهر إلى الطعام، يقال له بس بس بس (بفتح الباء في المغرب وكسرها بمصر).

البشماط : المرادف العربي للبشماط هو الكبنة أي الخبز اليابس (المخصص) البقسماط في مصر).

بشويش : (بفتح الباء في المغرب) أي بتؤدة وهدوء، يقال (تكلم بشويش).

البصارة : تصنع من الفول المطبوخ بماء وتوابل وبصل وسمن.

بصبص الكلب بذنبه حركه.

بطال : عاطل من العمل، تعطل الأجير فهو بطال.

بطنطة ؛ ضريبة التجارة.

البعبع : ما يخوف به الصبيان (بعو بالمغرب).

البعصوص : أي العظم الصغير الذي بين إليتي الإنسان ويستعمل عامة الغرب الكلمة الفصحى.

بعيد : يقال هو البعيد أي الأجنبي.

بغل : فلان بغل أي غبي، ومن العادات المشتركة بين مصر والمغرب أن البغلة إذا حملت وولدت فهذا دليل على انتهاء عمر الدنيا.

البقال : حسب القاموس - بمعنى بياع الأطعمة عامية والصحيح البدال وقد ورد في فقه اللغة أن البقال بمعنى بائع البقول معربة عن الفارسية (المغرب ومصر).

بكرج : وعاء القهوة ويسمى في المغرب بقرج ومقرج وهي كلة تركية معناها غلاية.

البلغة : حذاء من جلد أصفر «ويظهر أن أصله من فاس في المغرب لأنهم ينادون عليها البلغة الفاسية» (قاموس العادات إلخ.. أحمد أمين ص 95).

بندير : آلة للطرب كالدف ولعل أصلها إسباني (bondera).

بنديره : العلم وهي إيطالية (bandiera).

بهدله : أي احتقره واستخف به (لطائف المنن للشعراني ج 1 ص 175).

البوري : سمك ينسب إلى قرية بساحل مصر قرب دمياط وذلك حسب ياقوت (شفاء الغليل ص 46).

بوغاز : أي مضيق كلمة تركية عربيها الزقاق كغراب وهو مجاز البحر مثل ما بين طنجة والجزيرة الخضراء (المغرب ومصر).

بونية : عربيها جمع الكف (القاموس) وهي فرنسية الأصل (المغرب ومصر).

بياع : أي بائع مثل بياع الرؤوس (عربيها الرءاس) وبياع الزجاج (عربيها الزجاجي) (مصر والمغرب).

تأفف : أي قلق وغضب فكأنه يقول لمن يخاطبه أف بك.

- ت -

تبهر : أي عجب من أبهر أي جاء بالعجب وأصل انبهر تأثر بأشعة الشمس ووهجها وقد اقتبس العامة في مصر نفس المعنى من كلمة عربية أخرى هي وهر فيقولون أنوهر أي انبهر وعجب إذ الوهر توهج الشمس، ويستعمل المغاربة أيضا تفهر بالفاء.

التربيعة : مكان بالقاهرة تباع فيه البضاعات المغربية من بلغ وبطاطين (أحمد أمين - قاموس العادات ص 96)، وكذلك العنبر المحلول وعطر الورد والزهر (ص 115) والتربيعة (بالتصغير) بتقديم الياء تفيد في المغرب نفس المعنى.

ترزي الخياط وهو من الدرز أي الثوب بالفارسية وينودرز الخياطون ويقال الدراز بالمغرب وهي من الطراز أي صاحب الطراز.

تعبان : أي متعب ولم يعرف عند العرب على ما يظهر (مصر والمغرب)، عدا ألفاظ قلائل مثل غضبان.

تعنطز فلان : تكبر وتجنب الناس، ويسمى المغاربة العبيد وأولاد الإماء العناطيز لأنهم يعيشون عادة معزولين عن الناس.

تفرج على لعبة : تفكه بالنظر إليها.

تفرشح : جلس وفرج ما بين رجليه ويقال في المغرب تفرشخ بالخاء بدل الحاء المهملة بمعنى جلس مادا رجليه (ولها في المغرب معنى آخر يقال تفرشخ البطيخ بمعنى تكسر).

وتستعمل لفظتا فسخ وفشح في مصر بهذا المعنى.

تفنطز : كلمة يونانية معناها تريض phantasia وتوجد في العامية المغربية ولعلها اقتبست من الكلمة

الفرنسة fantasia لألعاب الفروسية التي كانت تسمى قبل بالتبوريدة (أي اللعب بالبارود).

تكابوا على الشيء : بمعنى ازدحموا عليه واشتهرت في مصر خاصة اتكبوا (بكسر الباء الأولى وتشديدها).

تكرع : تجشأ ويقال تبعج في الشام ولعلها من تجرع الماء إذا بلعه فالجشاء من لوازم تجرع الماء.

تمسخر ومسخرة : فلان يتمسخر بك (بيتمسخر في مصر أي يهزأ بك).

تندة : مقتبسة من tente الفرنسية بمعنى ظلة أو خباء وعربيها الزفن وهو حسب القاموس ظلة تتخذ فوق السطوح تقي من حر البحر ونداه.

تنهد : أي تنفس الصعداء وعربيها تنفس وزفر.

- ج -

جاب الشيء : جاء به.

جاحم : أي دفع نفسه وسط آخرين وقد لاحظ الدكتور أحمد عيسى في محكه أنها من الجحيم ويظهر أنها من زاحم مزاحمة بمعنى مدافعة الناس.

جرجر : أي جر وجذب ويقال إنها سريانية الأصل وقد اقتبسها المغاربة من العربية الفصحى لا من السريانية التي لم تؤثر في العامية المغربية نظرا لانعدام كل صلة بين المغاربة والسريانيين تاريخيا.

الجعيدي : الجعد من الرجال المجتمع المتداخل المدمج ويطلق في مصر على من قل ذوقه وكياسته، وفي المغرب على الضعيف البنية كأن أجزاء جسمه تندمج في بعضها.

جلبية : جلباب أو قميص (جلابية بالمغرب).

جليطة : بتسكين اللام في مصر وتشديدها في المغرب معناها الخلط وعدم الاتقان تقول فلان جليط عمله إذا لم يتقنه (جلط في المغرب ومنها الاتباع المغربي : خلط جلط).

جواني : براني.

الجوخ : نوع من النسيج والجوخة كلمة فارسية معناها الكساء من الصوف.

الجوق : فرقة تقوم بعمل واحد كالجوق الموسيقي ويقال، بأنها تركية الأصل.

- ح -

حاف : خبز حاف أي من غير ادام.

حب الرشاد : عربيها الحرف (المخصص)، ويستعمل عامة المغرب الكلمتين وخاصة الحرف.

الحجاب : الحرز اشتهر باستعماله المصريون ويعمله المغاربة للتحصن ويطلق عليه في كل من المغرب ومصر لفظ الحرز.

الحرقة : ما يجده الإنسان عندما يطعم شيئا محرقا أي حارا أو دسما يثير نوعا من التخمة في معدته.

الحريرة : دقيق يطبخ بلبن أو دسم (القاموس) (مصر والمغرب).

الحريف : الزبون وحريفك معاملك في حرفتك والزبون مولد (القاموس)، ويستعمل عامة مصر لفظة زبون المولدة وعامة المغرب كلمة حريف.

الحشيش : الكيف القديم، ولعل منه إسم الحشاشين أي القرامطة شرابي الحشيش.

حط : بمعنى وضع اشتهرت في عامية مصر والمغرب وتستعمل في الفصحى في مثل العبارة التالية : حط الله عنه الوزر أي وضعه عنه.

الحفا : عدم لبس شيء في الرجل.

حمص القهوة : قلاها على النار وهي عربية حسب الأزهري (حب محمص أي مقلو).

حوائج : ما يلزم الإنسان من ملابس وغيرها.

- خ -

الخازوق : الخشبة كانت تستعمل قديما لإعدام المجرمين وهي من الخزق أي الطعن بالرمح، وقد دخلت إلى مصر عن طريق التركية ولا ندري كيف تسربت إلى المغرب ؟ فهل تم ذلك في عهد السعديين بسبب تسرب العناصر التركية إلى المغرب أم عن طريق التجار المغاربة الذين استقر منهم عدة آلاف بمصر ولا سيا في عهد العلويين ؟.

خربشة : خدشة وخمشة.

خربق عمله : أفسده (تستبدل العامة في مصر بالقاف الألف فتقول خربا).

خرخش : أي صوت وتستعمل بالمغرب لصوت الآلة وفي مصر لأزيز الصدر.

خردة : قطع الحديد المستعمل وهي كلمة فارسية مقتبسة من الخرثي الفصحى على ما يظهر.

الخس : بقل عريض الورق يوكل نيئا (مصر والمغرب).

خلاه : خلاه في المحل أي تركه، يقال : خله في المحل أي أتركه حتى يعود إليه.

خمسة وخميسة : عبارة عن كف فيها خمسة أصابع يزعمون أنها تدفع العين (أحمد أمين ـ قاموس 195)، وقد عرفت في إفريقيا الشمالية منذ عهد القرطاجيين، وتوجد صوره لها في متحف باردو بتونس، ويقال في المغرب خمسة الخامس بدل خمسة وخميسة في مصر ويسميها الفرنسيون يد فاطمة.

الخنفسة : أي غير الجميلة وفي المثل المصري: «الخنفسة عند أمها عروسة» ويقابله المثل المغربي : «كل خنفوس عند مو غزال». (أي كل خنفسة لدى أمها غزالة).

الخوا : بكسر الخاء (وتسكينها بالمغرب أي الفراغ، يقال : «شربت على الخوا أي على الريق)، والخواء فراغ المعدة من الطعام.

خواجه : كانت تطلق في الأصل على الأعيان والتجار ثم أطلقت على الأجنبي بمصر ولكن المغرب احتفظ بمعناها الأصيل وهي لفظة فارسية معناها سيد، (مصر والمغرب والشام).

خوخ الفاكهة : فهي مخوخة أي فارغة القلب لا لب فيها.

الخوخة : تطلق غالبا على الباب الصغير في قلب الباب الكبير وعربيها حسب القاموس هو الخادعة وقد ورد «سدوا كل خوخة إلا خوخة أبي بكر».

ـ د ـ

الدادة : المربية، ودادا كلمة فارسية معناها خادم ومربية.

دحدح فلان : مشى على مهل أو تقارب خطوه مع سرعة، والدحداح في المغرب القصير وتلك هي صفة سير كل من قصر جسمه.

درابزين : الحاجز الحامي في السطح أو الدرج (دربوز بالمغرب).

دربكة: الطبل الصغير وهي فارسية عربيها الكوبة التي أشار إليها صاحب القاموس.

الدرفة : درفة الباب أي مصراعها وهو من الدفة بمعنى الجنب ويستعمل العامة في المغرب لفظة دفة بدل درفة في مصر.

درويش : فقير كلمة فارسية (البرهان الجامع) (مصر والمغرب).

الدشيش : دشيش الفول طحينه وهي من جش الحب إذا دقه ويقال الدشيشة في المغرب (الطحين المدقوق).

دغري : مشى الرجل دغري أي قدما لا يلوي على شيء ويقال بأنها من طغرو الفارسية بمعنى مستقيم أو طوغري التركية.

الدمغة : الطابع والتنبر ويقال أيضا التمغة بالمغرب وهي فارسية (من التمغ أو الطمغ).

دندن : غنى بصوت أو آلة موسيقية.

دهست السيارة الرجل : أي داسته ودعسته وتستعمل العامة بالمغرب معس بهذا المعنى مستبدلة الدال ميا.

الدوار : معروف في ريف مصر بمعنى مكان يضم عناصر اجتماعية كالأمير والمدير والمعلم و غيرهم فهي نواة حضرية وأصلها فارسي (دوارا) وهي بمعنى القرية بالمغرب.

ـ ر ـ

رأس مشعنن : أي منتفش الشعر أشعث.

الرزمة من الثياب : ما شد في ثوب واحد.

رغرغت عينه بالدمع : أي اغرورقت (غرغرت بالمغرب).

الرقاق : الخبز الرقيق واحدتها رقاقة (رقاقة بالمغرب).

الرقعة : عربية معناها البطاقة استعيرت لرقعة الشطرنج وهي دخيلة حسب (شفاء الغليل) ومن أدواتها المعروفة كذلك في عامية مصر والمغرب البيدق والرخ والفرز والفرس والشاه.

- ز -

الزريبة : المكان الذي تنام به البهائم وهي فصحى.

زعا : صاح من الزعق (زعق بالمغرب).

زعلوك : أي صعلوك وقد ورد زعلوك بضم الزاي بمعنى القصير المجتمع العضل ويطلق بالمغرب خاصة على شديد المراس وصعب الطبع، (مصر والمغرب).

زغرتت النساء في الأفراح : من الزغردة وهي هدير الفحل يخرج من حلقه فاستعير منه صوت النساء يتردد بين ألسنتهن وأصابعهن.

زفر : ريحه زفرة أي منتنة وهي رائحة بعض الأطعمة كاللحم والجبن وهو من الذفر أي شدة رائحة الطيب أو النتن.

زلأ : أي زلق (زلق بالمغرب).

الزلط : يقول المصريون فلان رأسه زلط فيه. في الجزائر : «فلان زلط من فار الجامع» وهو المدلول المغربي للزلط بمعنى الفقر.

الزمت : شدة الحر ووقوف الريح وهي من زمته إذا خنقه.

زنبيل : وعاء من خوص هو المعنى العربي الأصيل ويطلق في المغرب خاصة على وعاء من نحاس.

الزواق : النقش بالألوان وهو من الزاووق أي الزئبق ويسمى الزئبق بالمغرب الزواق.

- س -

السبوع : اليوم السابع من ولادة الطفل والسبوع لغة في الأسبوع.

السبيل : صهريج يخزن فيه الماء لشرب الناس في قارعة الطريق ولعله من السبل بحركتين أي المطر الهاطل والسبيل أي الطريق.

ستف : رتب وهي من صفه أو صفصفه فاصطف وهو مصطف (مستف).

سطل : بمعنى بقرج ولكن له عروة خاصة وهو ستل بالفارسية situla باللاتينية..

السقاء والسقا : موزع الماء على البيوت (مصر وهو المسمى القراب بالمغرب لحمله القربة على ظهره، والقربة هي السقاء (بكسر السين).

سك الباب : سدها ويقال في المغرب أيضا سكرها وهي سريانية وفي مصر ستكر بزيادة النون.

السميد : لون من الوان الدقيق وهو معرب عن الفارسية (فقه اللغة) واستعمله الحريري في مقاماته، ويقال السميد بالمغرب والسميط بمصر.

السوة : (بكسر السين في مصر وفتحها في المغرب) أسفل البطن وهي من السوأة بمعنى الفرج ولكنها أطلقت خاصة على الدبر.

سيأ الأرض : غسلها (سيق بالغرب) وهي من صيأ رأسه إذا غسله فلم ينقه (متن اللغة).

السيفون : مجرى خاص للماء أصله siphon (مصر والمغرب).

- ش -

شاف : أي تطاول ونظر.

شألب : أي سقلب بمعنى صرع وأصلها قلب وهي شائعة أيضا في الشام (شقلب بالمغرب).

الشايط : الطعام الذي يحترق على النار فيسوء طعمه وتفسد رائحته فيرمى، والشايط في المغرب هو كل ما يرمى.

الشربات : الماء يذاب فيه السكر مع ماء الورد للمناسبات المفرحة.

الشربة : الحساء الذي يقدم قبل الطعام ومقابلها التركي جوربا.

شرشر الماء : أي خر بمعنى اشتد سيله.

شرمط : مزق (اشرمط في مصر) وذكر الدكتور أحمد عيسى في «المحكم في أصول الكلمات العامية» أنه من أثر نمط السقاء إذا انفتح والإثر نماط اطمحرار السقاء إذا راتب ورغا

ففي ذلك معنى التمزق «ويظهر لي أن أصل شرمط شرم فهو أشرم إذا انشق وتمزق وتشرم أي تمزق واصل تشرمط تشرمت (تاء التأنيث)، وقد تكون من الشرط بمعنى الشق فتكون الميم زائدة.

شقافة : أي شظية الخزق والشقف الخزق المكسر (شقفة بتسكين القاف في المغرب).

الشكال : أي رباط العقال للفرس ولعلها فارسية دخيلة في الفصحى.

شكم الدابة : شد فمها بالشكيمة.

الشنطة : الوعاء من الجلد تحفظ فيه الملابس (ويطلق في المغرب على الحقيبة) وأصلها تركي على ما يظهر (جنته).

شوشة : شعر قمة الرأس ومعناها بالسريانية كبة القطن وتطلق في المغرب على أزرار الحرير السوداء المتدلية من الطربوش.

شوية : أعطني شوية أي شيئا يسيرا.

الشياط : رائحة الاحتراق.

الشيت : نوع من القماش (أصلها هندي).

الشين : علامة النفي في اللهجتين مثلا : فلان ماجاش أي لم يات (أصلها لم يات شئ).

وما كلتش : أي لم أكل شيئا وأخذتش حاجة أي هل أخذت شيئا (وأضيفت حاجة لزيادة البيان).

- ص -

صرصع : صاح بصوت عال وهي من صرصر وتستبدل العين حاء بالمغرب فيقال صرصح.

صنارة : حديدة الصيد.

صنايعي : نسبة إلى الجمع وهو صنائع (على خلاف القاعدة الغالبة) وجمعه صنايعية بمصر والمغرب.

صينية : طبق يجهز فيه الطعام ويطلق في المغرب على طبق من نحاس تصف فيه كؤوس الشراب وهو منصوب منذ العهد الجاهلي إلي الصين التي يستورد منها.

- ط -

طابور : صف العساكر (التابور تركية).

طاجن : وعاء للطبخ (كلمة يونانية).

الطار : محرف على إطار الأعجمية وعربته الدف وقد دخل في عامية مصر والمغرب وغيرهما (ويقول عامة المغرب طر).

طاقة : كوة.

طاقية : ما يلبس على الرأس ولعلها مشتقة من تقية أي وقاية الرأس من الحر والقر.

طبطب على الولد : ربته.

طربوش : قبعة تركية (سربوش بمعنى غطاء الرأس كلمة فارسية)، أشار إليها (ابن دحية) في تفسير حديث «يلبسون الشعر» أي السرابيش.

طز : كلمة يقولها الإنسان إذا شاهد شيئا رديئا أو قبيحا فتكون بمعنى السخرية (دز، بالفارسية وطنز بالتركية وقد عربت).

الطقس : حال الجو من حر أو برد.

طنجرة : وعاء للقلي أو الطبخ (تنجرة أو طنجرة تركيتان)، والطنجير بالمغرب معناه الطنجرة الكبرى.

- ع -

عافر الرجل : بذل جهده ليقوم بعمل (تعافر بالمغرب).

عبد اللاوي : نسبة إلى عبد الله ومنه البطيخ العبدلاوي.

عربية أو عربة : عاميتان مرادفها عجلة وأطلق على مركب في عجل تجره الخيل، والعربية هي الشائعة عند عامة مصر والمغرب.

عرقان : فصيحة بمعنى عرق (المصباح) يقال عرقان في مصر والمغرب.

العرقسوس : عرق نباتي حلو يمتص.

عيان : مريض ومدلوله الأصيل في الفصحى من الإعياء في الأمر والمشي لا في المرض (القاموس) (مصر والمغرب).

عيط : نادى، والعيطة في المغرب نوع من السماع يضرب فيه على الدفوف.

العينة : النموذج من السلع (العينة بتسكين الياء في المغرب).

- غ -

غامق : لون أسود غامض أي شديد السواد ومقابله فاتح إذا خف لونه.

غرقان في الدين : أي فيه بحيث لا يستطيع أداءه.

الغريبة : نوع من الكعك يصنع من دقيق وسمن وسكر ويكثر فيه السمن (أحمد أمين ص 299).

- ف -

فتافيت : ما تبقى من قطع الخبز على المائدة من فته إذا دقه (فتايت بالمغرب).

الفدان : وحدة المقاييس المصرية أو المرات وهو لفظ نبطي (شفاء الغليل)، ويطلق الفدان بالمغرب على الحقل الزراعي.

الفرت : (بكسر الفاء) الكرش واصله الفرث (وهو بفتح الفاء في المغرب).

فرتك : قطع ومزق مثل الذر.

فرجية : ما يلبسه العلماء فوق ملابسهم ويقال بأن أصلها يوناني وأن الأتراك اقتبسوها وتطلق في المغرب على لباس يجعل فوق الثياب للرجال والنساء وهو منفرج من الأمام لذلك لا يبعد أن يكون أصلها عربيا.

فرحان : فرح (القاموس) يقال فرحان بمصر والمغرب.

فرم : أي قطع وكسر وهي سريانية الأصل على ما يقال ولعلها دخلت إلى المغرب عن طريق الفصحى نظرا لانعدام التأثيرات السريانية في اللهجة المغربية وهي تطلق في المغرب على الكسر الجزئي كفرم الأسنان أو الكأس.

فش : أي فتح ويقال في المغرب فش الوطب أي أفرغه من الهواء وفي المثل فشه فش الوطب أي أزال نفخته وكبرياءه.

القشار : الكذاب المغالي في كلامه.

فقس الطائر البيضة : فضخها.

الفقي : (بالهمزة وكسر الفاء) الفقيه).

الفلقة : الآلة تمسك بها الأقدام في الكتاب لضرب الصبيان ويقال بأنها يونانية واقتبس منها الفرنسيون palanque.

فلوكة : سفينة صغيرة وهي من الفلك أي المركب.

فلصو : أي زيف وزائف درهم فلصو أي زائف وأصلها إسباني (falso) أو إنجليز (false) (مصر وشمال المغرب) ويمكن مقارنتها بكلمة فلس وإفلاس العربية.

فيلية : أسرة وعاميتها عائلة بمصر والمغرب وهي من اللفظ الفرنسي famille.

الفنطزية : نوع من اللعب بالبارود على صهوة الخيل وهي يونانية أخذ منها الغربيون fantazia.

- ق -

قارب : سفينة صغيرة وهي يونانية على ما قيل عربت.

القراع : مرض جلد الرأس وأصله القرع بحركتين أي بثر يخرج بالرأس (القرعة بتسكين الراء في المغرب).

قرنص من البرد : تقبض، ويقال في المغرب حنية مقرنصة أو مقربصة بالباء أي متقبضة النقش والترخيم stalactie.

القرينة : الجنية تكون من الشخص.

القصرية : الوعاء يتبول فيه وأصلها من اللاتينية gastrum ومعناها إناء مجوف وتطلق في المغرب على وعاء مجوف لعجن الخبز.

قطع اللبن أو لبن قاطع : بمعنى حامض (وانقطع الحليب في المغرب أو تقطع أي لم يصلح لأن يغلى أو يروب نظرا لعدم طراوته، ولعلها من قطع الخمرة بالماء مزجها (متن اللغة).

القفطان : من الملابس الخاصة بالرجال في مصر ويلبسها حتى النساء بالمغرب وأصلها قفتان التركية المقتبسة هي أيضا من خفتان الفارسية.

قفقف من البرد : ارتعش وهي فصيحة تستعمل في مصر والمغرب.

قلع ملابسه : أي خلعها وهي بحركتين في مصر إلا أنها مشددة اللام بالمغرب حيث تستعمل بمعنى الانتزاع كقلع الأسنان أو تقليع الحجارة من الأرض وهو معنى فصيح.

القهاوي : المقاهي.

قورمة : مأخوذة من قاورمة التركية وهي لحم يطبخ بالبصل (المغرب ومصر).

- ك -

كاكي : تقول كالت الدجاجة أي صوتت عند البيض وأصلها قاقت وتستعمل العامة بالمغرب هذا اللفظ فتقول : الدجاجة تقاقي.

كاني ماني : يقال بأنها تركية ومعناها كيت وكيت بمعنى الإكثار من الكلام عن طريق التلميح والكناية ويقول العامة في المغرب كيني ميني.

وأكد الدكتور أحمد أمين بأنها كلمتان قبطيتان فكاني معناها السمن والثانية العسل وهي في الأصل خلط السمن بالعسل ثم استعمل في خلط صحيح الكلام بفاسده ثم في الكلام غير المفهوم (قاموس العادات إلخ. ص 333).

كاوح أو أوح : في مصر من كافح أي قاتل وناضل وتستعمل في المغرب المكابرة وتروج عند عامة المغرب كلمة كافح الفصحى في نفس المعنى.

الكباب : قطع صغيرة من اللحم تشوى في السفافيد، ويظن أنه فارسي عربه المولدون (شفاء الغليل ص 174).

كح : سعل (كحكح بالمغرب وهي ترديد للمحاكاة أو على نسق جرجر بدل جر.

كرنفال : مسخرة أصلها فرنسي Carnaval (مصر والمغرب).

الكسكس : طعام معروف بالمغرب خاصة يكس أي يدق من القمح فهو مكسوس ومكسكس ويسمى الكسكس بالمغرب.

كش كش : بكسر الكاف زجر الكلب ونحوه وهو في المشرب بضم الكاف.

الكفتة : (بضم الكاف في مصر وفتحها بالمغرب) اللحم المهرم أي المقطع قطعا صغارا (ويقال في عامية مصر والشام القروم) ويقال بأن اللفظ فارسي دخل إلى التركية ومنها إلى بعض العاميات العربية كالمصرية والمغربية.

كفى القدر : أي قلبها (كفحها بالمغرب).

الكنجة : بمعنى الرباب معرب حسب «شفاء الغليل».

الكوارع : الكراع مستدق الساق عند البقر والغنم وجمعه أكراع وأكارع وتجمعه العامة بمصر والمغرب على كوارع.

كروجة : باع كورجة أي بلا وزن ولا عد وهي تركية معناها العمي ووجه الشبه ظاهر بين هذه الآفة والبيع الأعمى بدون تبصر.

الكيب : في مصر هو الحصير من الياف البردي وهي من اللفظة التركية كيب ومعناها غطاء وتستعملها العامة في المغرب (الباء والميم) بمعنى غطاء من خشب يجعل فوق الدكاكين على نسق الافريز والاستعمال المغربي أقرب إلى الأصل التركي.

الكوشة : موقد الحمام وعربيها الأتون، وتستعمل الكوشة عند عامة مصر والمغرب خاصة لاتون الآجر وهو بيت يطبخ فيه الآجر.

كومبانية : شركة (compagnie) (مصر والمغرب).

الكيف : بعض أنواع التبغ (يقال له في مصر حسن كيف).

- ل -

لبارح - البارحة : أي الليلة الماضية ويقال في مصر امبارح باستبدال أم من أل على لغة حمير لقوله عليه السلام «ليس من امبر امصيام في امسفر».

اللبخة : دواء كالمرهم يوضع حارا أو باردا فوق العضو الألم (اللبخة).

الألثغ : من في لسانه عسر في نطق بعض الحروف كإبدال الراء غينا بوجه خاص (وهو كثير بفاس)، وتقول العامة بمصر الدغ بإبدال الثاء دالا.

لهط الرجل في الأكل : أي ازدرد اللقم الكبرى بدون مضغ وتستعمل في المغرب خاصة للتعبير عن إظهار التلهف في الطعام ولفظة لهف جارية أيضا بهذا المعنى في البلدين.

ليلة الحنة : هي التي تسبق عادة الزواج والحمام والحناء فيها أهمية وليلة الدخلة الزفاف والبناء.

- م -

مبلم : (بكسر الميم في مصر وبتسكينها في المغرب) أي ساكت لا ينبس ببنت شفة.

المتختخ : أي المسترخى من كثرة الماء (بكسر الميم في مصر وبتسكينها في المغرب).

المترد : وعاء اللبن والثريد وأصله المثرد.

مخروع : ضعيف لا يقدر على العمل.

مخطوف : لون مخطوف أي أصفر.

مخوخ : فارغ اللب.

مدغمس : عين مدغمسة أي ضعيفة البصر يستعمل عامة المغرب خاصة مدعمس بالعين المهملة.

مزنجر : أي يعلوه الصدأ أو الزنجار.

مسوكر : جواب مسوجر أو مسوكر أي مؤمن عليه أو مضمون (assicurare).

المضربة : النجاد المخيطة بالقطن (المصباح) (ويقال مضربية في مصر).

المعجون : خليط لتخدير الأعصاب.

الملابطة : المصارعة (الملاكطة بالمغرب).

ملط في مصر وأملط في المغرب : أي أملط لا شعر على جسده.

الميت : بتقارب المثلان المصري والمغربي «الضرب في الميت الحرام» (مصر) «البكاء على الميت خسارة» (المغرب).

الميضة : المرحاض.

- ن -

نخشوش (بالنون في مصر) وتخشوش (بالتاء في المغرب) إذا دخل الماء في خيشومه فأثار قلقه واضطرابه.

نش الذباب : أي طرده.

نغز : أي حرض ونغزه بإبرة أي وخزه وفي الفصحى نخس.

نقر : (نكّر في المغرب) بالكاف المفخم أي أكثر من الكلام المؤلف. نكر عليه أي لمزه بالكلام المؤلم.

نته : تغنى للطفل لإغرائه بالنوم ويسمى غناء الأطفال بالتركية نيني والمهد بالفارسية نانون.

نونو : الطفل الحديث الولادة (مصر) وهو من الكلمة الفارسية نو ويقال في المغرب نينو، لكل جديد في لغة الأطفال.

نينة : معناها أم جدة وأصلها ننة الفارسية وقد اقتبسها الأتراك ثم العرب ويستعمل عامة المغرب ننانة (التي ترخم نه) وكثيرا ما يصف المغاربة الجدة ب : حنينة «فيقولون جدتي الحنينة ولا يبعد أن تكون نينة مرخمة عنها بحذف الحرف الأول على غير قياس تسهيلا.

- هـ -

هبهب الكلب : نبح.

هجالة : عزب ويقال عزباء «الأزهري» وتستعمل في الغرب خاصة بمعنى الأرملة.

هطل فلان (بتشديد الطاء في مصر وتخفيفها في المغرب) : استرخى.

الهمج : الطبقات الوضيعة من الناس وأصله البعوض في العربية ثم أطلق على كل رذيل من القوم.

هيه : ... زجرا للطفل إذا استعملت ياؤها ممدودة،
هاه : هي كلمة وعيد حتى للكبار بمعنى حذار حذار.

- و -

الوحش (بفتح الواو في المغرب وكسرها في مصر) : أي الرذيل من الناس.

ورديان : أي الحارس أصلها بالإيطالية (gardiano)، أو الفرنسية (gardien)، أو الإنجليزية (warden). وقد اشتق منها المصريون والمغاربة الوردية واستعمل عامة المغرب كلمة وردن للتدليل على عمل حراس الجمارك.

- ي -

يوغورت : اللبن الرائب في التركية وقد دخلت إلى المغرب أخيرا عن طريق الكلمة الفرنسية yagourt.

تلك نماذج تبرز مدى تفاعل اللهجة الدارجة في مصر والمغرب.

الرباط ـ عبد العزيز بنعبد الله



جانب يمثل رؤساء المجالس العلمية، وقد بدا الأستاذ الشيخ المكي الناصري في حديث ودي مع مستشار صاحب الجلالة السيد أحمد بنسودة.



أعشت عيوننا أضواء جائزة نوبل للآداب التي فاز بها الأديب العربي الكبير، نجيب محفوظ، وأزالت الغبن عن قلوب أدباء العالم العربي الذين طالما اشرأبوا إلى هذا الشرف الرفيع، وطال انتظارهم له حتى ظن البعض الظنون بلجنة نوبل، واتهموها بإهمال العبقرية العربية، وذهب بعضهم إلى اتهامها بأنها واقعة تحت سيطرة الصهيونية العالمية.

بهرتنا أضواؤها حتى شغلتنا عن الفائزين بها في الميادين الأخرى، وعن معرفة ما قدمه هؤلاء للبشرية من فتوحات علمية جديدة تستحق الإشادة والتنويه.

فمن هم هؤلاء الفائزون، ولماذا منحوا الجائزة السنية ؟

في الطب

خرجت لجنة نوبل، هذه المرة، عن تقاليدها بإعطائها الجائزة لثلاثة؛ إثنان منهم باحثان في مجال الصناعات الصيدلية التجارية. فكانت من نصيب السيدة (غيرْتْرُود إلْيون)، 70 سنة، و(جورج هيتشينغز)، 83 سنة، والإثنان يعملان مع مؤسسة (بوروز ويلكم)، بولاية (نورث كارولاينا)، أما الثالث فهو (سيرجيمس بلاك)، 64 سنة، الأستاذ بمدرسة الطب، وطب الأسنان بـ (كينغزكوليج) بلندن.

وقد نوه أحد أعضاء لجنة نوبل بالباحثين الأمريكيين (إليون) و (هيتشينغز) الفائزين بالجائزة عن عملها الرائد في العلاج بالعقاقير، قائلا : «إننا ما نزال نحصد ثمار ما كشفوه منذ أربعين سنة».

فقد عثر العالمان اللذان عملا جنبا إلى جنب، منذ سنة 1945، على أن جينات الخلايا السليمة تعالج المعلومات بطريقة غير التي تعالجها بها الخلايا السرطانية والبكتيريا والفيروسات المسببة للأمراض. وبمعالجة هذه الخلايا والميكروبات بأدوية تحد من عملية التكاثر، وضعوا خطة قادتهم إلى علاج جديد بالعقاقير لكثير من الأمراض بما فيها سرطان الدم والملاريا.

وفي سنـــــة 1957، ابتكرت (إليـون) و (هيتشينغـز) المستحضر المعروف بـ : «أزاتيوبرين : Azathioprine» الذي يمنع رفض الأعضاء المفسولة. وقـاد ذلـك إلى تطوير عقـار «أسيكلوڤير : Acyclovir» لعـلاج القـوبـاء «Herpes»، وهـو مرض جلـدي مستعص، و «Azt أزت» العقـار الـوحيـد الـذي وافقت عليه الحكومة الأمريكية لعلاج «الإيدز».

وبينما ركز العالمان الأمريكيان على خبـايـا الخلية الـداخليـة، ركز «بلاك» على «مرافئ الرُّسُوّ» التي تستعملها الرسل الكيماوية التي تتنقل بين الخلايـا. وفي سنـة 1964 طور عقار متقدمـا جـدا لمرض من أمراض القلب التي تمنع مفعول المنبهـات الطبيعيـة مثل «الادرينـالين» من الوصـول إلى بعض الأعصاب المستقبلة الخـاصـة التي تـدعى «بيتـا»، فتمنع بذلك القلب من النبض بسرعة ضارة، ويستعمل عقـار «بيتا الحاجز» الذي طوره «بلاك» بشكل واسع لعلاج أمراض القلب، وارتفاع ضغط الدم.

وقد علق «بلاك ضاحكا عند سماعه لخبر حصولـه على الجائزة : «ليت زجاجـة أقراصي من «بيتـا الحـاجزة» كـانت معي !».

في الكيمياء

توقعت طـواحين الشـائعـات العلميـة من سيقـع عليـه اختيار لجنة نوبل في الكيمياء لمـدة أسـابيع، لـذلـك، حين تلقى «روبيرت هيـوبر R. Huber»، مـديـر «معهـد مـاكـس بلانك للكيمياء البيلوجية» قرب ميونيخ، المكالمة التلفونيـة المبشرة من السـويـد كـان الحفل جـاهزا ! وقـد منحت لـه، ولزميليه الألمانيين الغربيين، «جوهان دايزنهوفر»، 45 سنـة، و«هـارتمـوت ميشيـل»، 40 سنـة، لكشفهمـا ذرة ذرّة، لبنـاء الجـزيء Molecule الـداخلي والأسـاسي لعمليـة التركيب الضوئي، وهي العمليـة التي يتحول بهـا الضـوء إلى الطـاقـة الكيماوية التي تعطي الوقود لحياة النبات والحيوان.

ففي الكيميـاء البيولوجيـة، غـالبـا مـا تتبـع الوظيفـة الشكل. وقد استطاع العلماء، باستعمالهم تقنية عاليـة لأشعة «س» في تحليل البنـاء الـذري للمكونـات الأسـاسيـة الأولى للحياة، أن يكشفوا الغموض عن أسرار مدهشة.

وقد فتح البحث الدؤوب الذي قام بـه العلمـاء الثلاثـة الطريق إلى أن يتم في يوم مـا إنتـاج خلايـا شمسية تقلـد تصميم جزئيات التركيب الضوئي الطبيعية.

في الفيزياء

حين علم «ليـون ليـدرمـان»، 66 سنـة، بخبر فـوزه بجـائزة نـوبـل للفيـزيـاء، علـق ضـاحكـا : «لقـد بلغت من الشيخوخة درجة أتذكر معها البحر الميت حين كان مريضـا فقط ؟».

و«ليدرمان» هو مدير «مختبر فيرمي الوطني للتصعيد الـذري» قرب شيكـاغو. وقـد كـان يتوقع أخبـارا حسنـة من «ستوكهولهم» هذه السنة، إذ قال : «هذا عام العجائز بالنسبـة لجائزة نوبل !» وكان على حق. وقد فاز «ليدرمان»، صحبـة زميليه بجامعة كولومبيـا، «ميلڤين شوارتز»، 55 سنـة، الـذي يترأس الآن مـؤسـستـه الخـاصـة لأعمـال الكـومبيـوتر بكاليفورنيا، و«جاك ستاينبرغر»، 67 سنة، بـاحث فيزيـائي بجنيف بسويسرا، فازوا بالجائزة عن مساهمتهم التي مهدت الطريق للفيزياء الجسيمـات، (وهي أدق من الـذرات). ففي سنـــة 1962 ابتكر الثـلاثـــة طريقـــة للحصـول على «النيـوترينـوس»، وهي النيـوترونـات الـدقيقـة، واستعمـالهـا لاكتشاف جسيمات أخرى في عالم ما تحت الـذرة، بمـا في ذلـك «نيوترينو المـوون» الـذي يعتقـد أنـه أحـد مـواد البنـاء الإثنى عشر للمادة.

وبعملية معقدة استطاع «ليدرمان»، في السـاعة الثـالثـة من صباح أحد الأيام أن يخترق الحجاب الضبـابي الكثيف، ويرى آثـار أقدام «مـوون» عـالي الطـاقـة. ولم يعثر العـالم الفيزيائي، آنئذ على أداة فعالة في استكشاف أسرار المادة التي يتكون منها الكون فحسب، ولكنه أضاف أيضا حيوانـا جديدا إلى مـا يسميـه العلمـاء «بحديقـة حيوان مـا تحت الذرة».

ورغم حماس «ليدرمان»، فقد استعظم فوزه بـالجـائزة، وقال : «هناك شيء رهيب يحيط بجائزة نوبل. فلها هـالتهـا الخاصة التي صنعها الفـائزون الأوائل بهـا، مثل «اينستـاين» و«انريكوفيرمي» الذي نكن له التقديرالعميق».

في الاقتصاد

حين غيرت فرنسا اتجاهها الاقتصادي في وسط الثمانينات، وأعادت الكثير من صناعاتها المؤممة إلى الخواص، ما كان أحد ليكون أسعد من «موريس آلي»، أبرز اقتصادي في فرنسا، فقد كان أثناء إعادة بناء البلد، بعد الحرب الثانية، حين أنفق اقتصاديو فرنسا، على اختلاف اتجاهاتهم، على التأمين، خالفهم «آلي» فيما ذهبوا إليه، وأصبح، رغم ذلك، صوتا معرضا مؤثرا في تشكيل سياسة فرنسا الصناعية، مناديا بأنه حتى الاحتكارات التي تسيرها الدولة يمكن أن تنجح حين تسعر سلعها، وتوزع موادها الخام وفقا لمقتضيات السوق.

ومن أجل نظرياته الكثيرة، والمعادلات الحسابية الكثيفة التي تدعها، فاز «موريس آلي Maurice Allais»، 77 سنة، بجائزة نوبل في الاقتصاد.

وقد صرح «أسر ليندبيك»، رئيس لجنة الجائزة، بأن «البحث في أعماله أخذ وقتا طويلا، نظرا لضخامتها وتعقيدها»، ويبلغ عدد صفحات كتابه «بحثا عن انضباط اقتصادي»، الذي درسته لجنة نوبل، 900 صفحة، ولم يترجم قط.

وقد حصل «موريس آلي»، وهو ابن صاحب دكان لبيع الألبان ومشتقاتها، في البداية، على إجازة في الهندسة، ولكنه تحول إلى الاقتصاد، بعد أن شاهد بعينيه مناظر الفقر المدقع بأمريكا، عقب انهيار «وول ستريت» ويحكى أنه كان في الولايات المتحدة سنة 1933، فرأى أنها أصبحت مقبرة للمصانع. وقال إنه أحس بالرغبة في أن يعرف لماذا حدث ذلك. فدخل «المدرسة الوطنية العليا للمناجم بباريس»، وخرج منها بدرجة عالية في الاقتصاد. والتحق بإدارة المعادن الفرنسية وقضى بها سبع سنوات.

وفي سنة 1944 أصبح أستاذا للاقتصاد بالمدرسة التي تخرج منها.

وقد ابتكر «آلي» كثيرا من النظريات حول العلاقات الاقتصادية بما في ذلك العلاقة بين معدلات الفائدة، والنمو والاستثمار. ولكن أعظم معادلاته تأثيرا، هي التي أبانت كيف يمكن للاحتكار أن يحدد الأثمان بالنسبة لمواد مثل الفحم والكهرباء، في مستوى يجعلها تعمل لصالح المجتمع.

ورغم أن «آلي» غير معروف خارج فرنسا، فإن أفكاره انتشرت عن طريق تلامذته. وكان يعتقد أنه لن يحصل على الجائزة. وقد قال «ذكرت مرات عديدة عبر السنوات الفارطة، ولكنني تخليت عن التفكير في أنني سأحصل عليها».

ويعتبر «آلي» الجائزة نقدا لاذعا لسياسية التقاعد الرسمية التي أجبرته على التخلي عن التدريس، منذ عقد كامل من الزمان، وهو في أتم عافية. فقال : «أنا سعيد بالفوز بالجائزة التي تبين سخف هذه القوانين !»

☆ ☆ ☆

وبعد، فإن الفوز بجائزة نوبل للآداب شيء جميل، إلا أنه فوز لا يعتمد إلا على الموهبة الأدبية، والمجهود الفردي، ولا يحتاج إلى بنية أكاديمية معقدة، ولا إلى تقاليد علمية عريقة، أو تراكم للبحوث والدراسات التي تحتاج إلى مختبرات وتخطيط وتمويل واع بالهدف المنشود.

وقد صرح نجيب محفوظ نفسه، بعد فوزه بالجائزة، بأن ما كتبه سينسى ويزول، وألا خلود إلا للعلم.

وحين يفوز عربي بالجائزة في أحد الميادين التي أسلفنا، نكون قد دخلنا نادي العصر الحديث من أوسع أبوابه.

الرباط : أحمد عبد السلام البقالي

ناظر الوقف

وتعامله مع حركة التعليم الإسلامي

للأستاذ محمد بنعبد الله

IV - الامتحانات والإجازات والشهادة الجامعية :

يجب أن نعرف أن هذا العصر الذي نتحدث عنه، في العهد الأول للإسلام، وقبل أن يتسلم ناظر الوقف شؤون التعليم وقضاياه، في مختلف العصور الإسلامية، وقبل أن تنشأ المدارس النظامية، والمعاهد العلمية، وتنظيم شؤون الوقف، في القرن الثاني للإشراف على التعليم، لم يعرف الإجازات، ولا الشهادات الجامعية، كما هو الشأن عليه اليوم، وإنما كانت هناك أسئلة تطرح، وأجوبة لها يمتحن بها الطالب، ليعرف مبلغه من العلم والتحصيل..

بيد أننا نجد اهتماما، من طرف الرسول ﷺ، والصحابة رضي الله عنهم، يَتَغَيَّا معرفة درجات المعرفة لمن أتم درسه أو تصدر للإقراء والتعليم، والإفتاء، والقضاء...

وقد ترجم البخاري، على اختبار النبي عليه السلام قوابل أصحابه، ومبلغهم من العلم والذكاء والفهم، في «كتاب العلم»[1] بقوله : «باب طرح العالم المسألة على أصحابه ليختبرهم ما عندهم من العلم، وذكر فيه قصة لغز المصطفى ﷺ في النخلة، وكان ابن عمر أصغر الحاضرين، قال : فوقع في نفسي أنها النخلة، ثم قال : حدثنا ما هي يارسول الله، قال : هي النخلة...

وفي الموطأ من رواية ابن القاسم، قال عبد الله : «حدثت بالذي وقع في نفسي من ذلك، عمر ابن الخطاب، فقال عمر : «إن تكن قلتها، أحب إليّ من حمر النعم»..

وفي ألغاز ابن فرحون،[2] قال العلماء : «وفي هذا الحديث، دليل على أنه ينبغي للعالم أن يميز أصحابه بألغاز المسائل العويصات عليهم، ليختبر أذهانهم. في كشف المعضلات، وإيضاح المشكلات، وهذا النوع سمته الفقهاء : «الألغاز»، وأهل الفرائض سموه «المُعَايَاة»، والنحاة، يسمونه «الأحاجي»، وقد ألف العلماء، في ذلك تصانيف عديدة...[3]

وقضية أبي هريرة مع مروان ابن الحكم معلومة، وذلك أنه أحضره يوماً، واستملاه، فأملى أحاديث كثيرة، والكاتب يكتب وراءه، بحيث لايراه، وبعد سنة أحضره، واستملاه تلك الأحاديث، فأملاها بلفظها لم يغير منها حرفاً...[4]

وقال مالك : «وما أفتيت حتى سألت ربيعة، ويحيى ابن سعيد. فأمراني، ولو نَهَيَاني، لانتهيت...[5]

وقد يأمر العالم تلميذه بالتحديث بمحضره، فقد روى البيهقي في المدخل بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال

1) صحيح البخاري ص : 1/15، ط : الخيرية بحوش عطا بجمالية مصر 1304 تقديم بباخانوف.

2) «درة الغواص في محاضرة الخواص».

3) التراتيب الإدارية ص : 2/232. انظر : علم الأحاجي والأغلوطات في «الوشي المرقوم» للقنوجي ص : 2/24. وللزمخشري تأليف لطيف في هذا الفن سماه الحاجات، وللشيخ علم الدين علي بن محمد السخاوي الدمشقي شرح هذا المتن الدقيق التزم فيه أن يعقب كل أحجية في الزمخشري بلغزين من نظمه...

4) «الفكر السامي» ص : 3/212.

5) نفس المصدر ص : 4/246.

لسعيد بن جبير : حدّث. قال : أحدث وأنت شاهد ؟ قال : أو ليس من نعم الله عليك أن تحدث وأنا شاهد ؟ فإن أخطأت علمتك...

وفي ترجمة سعيد من طبقات ابن سعد أن ابن عباس قال لسعيد : حدّث، قال : أحدث، وأنا هاهنا، قال : من نعمة الله عليك أن تحدث، وأنا شاهد، فإن أصبت، فذاك، وإن أخطأت علمتك...

ففي العصر الأول للإسلام، والذي تلاه لم تكن هناك درجات علمية، تمنحها مؤسسة تعليمية أو جهة حكومية لمن أتم دراسته، أو أراد أن يتصدر للتدريس، وإنما كان الامتحان امتحان الرأي المحيط به، من علماء ومتعلمين، فمن آنس من نفسه القدرة العلمية، والكفاية الثقافية على أن يجلس مجلس العلماء، جلس وتعرض لجدل العلماء ومناقشتهم...[6]

☆ ☆ ☆

لقد كان الطالب يسعى لطلب العلم ما أتيح له الفراغ والمال والموهبة، ويكتفي بالقليل من العلم والمعرفة، أو يجمع منه الكثير على حسب البيئة التي يعيش فيها وظروفها الخاصة، فإذا أراد أن يكون مدرساً، فإنه، أيضاً، يترك له أن يقرر وقتما يرى ذلك ممكناً، أنه أصبح ذا كفاية تؤهله لأن يتصدر للدرس، وتعليم الجمهور، ويحتل مجلس الشيوخ، غير أن مجلس الشيوخ هذا، لم يكن سهلا ميسوراً، ولهذا كان الطالب يتردد طويلاً قبل أن ينقل نفسه من مرحلة التعلم إلى مجلس العلم.. وكان مجلس العلم يُرهب بسبب الأسئلة والمناقشات الحادة، والمثاقفات التي يمطرها الطلاب على الأساتذة الذين نصبوا أنفسهم لهذه المهمة، وبخاصة أولئك الذين هم حديثو العهد بها، فإذا استطاع الأستاذ الجديد أن يثبت أمام النقاش الحاد، والأسئلة المحرجة التي كانت تصل، أحياناً، درجة التحدي... وإذا وفق في الإجابة عنها. وإقناع الذين تحلقوا حوله، فإنه حينئذ يستطيع أن يستمر في عمله، ويواصل التدريس، ويمتد نفسه فيه، ولا حرج عليه، بعد ذلك، أن تعترضه صعوبات فيزل، ويكبو، مادام قد اجتاز العاصفة الشديدة التي كانت تهُبُّ ضد أمانيه، وضد أمثاله من المدرسين.. أما إذا عجز عن إلقاء الدرس، فأبْلِس، فَمَا نَبَس، وأُرتِجَ عليه، وبات ذهنه صفحة بيضاء، ولم يقنع جلساءه عن أسئلتهم، فإن عليه أن يطويَ القِلاع، ويعود من حيث أتى ليصبح طالباً يتلقى العلم في مجالس الشيوخ، ومن أفواه الرجال ومن متابعه الثرة...

☆ ☆ ☆

فمراقبة العلم قديمة، والتاريخ يحفظ لنا شيئاً من مراقبة على التعليم في حوادث جزئية، وأول وقوعه في الإسلام، فيما يظهر، اعتناء الخليفة الثالث عثمان بحمل الناس على مصحف واحد... ويذكر عن الخليفة الرابع أنه كان يمر على حلق العلم في جامع الكوفة، فينهى من لم يره أهلاً عن التعلم في العلم، وأنه أقرّ الحسن البصري مع صغر سنه...

وقد روى أن أبا يوسف مرض مرضاً شديداً. فعاده أستاذه الإمام أبو حنيفة النعمان، وقال له : «لقد كنت أؤملك بعدي للمسلمين، فلمّا برئ أبو يوسف، أعجب بنفسه بسبب شهادة شيخه له، فعقد مجلساً للأمالي، فلما عرف أبو حنيفة ذلك، أدرك أن أبا يوسف تعجل، فأرسل أبو حنيفة له رجلاً يسأله عن خمس مسائل... وكان أبو يوسف يجيب الرجل في كل منها بالإيجاب مرة، وبالنفي أخرى، وكانت الإجابة خطأ على كلا الوجهين على نحو ماذكر في المسألة الأولى، فأدرك أبو يوسف تقصيره، وعاد إلى أبي حنيفة، فقال له : «تَزَبَّبْتَ قبل أن تتحصرم» من ظن أنه يستغني عن التعلم، فليبك على نفسه.[7]

فلم يكن يجلس للتدريس إلا من شهد له الشيوخ بالكفاية القادرة المبصرة، وقد كان الأمر في عصر الإسلام الأول أن يسمح الشيخ للتلميذ بالانفصال عن حلقته. وإنشاء حلقة خاصة، أو أن يعهد برآسة الحلقة إليه بعد وفاته.. فإن

---

6) الإجازات العلمية عند المسلمين لعبد الله فياض ص 240.

7) محمد زاهد الكوثري ص : 87، ولقد كان أبو حنيفة مع هذا الموقف يشجع تلاميذه على الطلب، وقد كان أبو يوسف فقيراً، رث الحال في صباه، وكان أستاذه أبو حنيفة يُسَرِّي عنه وقت فقره، ويقول له : «لايجب أن تغتم، فإنه إن طال عمرك، فستأكل بالفقه اللوزينج بالفستق المقشور.

عل غير ذلك كان محل نقد، وتعرض للأسئلة الشديدة لمحرجة.

قال مالك : ليس كل من أحب أن يجلس في لمسجد للحديث والفتوى جلس، حتى يشاور فيه أهل لصلاح والفضل، وأهل الجهة من المسجد. فإن رأوه لذلك هلاً جلس، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من هل العلم أني لموضع ذلك.

وهكذا تثبت أهلية الطالب لأن يؤخذ عنه العلم لبثه بين الناس بالاشتهار بين أهل ذلك العلم بأن فلاناً ضابط عالم حافظ، والأصل في ذلك شهادة النبي عليه السلام لنفر من أصحابه بالتعيين، كقوله : «خذوا القرآن عن أربعة : عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبيّ ابن كعب، ومعاذ بن جبل..».

وقال أبو بكر الصديق لزيد بن ثابت حين عهد له بجمع القرآن، بعد مقتل جمع من القراء يوم اليمامة : «إنك رجل شاب عاقل، لانتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن، فاجمعه...

ويقول علماء أصول الفقه بجواز استفتاء من عُرف بالأهلية، واشتهر بالعلم والعدالة، والناس يستفتونه ويرجعون إليه، قال طاووس : «رأيت سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارأوا في أمر، صاروا إلى قول ابن عباس، وكان ابن عباس يسمى البحر، لكثرة علمه، وكان عمر بن الخطاب يقدمه على أترابه، ويقول لمن يسأله : «هو من عَلِمتُم..!».

وكان عليه السلام يشهد لأصحابه، إذا تصدوا للتعليم، بالكفاية والمقدرة والتصدي لبث العلم، وهذه شهادة النبي عليه السلام لجماعة من أصحابه بأعيانهم، كقوله : «أفرضكم زيد، وأقضاكم علي، وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل...

☆ ☆ ☆

وقد اعتاد الشيوخ المحدثون، منذ القرن الثالث، أن يعقدوا مجالس لاختبار أهل الحديث على ملأ من العلماء وعامة الناس، وبواسطة هذه المجالس يكتشف مقدار حفظهم للمتون، ومدى استحضارهم للأسانيد وعللها، وأشهر من عقد له مجلس من هذا النوع الإمام البخاري حين قدم على بغداد عاصمة العلم في عصره.. ثم ابن دِحية الكلبي المغربي في الشرق حين جمع له بنو أيوب علماء الحديث، وقدموا له أحاديث كثيرة حوّلوا متونها، فأعاد المتون المحولة، وعرف عن تغييرها، وذكر الأحاديث على ماهي عليه من متونها الأصلية؛[7 مكرر] ثم ابن عات الذي امتحن في بيت الطلبة بمراكش في كتاب مسلم وغيرهم من الذين برهنوا عن حفظهم واستحقاقهم عن جدارة، لقب الحافظ..

وهكذا لم تكن هناك درجات علمية يحرزها من أتم دراسته بعد امتحان، إنما كان الامتحان امتحان الرأي المحيط به من علماء ومتعلمين.. فمن أنس من نفسه القدرة على أن يجلس مجلس المعلم، جلس، وتعرض لجدال العلماء ومناقشتهم، وهو ماكان يكفي في حد ذاته لحماية طبقة العلماء من الجهلة والمتطفلين...

فنرى واصل بن عطاء يعتزل مجلس الحسن البصري لما خالفه في الرأي، وشعر في نفسه القدرة على أن يقرر مذهبه، فأنشأ له حلقة، وأبو يوسف حلقة، فسأل سائل عن مسائل فقهية، فلم يعرف جوابها، فعاد إلى حلقة أبي حنيفة كما قدمنا.

☆ ☆ ☆

لقد كان المسجد يضيق بمن يتصدّرون منابر التدريس، وهم لا يتوفرون على أدوات التعليم والتلقين، كما كان الرأي العام المحيط بما يجري في المناخ التعليمي داخل المسجد والمدرسة يخنق كل من صنف نفسه داخل إطار العلماء القديرين، المشهود لهم بالفلج والتفوق في رسالتهم العلمية...

(7 مكرر) أنظر نفح الطيب جزء 3 ص : 136 ـ 137 ـ 138 ففيه كلام كثير عن تزييف وزيادات في الأحاديث النبوية، من ابن دحية وقد علم الملك الكامل صحة ما قيل عنه، ونزلت مرتبته عنده، وعزله عن دار الحديث أخيرا، وولى أخاه أبا عمرو وعثمان.. وربك أعلم بحاله.

ولعل خير من يمثل هذا التيقظ والرقابة والملاحقة لمثل هؤلاء ما قاله أبو الحسن الفالي في أبيات أوردها ابن الأثير في «الكامل» في حوادث عام 448 التي توفي فيها الفالي.[8]

تصدر للتدريس كل مهوَّس
بليد، تسمّى بالفقيه المدرّس
فحقّ لأهل العلم أن يتمثلوا
ببيت قديم، شاع في كل مجلس :
لقد هَزلَتْ حتى بدا من هُزالها
كُلاَهَا، وحتى سامها كلُّ مفلس

☆ ☆ ☆

ثم كان المعيار الذي تقاس به معرفة الطالب هو تلك الشهادة أو الإجازة التي يمنحها الأُستاذ للطالب إذا ظهر نبوغه.. حتى أصبح منح الأُستاذ الشهادة للطالب عملاً قائماً بذاته، وشائعاً أيضاً وكان ذلك يسجل في الكتب التي يدرسها الطالب، وبخط الأُستاذ نفسه،[9] أو في مجرد ورقة منفصلة، أو على صفحة من جلد الرق المدبوغ الجميل.[10]

والإجازة أو الشهادة، في أصلها ضمان بعلم الطالب، وقدرته على نقل هذا العلم، ولقد بدأت، كما هو معروف، مع علم الحديث، وهو العلم الذي تشدد فيه المسلمون كثيراً بسبب ما ناله من دس وتحريف وتزييف، ولذلك وضعت له من القواعد الشديدة أكثر من غيره من العلوم للتأكد من صحة الحديث، ومن هنا كانت الإجازة للدلالة على صحة نقل الناقل من المنقول عنه، ثم انتقلت بعد ذلك إلى باقي العلوم الأُخرى..

ولقد أجاز الإمام مالك رضي الله عنه منح الشهادات، ووافق على إعطائها للمستحقين من طلاب العلم، دون أن يتركها للهوى، أو غيره من الميول الشخصية، أو يبيح الأمر على إطلاقه، فيتصرف كل واحد على مزاجه، وإنما انطلاقاً من اعتبارات محددة، وتوفر بعض الشروط التي تجعل لها قيمة، وتضفي عليها احتراماً.

ولعل أبرز تلك الشروط :

1 ـ أن يكون الطالب عاكفاً على طلب العلم، ومتسما بسمته، حتى لايضع العلم عند غير أهله.

2 ـ أن يكون العالم صحيح العقيدة، بين العلم.

3 ـ أن تكون النسخة المقروءة قد روجعت بدقة شديدة على نسخة الأُستاذ حتى تصبح صورة منها.[11]

وكان الطالب يحصل على إجازة أو إجازات تجيز له رواية الحديث أو تدريس كتاب، أو الإفتاء من شيخه الذي تلقى عليه العلم..[12]

ذكر القلقشندي : أما الإجازة بالفتيا، فقد جرت العادة على أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه في أن يدرس ويفتي ويكتب له بذلك.[13] وقد تكون الإجازة شفهية، فيأذن الشيخ لتلميذه أن يروي عنه الأحاديث، أو كتاباً في علم من العلوم، قال

---

8) منسوب إلى «فالة» : بلدة بخوزستان، كما ضبطه ابن خلكان، وياقوت في ترجمته في «معجم البلدان»، أقام بالبصرة مدة طويلة، ثم استوطن بغداد، وحدث بها، وتوفي فيها عام 448 هـ كان أديباً شاعراً، روى عنه الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد وغيره كما ذكر ابن خلكان... قال عبد الفتاح أبو غدة : وهو يحرف إلى «القالي» بالقاف ظناً أنه أبو علي القالي المشهور، وذاك «أبو علي» وهذا أبو الحسن، وأبو علي توفي قبله بنحو مائة عام في قرطبة عام 356.. وهذا توفي ببغداد عام 448 هـ.
وقد وقع فيه تحريف في اسمه في كتب كثيرة مثل : «الفلاكة والمفلوكون» للدلجي ص : ١١٤، و«المزهر» للسيوطي ص : ص : ١/15 بتحقيق ثلاثة من الأساتذة المحققين. و«تاج» العروس للزبيدي ص : ١/12 وكتاب : ظهر الإسلام ص : ١١٧ ـ ١/١١٨ للأستاذ أحمد أمين، فقد قال فيه : وهذا أبو علي القالي البغدادي، ضاقت به الحال قبل أن يرحل إلى الأندلس حتى اضطر إلى أن يبيع بعض كتبه، وهي أعز شيء عنده، فباع نسخة من كتاب «الجمهرة» وكان كلفا بها، فاشتراها الشريف المرتضى، فوجد عليها بخط أبي علي : أنستُ بها عشرين حولاً، وبعتها... فزاد أحمد أمين إلى هذا التعريف الذي وقع فيه وتقبله بقبول حسن : إن ذلك كان من ابن علي القالي قبل أن يرحل إلى الأندلس... وأن الشريف المرتضى اشترى النسخة منه، والشريف ولد عام 355، وأبو علي القالي توفي 356... فكيف يشتري هذا من هذا..؟

9) المعجم لابن الأبار ص : 16 ط : مدريد ـ الصلة لا بشكوال، الترجمة 645.

10) الضبي، البغية ـ الترجمة 1435.

11) «أصول الحديث علومه ومصطلحه» تأليف د. محمد عجاج الخطيب ص : 236./ الكفاية : 217،/ ومعرفة علوم الحديث ص : 259.

12) انظر نماذج لهذه الإجازات عند أسماء حسن فهمي ص 150، وصبح الأعشى للقلقشندي ص : 322 ـ 4/335.

13) صبح الأعشى : ص : 14/322.

سبكي : «أخبرنا أبو سعيد خليل... سماعا»،[14] وقال ابن صابوني سماعاً»، وقال الدميري إجازة.[15]

فالإجازة رخصة شخصية، ولا علاقة لها بمعهد عليمي، ويمنحها الشيخ عادة بعد أن يقنع بصلاح المستجيز رواية الحديث عنه، فالطالب للحديث يستجيز العالم علمه، أي يطلب عطاءه له على وجه يحصل به الإصلاح نفسه.[16]

والإجازة، في كلام العرب، كما قال أبو الحسن بن فارس، مأخوذة من جواز الماء الذي تسقاه الماشية والحرث، يقال : استجزته، فأجازني إذا أسقاك ماء لماشيتك وأرضك... كذا طالب العلم يستجيز العالِمَ فيجيزه، فعلى هذا يجوز أن يقال : أجزت فلاناً مسموعاتي، ومن جعل الإجازة إذناً، وهو المعروف، يقول : أجزت له رواية مسموعاتي..

واستحسن العلماء الإجازة من العالم لمن كان أهلاً للرواية، ومشتغلاً بالعلم، لا للجهال ونحوهم.. وقالوا : إنما تستحسن الإجازة إذا علم المجيز ما يجيز، وكان المُجاز من أهل العلم» لأنها توسع وترخيص يتأهل له أهل العلم لمسيس حاجتهم إليها.[17]

ولذلك قال عيسى بن مسكين : «الإجازة رأس مال كبير»، وقال ابن عبد البر : «الصحيح أنها لاتجوز إلا لماهر بالصناعة في معين لايشكل إسناده، وينبغي للمجيز كتابة أن يتلفظ بها، فإن اقتصر على الكتابة مع قصد الإجازة جازت..»[18] وقد ذكر السيوطي[19] في باب كيفية سماع الحديث وتحمله، وصفة ضبطه في القسم الخامس حيث ذكر من أقسام التحمل، الإجازة وأضربها.

ويشير الحافظ أبو الفضل مرتضى الزبيدي في إجازته لأهل قسنطينية بقوله : «ثبت عن أهل هذا الفن أن لايتصدى لاقراء كتب السنة والحديث قراءة دراية، أو تبرك ورواية إلا من أخذ أسانيد تلك الكتب عن أهلها ممن أتقن درايتها وروايتها، ورحل إلى البلدان، فظفر بعوالي المرويات، وباحث الأقران، فأحاط بمدارك الدراسات، وجلس في مجالس الإملاآت على الركب، وتردد إلى المشايخ بالخضوع والأدب، وهذا، الآن، أقل من قليل، فحسبنا الله ونعم الوكيل.[20]

وقال ابن رحمون : «في الدر والعقيان» كان من سنة علماء الحديث، طلب الإجازة[21] في القديم والحديث، حرصاً على بقاء الإسناد، ومحافظة على الشريعة الغراء إلى يوم التناد، وهي التي نسيت بمغربنا بهذه الأعصر، واكتفى أهله عن البسط بالحصر، وأهملوا السند والإجازة، وحسبوا أن العلم بمجرد التدريس والحيازة.

ومن الحق أن نوضح أن لفظ : سماع، هو اللفظ الإصطلاحي الذي يطلق على الشهادات التي وردت لها بعض النماذج، والتي تمنح بعد أن يتم الاتصال بين المدرس والطالب، فيسمع هذا من ذاك، ويمنح : سَمَاعاً، يبيح المدرس فيه للطالب أن يروي عنه ما رواه له.[22]

وكذلك من أنواع الامتحان ما يسمى بالمناولة، إذ أنها أرفع أنواع الإجازة لما فيه من التعيين والتشخيص.[23] وقد احتج البخاري على صحة المناولة، فكذلك العالم إذا ناول التلميذ كتاباً، جاز له أن يروي عنه ما فيه، قال السهيلي : وهو فقه صحيح.[24]

☆ ☆ ☆

---

14) طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي ص : 2/194.
15) نفس المصدر ص : 1/128.
16) انظر : عبد الله فياض، ص 214 ـ «التربية الإسلامية في ق : 4 هـ للدكتور حسن عبد العال.
17) الحكومة النبوية للكتاني ص : 2/43.
18) تدريب الراوي، في شرح تقريب النووي» ص : 2/43.
19) في المصدر السابق ص : 2/29.

20) التراتيب الإدارية ص : 1/52.
21) انظر الكلام على الإجازة : «نخبة الفكر، في مصطلحات أهل الأثر» ص 210. وانظر، أيضاً، «الباعث الحثيث، شرح علوم الحديث» للحافظ ابن كثير، تأليف أحمد محمد شاكر ص : 119.
22) «التربية الإسلامية» أحمد شلبي ص 250.
23) نخبة الفكر ص : 210.
24) «تدريب الراوي» ص : 2/44.

ولعل أقدم إجازة معروفة هي تلك التي أعطاها عام 313 هـ محمد بن محمد بن الأشعث إلى هرون بن موسى العكبري ليروي الثاني عن الأول في كتابه.[25]

وقد بذل العلامة البحاثة الحجة الشيخ محمد محسن الطهراني، ثم العسكري، ثم النجفي الشهير بـالشيخ «أغابزرك» أحد علماء النجف جهداً كبيراً في جمع وتسجيل وترتيب نصوص أكثر الشهادات التي صدرت من أو إلى مشاهير العلماء، فهو بهذا مرجع هام في هذا الفن...

وقد تيسر للدكتور أحمد شلبي أن يتصل بالشيخ العلامة «أغابزرك» أثناء زيارته للنجف حيث دارت في مجلسه أفانين من العلم والمعرفة، وقد سأله عن أقدم شهادة معروفة، فتفضل وأطلعه على مخطوط كتبه بيده، وهو الجزء الرابع من «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»، وفيه أن أقدم شهادة معروفة هي الصادرة عام 304 هـ، وقد منحها محمد بن عبد الله بن جعفر الحميري إلى أبي عامر سعيد بن عمر..[26]

كما تفضل الأستاذ عباس العزاوي المحامي ببغداد باطلاع الدكتور أحمد شلبي على مجموعة من المخطوطات من بينها : «**الوجازة، في صحة القول بأحكام الإجازة**» وهو مصدر هام فيما يختص بالشهادات الدراسية التي يمنحها المدرسون للتلاميذ...

بيد أن الدكتور أحمد شلبي سكت ولم يبين لنا مؤلف هذا الكتاب؛ ومر عليه مرور المومنين على الصراط، مع أن هذا الكتاب، كما هو معلوم، منسوب لأبي العباس العُمري، وليد بن بكر بن مخلد من أهل سرقسطة الذي له رحلة إلى المشرق لقي فيها ألف شيخ ومحدث وفقيه، وفي هذا الكتاب يحتج على مثل بعض الإجازات العلمية التي يرى أنها غير صادقة دائماً، وأن الزيف قد شابها،[27] فقد وجد كثير من العلماء لم يقبل الإجازة، ورآها ابتداعاً ليس له ما يبرره في التعليم، فكان عبد الرحمن بن عبد العزيز بن ثابت الأموي خطيب المسجد الجامع بشاطبة رجلاً فاضلاً، زاهداً ورعاً منقبضاً، شهر بالصلاح والخير، سمع منه جماعة رحلوا إليه، واعتمدوا عليه، ووصفوه بما ذكرنا من حاله، وذكروا أنه امتنع من الإجازة لهم..[28]

كما أن بعض العلماء لا يجيزون طالب الإجازة، وذلك لظروف سياسية وحربية، في سنة خمس وستين وخمسمائة، حاصرت الفرنج دمياط خمسين يوما، بحيث ضيقوا على أهلها، وقتلوا منهم، فأرسل نور الدين محمود الشهيد إليهم جيشا، عليهم صلاح الدين بن يوسف ابن أيوب، فأجلوهم عنها، وكان الملك نور الدين شديد الاهتمام بذلك، حتى إنه قرأ عليه بعض طلبة الحديث جزءا فيه حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه أن يبتسم ليتصل التسلسل، فامتنع من ذلك، وقال : إني لأستحيي من الله أن يراني مبتسما، والمسلمون تحاصرهم الفرنج بثغر دمياط.[28 مكرر]

☆ ☆ ☆

ومما يعتلج في الصدر، ويستوقد الضلوع، أن بعض الأساتذة كانوا يفسرون شرط الإجازة على الغرض والشهوة على طريقته، وتبعاً لشخصيته، فيتشدد أو يتساهل، وهكذا منحها بعضهم لمن حضروا درسه !! ويرى صنعه ذلك من باب الإعانة لطالب العلم، على قاعدة : لا خيل عندك تهديها ولا مال، ولم يقف بها عند هذا الحد، وإنما منحها، أيضاً، لآخرين لمجرد أنه يعرفهم إشارة،[29] وأصبح الصديق يمكن أن يحصل على إجازة لصديقه،[30] والوالد لابنه،[31] حتى لو كان هذا طفلاً لما يزل يعيش على صدر والدته.[32]

---

25) شلبي ص : 251.

26) التربية الإسلامية ص 249.

27) «نفح الطيب» ص : 2/380 ـ والضبي، الترجمة : 1410. ـ الصلة : الترجمة 1409. ـ ويروي عنه أبو ذر الهروي، وعبد الغني الحافظ وكفاه فخراً بهذين الإمامين العظيمين.

28) «الصلة» لابن بشكوال، الترجمة 743.

28 مكرر) حسن المحاضرة للسيوطي ص : 2/154.

29) الجذوة للضبي ص : 177.

30) التكملة، لابن الأبار ص 340.

31) ابن بشكوال : الصلة، الترجمة 1266.

32) التكملة، لابن الأبار ص : 381.

وهل أتاكم حديث أبي الفضل بن خيرون الذي كان من أساتذة بغداد، فقد أجاز في عام 486 هـ كلّ علمه لكل المسلمين...[33] وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

وأفاد غير واحد أن سبب رحلة الشيخ أبي حيان عن الأندلس أنه نشأ شر بينه وبين شيخه أحمد بن علي بن الطباع، فألف أبو حيان كتاباً سماه : **«الإلماع، في إفساد إجازة ابن الطباع»** فرفع ابن الطباع أمره للأمير محمد بن نصر، المدعو بالفقيه، وكان أبو حيان كثير الاعتراض عليه أيام قراءته عليه، فنشأ شر عن ذلك، وذكر أبو حيان أنه لم يُقم بفاس إلا ثلاثة أيام.

وهكذا فقدت الإجازة مضمونها الهام في كونها ضماناً لمعرفة الطالب لما نقله عن أستاذه، وأصبحت مجرد شهادة باللقاء أو السماع، دون أن تعنى إطلاقاً مدى تعمق حامل الشهادة أومعرفته لما حدد له في الشهادة حتى ظهرت، كما قلنا آنفاً، بعض الإجازات العامة، التي تبيح «لمن أحبّ الرواية عنّي من جميع المسلمين من أهل السنة، ممن هو موجود في هذه السنة» فإن محمد بن عبد الرحمن، المعروف بابن الوزان، صاحب الصلاة بجامع قرطبة، قد سأله أحد أصحابه : أن يجيز له جميع مايحمله بأي وجه حمل ذلك، وما ألفه أو وضعه، أو أجاب فيه في القديم والحديث، ولجميع أصحابه أهل المجلس وغيرهم من طلاب العلم، ولكل من أحب أن يحمل عنه من المسلمين ممن ضمه، وإياه حياة في ذلك العلم، فتبسم الشيخ، واستغرب هذا السؤال، ثم قال له منشرح الصدر طلق الوجه، ظاهر التبسم : «نعم ـ أنا قد أجزت لك ذلك كله، ولجميع من سألت، ممن أحب الحمل عني من جميع المسلمين حيث كانوا..».[35]

ولعل أكثر الأُمور غرابة في مجال الإجازة هو أن يقوم بعض الفقهاء أو العلماء، أثناء قيامهم بالرحلة، بالحصول على إجازات لأصدقائهم ومعارفهم وعائلاتهم من الأساتذة المشرقيين..[36]

☆ ☆ ☆

والأغلبية من العلماء تأخذ بمبدأ الإجازة والشهادة لتحديد مستوى الطالب، ومدى قدرته على التلقين والإدراك...

وللعلامة المؤرخ مولاي عبد الرحمن بن زيدان تأليف بعنوان : **«فيلق الإجهاز، على الطاعن في المجيز والمجاز»**[37] وقد قرظ هذا الكتاب النفيس العلامة محمد بن اليمني الناصري الرباطي في عام 1356 هـ بقصيدة ارتجالية فقال :

أسلك إلى الإسناد خير مَجاز
تصبح لدى الأعلام خير مُجاز

فدعائم الإسناد عند ذوي النهى
أضحت لعلم الدين خير جهاز

وإذا أراد أخو الجهالة نقضها
أجهز عليه **«بفيلق الإجهاز»**

صنع ابن زيدان النقيب المرتضى
فخر الرواة، ومظهر الإعجاز

33) التكملة، ص : 638.

34) «نفح الطيب» للمقري ص : 2/583.

35) ابن الأبار : المعجم ص 155، 156.

36) «تاريخ التعليم في الأندلس» دكتور محمد عبد الحميد عيسى، ص 416، تحتوي مكتبة الأسكوريال على أغرب نموذج في هذا المجال، في المخطوطة رقم 1919 مكرر، حزمة أوراق تحتوي على إجازات أساتذة من المشرق لمجموعة من الطلبة والفقهاء الأندلسيين والمغاربة، والجزء الأول منها قام بكتابته محمد بن رشيد الفهري في 14 رجب عام 684 هـ اكتوبر 1285م بفسطاط مصر، ويتضمن الإجازة لحوالي مائة طالب وفقيه علاوة على عائلة كاتب الإجازات، وأولهم أبو عبد الله بن المهيمن، وآخرهم رحمة، أخت ابن رشيد.. أنظر : «أزهار الرياض في أخبار عياض» ص، 354 ـ 2/355 ففيه إشارة من ابن رشيد إلى بعض الوضاعين في الحديث، وكذلك إجازته لست العرب بنت عبد المنعم الحضرمي.

37) مخطوط بالمكتبة الحسنية تحت رقم 12380، كما أن له مجموعة إجازات لمؤسس المكتبة الزيدانية تحت رقم : 12562 ـ وله أيضاً إجازة تحت رقم 122435.

[الحمد] لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه [illegible] فإن الفقيه الأديب العالم العامل الفاضل

[illegible] السيد العربي بن السيد محمد بن [illegible] وابن عمه العامل الخير الناسك العالم العلامة

محمد بن الغازي [illegible] حضر لدينا قراءة العلم الشريف بجامع القرويين بفاس وكمال

[illegible] في المجالس [illegible] التعليم العلمي واخذه عنه واجتهاد [illegible] على اوفر نصيب

[illegible] على الرجوع لبلدهما طلبا منا الاذن لهما في تدريس العلم ونشره ليكون لهما السعادة

[illegible] بأنهما ممن يتصدر لذلك ويستحقه [illegible] فأذنا لهما في تدريس المختصر والتحفة والألفية

[illegible] وغير ذلك من كتب الفقه والنحو والتوحيد وغير ذلك اذنا تاما وعليهما بتقوى الله

[illegible] والزهد [illegible] والانصاف والتواضع للمسلمين [illegible] وان [illegible]

[illegible] الله ينفع بهما [illegible] والحمد لله رب العالمين

[illegible] عام [illegible] الفقير إلى ربه تعالى المهدي بن محمد الوزاني

[illegible] عشر جمادى الاولى [illegible]

[illegible] العمراني لطف الله به

[الحمد] لله وبمثل ما أذن به الفقيه العلامة [illegible] الفقيهين [illegible]

[illegible] أذن لهما [illegible] من مولاه [illegible]

[illegible] محمد [illegible] الشريف [illegible]

[illegible] واغتنام [illegible]

[الحمد] لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه [illegible]

[illegible] الفقيهين المذكورين [illegible] مشهور [illegible]

[illegible] الله تعالى [illegible] لهما [illegible] الله [illegible]

[illegible] وفيه [illegible] العباس [illegible]

[الحمد] لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا [illegible] الفقيهين [illegible]

[illegible] اذن لهما [illegible] الفقهاء

[illegible] الله [illegible]

[illegible] جميع [illegible]

[illegible] محمد [illegible]

[illegible]

إجازة فريدة من العلامة شيخ الجماعة السيد المهدي بن محمد الوزاني الحسني العمراني إلى بعض الطلبة

من نـــاجـــز الخصم الجهـــول فبـــــذه
وجرى مـــزاعمـــــه بحـــــد جُزَازِ
لا زال معروفـــاً بيـــــذل معــــارفٍ
للطـــالبين بغـــايـــة الإنجـــاز

☆ ☆ ☆

ودونك أنموذجا لإجازة أجاز بها الشيخ الكتاني عبد الحي، الشيخ محمد حبيب الله الجكني الشنقيطي المكي وأولاده جميع ما تجوز لـه من روايته، وثبتت لـه درايته، من جميع العلوم، المنطوق منها والمفهوم، إجازة مطلقة عامة تامة يحدث بها عنه كيف شاء، وأنى شاء بشرطها المعتبر عن أهل الحديث والأثر متمثلاً بقول أبي جعفر الفاروقي :[38]

أجـــــــاز لهم عمر الشـــــــافعي
جميــع الــــــذي ســــأل المستجيـــز
ولم يشترط غير مــــــا في اسمـــــه
عليـــــه، وذلـــــك شرط وجيـــز[39]

☆ ☆ ☆

لقد كان يكفي للحصول على الاعتراف بدرجة عالم، في المغرب، أن يكون قد درس في جامعة القرويين، أو إحدى جامعات الشرق، وكانت العلاقات الشخصية، غالباً، هي التي تساعد الفرد على البلوغ إلى المركز الأسمى، ولم تكن القرويين، تعرف، إذ ذاك امتحاناً، وإنما كان يقوم مقامها إذن شيوخها الكبار لتلميذهم في التدريس، ثم تتوزع الشهرة والإقبال بقدر طول الباع..[40] وقد أذن، مثلاً للعلامة محمد الحجوي، بعض الشيوخ من أساتذته ومن غيرهم بإلقاء الدروس بجامعة القرويين، وقد أنشد، وهو يتسلم الإذن :

خلت الـــديـــــار من الرخـــاخ
ففرزنت فيهـــا البيـــادق... الـــخ...

☆ ☆ ☆

ولم يكن يجرى أي امتحان للطلبة، بل كان الشيوخ يعطون الإجازة لتلاميذهم المبرزين، وإلى جانب هذه الإجازة الخاصة كان ينتظم حفل إلى عهد السلطان مولاي عبد الرحمن يحضره الأساتذة والطلبة بالقرويين، فيلقي كل أستاذ على الطالب المنتهي أسئلة في مختلف العلوم، فإذا وفق في أجوبته عينه القاضي في الطبقة الرابعة من العلماء.

وكانت الأسئلة المختارة، على مزاج الأستاذ، وكذلك الفشل والنجاح، ولقد كانوا في القديم يسألون الطلبة أسئلة محرجة، تحكمية، تقرب إلى الاغلوطات والأحاجي، مع أن العلم ليس رموزا تحل، ولا كلمات تحفظ، ولا انقباضا وتكلفا، ولكنه نور العقل واعتداله، وصلاحيته لاستعمال الأشياء فيما يحتاج إليه منها، فهو استكمال النفس والتطهر من الغفلة، والتأهل للاستفادة والإفادة، وما كانت العلوم المتداولة بين الناس إلا خادمة لهذين الغرضين، وهما ارتقاء العقل لإدراك الحقائق، واقتدار صاحبه على إفادة غيره بما أدركه هو، فلا يطالب التليمذ بالجواب عن كنه كل سؤال يلقى عليه، ولا يطالب بمعرفة غرائب المسائل، أو حل الألغاز العلمية، قال عبد الله بن زكري : «ينبغي أن لا يبالغ في التعمية ليلا يوقعهم في الحيرة... وقد سأل المصطفى بعض الصحابة في الأجوبة التي أجاب عنها عبد الله بن عمر، وفي يده جمار، ففيه إشارة إلى وجه المخرج...

---

38) هناك عدة كتب للشيخ عبد الحي في الإجازات، فله : «مجموعة إجازات من شيوخه في مجلد ضخم» و«الإجازة، إلى معرفة أحكام الإجازة» و«الردع الوجيز، لمن أبى أن يجيزه»، و«مطية المجاز، إلى من لنا في الحجاز أجاز»، و«المنهج المنتخب المستحسن، فيما أسندناه لسعادة مولاي عبد الحفيظ بن السلطان مولاي الحسن» ألفه باسمه أيام خلافته عن أخيه السلطان مولاي عبد العزيز لما اجتمع به بمراكش عام 1321، وهو في نحو أربع كراريس، اشتمل على فوائد وأسانيد كثير من الفنون والمسلسلات والفهارس [2/36 فهرس الفهارس] K[فهرس ص 1/5].

39) الفهرس ص : 3 ـ 1/10.

40) الفكر السامي ص 4/205.

ومن فوائد الأستاذ المحقق العلامة الكبير أبي عبد الله محمد بن علي الفخار[41] التي حكاها عن الشاطبي، قوله : «حدثني أن بعض الشيوخ كان إذا أتي بإجازة يشهد فيها، سأل الطالب المجاز عن لفظ «إجازة».. ما وزنه ؟ وما تصريفه ؟.. ثم قال الشاطبي، ولما حدثنا بذلك سألناه عنها، فأملى علينا مانصه : «وزن إجازة في الأصل» «إفعالة» وأصلها إجوازة، فأُعِلّتْ بنقل حركة الواو إلى الجيم، حملاً على الفعل الماضي استثقالاً، فتحركت الواو في الأصل، وانفتح ما قبلها في اللفظ، فانقلبت ألفاً، فصارت إجازة - بألفين - فحذفت الألف الثانية عند سيبويه، لأنها زائدة، والزائد أولى بالحذف من الأصلي، وحذفت الأولى عند الأخفش، لأنها لاتدل على معنى، وهو المد، وقول سيبويه أولى، لأنه قد ثبت عوض إلقاء من المحذوف في نحو : «زنادقة»، والتاء زائدة، وتعويض الزائد من الزائد أولى من تعويض الزائد من الأصلي، للتناسب، ووزنها عند سيبويه «إفعلة»، وعن الأخفش : «إفالة»، لأن العين عنده محذوفة.[42]

هذا نموذج من بعض الأسئلة التي كان يختارها مزاج الممتحن، وتقديمها للطالب...

وفي حديث مع الدكتور هشام نشابة عميد المعهد العالي للدراسات الإسلامية، وعميد التربية والتعليم في «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية» ببيروت الذي أجراه معه سعيد طه، ونشر حواره،[43] حول نوعية الشهادة التي تقدم للخريجين على غرار الإجازات القديمة، فالشهادة الممنوحة للطالب تختلف على أية شهادة جامعية أخرى، لأنها شهادة شخصية أكثر منها شهادة مؤسسية، فعلى شهادة المعهد يشار إلى أن هذه الشهادة ممنوحة من قبل الدكاترة التالية أسماؤهم.... والذي درس الطالب على يديهم... وبالتالي فهم الذين أجازوه في الشهادات، وليس المعهد، فالمعهد شاهد فقط على الشهادة، فكثرة الشهادات، واتساع مجالات التخصص، وتعدد أماكنها، قد أفقد الشهادة الجامعية اليوم، بعضاً من قيمتها، والمعهد أراد أن يرفع من قيمة الشهادة بذكر أسماء الدكاترة الذين أشرفوا عليها..

☆ ☆ ☆

وهكذا، كان الشأن في المملكة المغربية، فلم يكن يجري أي امتحان للطلبة، بل كان الشيوخ يعطون الإجازة الخاصة لتلاميذهم المبرزين، وإلى جانب هذه الإجازة الخاصة، كان ينتظم حفل إلى عهد السلطان مولاي عبد الرحمن يحضره الأساتذة والطلبة بالقرويين، فيلقي كل أستاذ على الطالب المنتهي أسئلة في مختلف العلوم، فإذا وفق في أجوبته عينه القاضي في الطبقة الرابعة من العلماء.

وقد لاحظ المولى اسماعيل جهل الكثير من رجال القضاء، فأمر بحبس بعضهم، ممن امتحنوا، فتأكد جهلهم، وسجنهم في مشور فاس الجديد، حتى تعلموا ضروريات الأحكام، وعزل الكثير منهم، وقد أشار القادري في «الأزهار الندية» إلى هذا الحدث الذي حضره العلامة أكنسوس في قضاة البوادي.[44]

☆ ☆ ☆

لقد كان المدرس يملي دروسه على طلابه، فيستوعبونها، ثم يناقشونها، حتى تختمر في عقولهم، وتصبح ملكة لهم، فإذا لازم طالب حضور مجلس مدرس ما، وظهرت عليه مخايل النجابة وعلامات النضج، كان يحق له أن يتقدم إلى ذلك المدرس يطلب إجازة تجيز له التدريس، بعد أن يثبت مقدرته العلمية بتقديم بحث أو كتابة رسالة تشبه الأطروحة الجامعية في هذه الأيام.. ومن هذه الكتب التي وضعها نبغاء القرويين والأزهر والزيتونة، تكونت كتب الدراسة فيها واعتمد عليها.

في تركيا :

وقد تحدث أبو القاسم الزياني عن مراتب المدرسين في اسطنبول بتركيا فقال : «...ثم لا يكون أحد مدرساً

41) أنظر ترجمته في نفح الطيب، و«الكتيبة الكامنة» ص : 70 - و«بغية الوعاة» ص : 80 م (ت. 723 هـ).

42) نفح الطيب ص: 5/355.

43) مجلة «المقاصد» : 42 - س : 4 - اكتوبر 1985 - صفر 1406.

44) «الاستقصاء للناصري ص : 4/31.

حتى يلازم القراءة بهذه المراتب[45] كلها من أدناها إلى أعلاها، يقطعها في سبعة أعوام، فإن حصل على علم، وطلب الامتحان، ودخل لدار التمييز، واختبره «المميزون» من جملة من يختبرون، فإن كان أعلى، ويتوجه بها إلى شيخ الإسلام، فيسرح له التدريس في إحدى المدارس الصغرى، وفي كل سنة ينتقل لمدرسة فوقها، إلى تمام سبع مراتب، هي المنتهى، ومنها يسرح له شيخ الإسلام القضاء أو الكتابة، أو التنجيم..

وإن اختبروه، وكان وسطاً، يرجع للقراءة، وإن كان أدنى كذلك يرجع حتى يفتح عليه..

وكيفية اختبار المتعلمين يقول الزياني :[46]

«...وكيفية اختبارهم بدار التمييز أن يأتيها في أول يوم من السنة اثنا عشر رجلاً من الفقهاء يسمونهم المميزين ويدخل الطلبة الأول فالأول، إلى أن يجتمعوا، ويتقدم الأول فالأول، ويلقي عليه كل واحد من الفقهاء مسألة من المعقول لاغير، فمن أجاب جميعهم فهو المحصل، ويكتبون له في بطاقة فلان أعلى، ومن أجاب على الأكثر يكتب له فلان قريب الأعلى، ومن أجاب عن النصف يكتب له فلان وسط، ومن أجاب عن أقل من النصف يكتب له فلان أدنى، فالأعلى يسرح له التدريس، ومن دونه يرجع لملازمة القراءة إلى سنة قابلة، ويدخل الدار مرة أخرى، وهكذا إلى أن يحصل على المرغوب.

☆ ☆ ☆

في مصر :

وكان محمد المهدي العباسي الحنفي مفتي الديار المصرية وشيخ الأزهر أول من سن امتحان المدرسين، وسن قانونه، وكانت توليته لمشيخة الأزهر عام 1287 (تـ 1315 هـ).[47] ـ وفي «كنز الجوهر في تاريخ الأزهر» : أن الممتحن إذا أجاب في كل فنٍّ، كتب في الدرجة الأولى، وإذا أجاب في أكثر الفنون كتب من الدرجة الثانية، وإذا أجاب في الأقل كتب من الدرجة الثالثة»[48] والمراد بكل فن أحد عشر علما من العلوم المتداولة بالأزهر. وهي الحديث والفقه والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق... ويعين له من كل فن درس، ويعطى ميعاداً يطالع فيه لكل فن يوما، ثم يعقد له مجلس لسؤاله عن تلك الدروس المعينة له، كما تقدم له التنبيه عليه...

وقد نظم الإمام الشيخ أبو بكر بن يوسف السجتاني المراكشي[49] العلوم الشرعية[50] التي كانت تصل اثنا عشر علماً بقوله :

تفقـه. بتفسير. الحديث مورخاً
بـوقت. بيان الإرث أصل المحجة
ولا تغفلن نحواً بضن لغاته
تصوف فسر من علوم الشريعة
تنـل بـه مرقى من مراقي أفاضل
وتحظ بنيل المجد أبلغ منية

☆ ☆ ☆

وتوجد بالأزهر، قديماً، مراحل ثلاثة، وقد صدر قانون عام 1911، أسس بموجبه قسم التخصص، ثم أدرجت علوم حديثة في النظام، مثل تاريخ التشريع والنظام الدستوري، ومبادئ الاقتصاد ونظام التربية والأخلاق، وعلم النفس واللغات الأجنبية والشرقية، وتأسيس الفرق الرياضية.. وكانت الامتحانات تجرى على هذه المواد.

☆ ☆ ☆

وكانت العلوم التي تدرس في القرويين محدودة في دراسة كتب الفقه، أما العلوم الإنسانية وعلوم الحكمة فكانت غير متوفرة فالإمام أبو سالم العياشي يقص علينا عن الروداني أنه لما دخل مدينة فاس، ولقي بها أوحد زمانه في سلوك طريق الصدق، العديم النظير في معرفة أدب معاملة الحق والخلق، سيدي محمد بن عبد الله معن

45) انظر ترتيب العلماء بالأسطنبول، ومرتب كل واحد في الشهر الترجمانة الكبرى ص : 111.

46) المصدر السابق ص : 113.

47) محمد الحجوي، فكر. ص : 4/29.

48) الإعلام، العباس بن إبراهيم ص : 1/215.

49) انظر ترجمته في الإعلام ص : 1/215.

50) العلوم الشرعية : هي : التفسير ـ الحديث ـ الفقه ـ التوقيت ـ الفرائض أصول الفقه ـ أصول الدين التصوف، اللغة ـ النحو البيان، والتاريخ.

الأندلسي رضي الله عنه، وكان دخوله لفاس بقصد تعلم العلوم الرسمية لاسيما علم الحكمة من هيئة وتنجيم وحساب، ومنطق، وما شاكل ذلك، فقد كانت له اليد الطولى في ذلك، شديد البحث عمن يتقن بعضها، فلم يظهر في بلاد المغرب بمن يشفي غليله في ذلك. فلما دخل فاساً ولقي العارف بالله سيدي محمد بن عبد الله زجره أشد الزجر عن تعاطي هذه العلوم وغيرها من العلوم الرسمية، ومنعه من لقاء علماء الوقت. وألزمه الرجوع إلى والديه... إلى أن انتقل إلى البلاد المشرقية.[51]

☆ ☆ ☆

ولما جاء حسونة النووي مفتي الحنفية تمم أعمال المصلحين قبله في الأزهر، وزاد عليها، فسنّ قانوناً لأهل الأزهر، وأسس مجلساً لإدارتها، وكان جملة أعضائه الشيخ محمد عبده الذي كان أكبر عامل فيه، وسن قانوناً آخر لإدارته وانتظامه وكيفية التعليم فيه، ونظام المدرسين والمتعلمين وكيفية الامتحان وغير ذلك مما أدخل الأزهر في صف الكليات ذات النظام المعتبر، ورقّاها إلى أوج الفلاح، وأجرى بنفسه ذلك النظام، ورقى جرايات التدريس والمتعلمين، وأدخل علوماً عصرية للأزهر لم تكن تدرس فيها من قبل كالتاريخ والجغرافية وغيرها... وجعل ستمائة جنيه مكافآت الناجحين سنوياً، فتقدمت الأزهر والعلوم الإسلامية في أيامه تقدماً عظيماً بإعانة الشيخ الإمام محمد عبده، وإعانة الخديوي عباس حلمي باشا... وفي أيامه أنشئت الكتبخانة العمومية في الأزهر، وزيد في مرتبات العلماء، ومشايخ الأروقة من الأوقاف..[52]

وكان الشيخ محمد عبده في الحقيقة هو مدير الجامع الأزهر تحت رئاسة الشيخ حسونة حيث سعى في تخصيص ألفي جنيه للأزهر من الميزانية، وثلاثة آلاف من الأوقاف سنوياً، وبذلك تسنى للأزهر أن يصير لما هو عليه الآن.[53]

وقد رتب شيخ الإسلام سليم البشري الذي تولى رياسة الأزهر، سبعة من المدرسين بالجامع الزيني مدة مشيخته به حتى صار قطعة من الأزهر، وتولى مشيخة المالكية بعد عليش، ولما تولى مشيخة الأزهر أكثر من امتحان طالبي التدريس، فكان سبباً في كثرة المدرسين، وقد سار الأزهر في أيامه سير انتظام وتقدم، وأصبح جل مدرسي الرياضيات متخرجين من الأزهر.[54]

وجاء القرن التاسع وبدأت مصر تتحرك وتتجدد، وتدخل نظم التعليم الغربية إلى مدارسها وكان الأزهر بعيداً عن ذلك كله... وتعالت الدعوات لإصلاح الأزهر، وكانت أول هذه الأصوات صوت رفاعة الطهطاوي الذي أوفده محمد علي إماماً لأول بعثة أرسلها لتتعلم في باريس فعاد منها، وفي عقله خطوات للإصلاح في جميع مجالات الحياة في ضوء ما رآه في الخارج، وما يتلاءم مع الدين...

وألف رفاعة الطهطاوي كتاب (مناهج الألباب) تعرض فيه لتدريس العلوم الحديثة في الأزهر ولا سيما أن هذه العلوم التي يظهر الآن أنها أجنبية هي علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ولم تزل أصولها إلى الآن في خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة وان من يطلع على سند شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الدمنهوري الذي تولى مشيخة الأزهر في الفترة من 1182/1190 هـ = 1767/1776م يرى أنه قد أحاط من هذه العلوم الكثير وأنه له فيها المؤلفات الجمة وأن تلقيها حتى أيامه كان عند أهل الجامع الأزهر من الأمور المألوفة؛ يقول الدمنهوري في سنده بعد سرده ما تلقاه من العلوم الشرعية :

«أخذت عن أستاذنا الشيخ محمد الزعتري خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات، وبما يتوقف عليه كالفرائض والميقات، ووسيلة ابن الهائم ومعونته في الحساب، والمقنع لابن الهائم، ومنظومة الياسمين في الجبر والمقابلة ودقائق الحقائق في حساب الدرج والدقائق لسبط

51) «الرحلة العياشية ماء الموائد» ص 2/30. انظر عكس ما يقوله الروداني، في : «يوميات طالب بالقرويين في القرن التاسع هـ وهو الشيخ علي بن ميمون الغماري في هذا العدد بالذات، لأخينا الأستاذ عبد القادر العافية الذي نشرناه ضمن ملف الاحتفال ببدء الدروس الإسلامية بجامع القرويين، إذ يصور جامعة القرويين وهي تحفل بمختلف المواد العلمية عقلية ونقلية...

52) «الفكر السامي» ص : 4/30.

53) المصدر السابق ص 4/37.

54) الفكر السامي ص 4/145.

الـماردينى في علم الحساب ورسالتين إحداهما على المقنطرات، والأخرى على «ربع المجيب» للشيخ عبد الله المارديني جد السبط والمنحرفات للسبط المارديني في علم وضع المزاول، وبعض اللمعة في التقويم؛ وأخذت عن سيدي أحمد القرافي الحكيم بدار الشفاء بالقراءة عليه كتاب الموجز واللمعة العفيفة في أسباب الأمراض وعلاماتها. وبعضاً من قانون ابن سينا وبعضاً من كامل الصناعة وبعضاً من منظومة ابن سينا الكبرى، والجميع في الطب، وقرأت على أستاذنا الشيخ عبد الفتاح الدمياطي كتاب «لفظ الجواهر في معرفة الحدود والدوائر» للسبط المارديني في الهيئة السماوية ورسالة «قسطا بن لوقا» في العمل بالكرة وكيفية أخذ الوقت منها، وقرأت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومي أشكال التأسيس في العلوم الحديثة.

ومع ذلك، فإن إعادة بعض من هذه العلوم إلى الأزهر لم يكن أمراً سهلاً، بل كان نتيجة معارك استمرت عشرات السنين.

الشيخ محمد العباسي المهدي السابق الذكر، كان شيخاً للأزهر في زمن الخديوي اسماعيل.. عندما عين في الأزهر صدم في أن بعض الناس يتظاهرون بطلب العلم حتى يعفوا من الجيش، كان طلب العلم صكا للتمتع بالإعفاء وأيضاً وجد البعض ممن تزيد أعمارهم على الستين سنة بين طلاب الأزهر، بسبب الحصول على الجراية، سوف أتحدث عن الجراية بعد ذلك، فقد كنت أحصل منها على رغيفين كل يوم طيلة دراستي بالأزهر.

وأصدر الشيخ المهدي قانوناً كان حدثاً بالنسبة للأزهر جعل نيل الشهادة العالمية بامتحان أمام لجنة من العلماء يختارها شيخ الأزهر وحدد العلوم التي يمتحن فيها الطلاب، وقسم العلماء إلى ثلاث درجات، يمتاز أصحاب الدرجة الأولى بكسوة شريفة ينعم بها عليهم الباب العالي...

وسميت علوم الأزهر الإحدى عشر، فقد كانت احد عشر علماً، وبقيت هذه العلوم على حالها ربع قرن بعد ذلك...».

وكان في جامع الأزهر نحو ستة وعشرين كتَّاباً لتحفيظ القرآن الكريم، منتشرة حول صحن المسجد... الكتاب الواحد به بين (20 و 30) طالباً كل طالب يذهب إلى المعلم الذي يختاره وعليه أن يدفع الخميس...

والخميس هو ما كان يدفع للفقيه الذي يحفظ القرآن الكريم، كل يوم خميس فكان الطالب يدفع خمسة وعشرين مليما تقريباً... وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت، ولكن وظيفة تعليم القرآن الكريم كانت وظيفة سامية.

ويقول الشيخ حسنين مخلوف في مذكراته :

وأمضيت أربع سنوات أقطع كل يوم نفس الطريق، في الصباح الباكر بعد الشروق... وأعود منه بعد صلاة العصر، بعد هذه السنوات الأربع... صحبني الشيخ إلى والدي ليقول له :

ـ مبروك ياشيخ محمد.. ابنك حسنين أتم حفظ القرآن الكريم، وأقام والدي احتفالاً كبيراً بهذه المناسبة الهامة والسعيدة ـ وبهذه المناسبة الهامة والسعيدة بدأت مرحلة جديدة من حياتي.[55]

☆ ☆ ☆

وكان ـ أحمد أمين ـ فخوراً بأنه متخرج من مدرسة القضاء الشرعي التي أنشأها سعد زغلول عندما كان وزيراً للمعارف. وروى بأن الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية قدم في سنة 1899 تقريراً إلى «حقانية ناظري» ـ «سعادتلو أفندم جعفر تلري» ومعناها الآن «وزير العدل» تقريراً يقترح فيه إدخال مادة الحساب والتاريخ والجغرافية إلى المواد التي تدرس في الأزهر الشريف. وقامت قيامة بعض علماء الأزهر على هذا الكفر، وتمسكوا بأنه لايجوز إدخال هذه المواد التي لاتتفق مع وقار الأزهر الشريف. وعجز مفتي الديار المصرية على إدخال الحساب والتاريخ والجغرافية إلى الأزهر الشريف. ولما تولى سعد زغلول وزارة المعارف، فكر أن يحقق رغبة الشيخ محمد عبده بإنشاء مدرسة القضاء الشرعي لتدريس هذه المواد إلى جانب الفقه والشريعة. واحتج الأزهر وانضم الخديوي إلى العلماء المعارضين للمشروع وعرض المشروع على مجلس

55) مذكرات الشيخ حسنين مخلوف (الشرق الأوسط عدد 1408).

الوزراء برياسة الخديوي، وأوعز الخديوي إلى بعض أصدقائه من الوزراء بمعارضة المشروع، وإذا بسعد يتخذ هذه المسألة قضية يترافع فيها، وضرب بيده المائدة كما كان يضرب أمام القضاة وهو محام. وقال الخديوي : «لنأخذ الأصوات» وإذا بالأغلبية مع سعد، والأقلية مع الخديوي، وخضع الخديوي لأغلبية الوزراء ووافق على إنشاء مدرسة القضاء الشرعي، وهمس الخديوي في أذن مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء «يظهر أن نسيبك لم ينس المحاماة ونسي أنه وزير».

ولم يكن كل رجال الأزهر ضد إنشاء مدرسة القضاء الشرعي، فقد ذهب سعد إلى الشيخ حسونة النووي شيخ جامع الأزهر، وأقنعه بالفكرة فاقتنع بها وكان رجلا شجاعاً قوياً، وسمع بذلك العلماء والمعارضون فغضبوا وثاروا على شيخ الأزهر واتهموه بالكفر والإلحاد، ولم يهتز شيخ الأزهر لثورة العلماء الغاضبين. وأرسل الخديوي واستدعى شيخ الأزهر وحاول أن يقنعه فلم يقتنع وحاول أن يهدده فلم يتراجع وأخيراً صاح الخديوي : تذكر أنك موظف عندي..

وصاح فيه الشيخ النووي : أنا موظف عند الله، ولست موظفاً عندك.

وانتفض شيخ الأزهر ووقف واتجه إلى الباب دون أن يصافح الخديوي....

☆ ☆ ☆

في تونس :

وقد كان الحصول على رتبة التدريس في تونس في القديم منوطاً بالشهرة والعلم فبعد أن يؤذن للمحصل بالانتصاب للتدريس بإذن من شيوخه مدة حتى إذا اشتهر العالم وعرف أجريت له الجراية التي تعطى للعلماء في صدر الدولة الحسينية... ولما رتب أحمد باشا التعليم بجامع الزيتونة عام 1258 هـ، وعين ثلاثين مدرسا سماهم بنفسه. بواسطة انتخاب بعض من وثق به، وهو الشيخ ابراهيم الرياحي مفتي المالكية، والشيخ محمد بيرم الرابع مفتي الحنفية، والشيخ أحمد بن أبي الضياف وقال في ظهيره : «...وإذا نقص واحد من هؤلاء الثلاثين عالماً، فإن من متولي عوضه يكون باتفاق المشايخ الأربعة : يعني النظار، وهم رئيسا الفتوى، والقاضيان ينتخبون أعلم الموجودين في العصر، وإن تساوت رتبة الموجودين، فلا بد من امتحانهم المناظرة بمحضر المشايخ حتى يكون من تقدم إنما هو بنفسه...» فكان النظار يرجحون من يرون ترجيحه، وإذا أشكل عليهم الأمر، صاروا إلى المناظرة...[56]

ولما تألفت لجنة تتركب من أعلام العلماء بتونس للنظر في إصلاح التعليم، والبحث بالطريقة العملية عن الوسائل الموصلة لتوسيع نطاق المعارف بترتيب دروس ومحادثات في علوم التاريخ والجغرافية والهندسة والحساب ومبادئ الطبيعة والكيمياء وحفظ الصحة ويرأسها الوزير الأكبر السيد محمد العزيز بوعتور وعضوية محمد الجلولي، والشيوخ السادة محمد بيرم شيخ الإسلام، وأحمد الشريف مفتي المالكية. وعمر بن الشيخ، واسماعيل الصفايحي القاضي الحنفي، والطيب النيفر القاضي المالكي، ومصطفى رضوان، وسالم بوحاجب، وذلك في أول اجتماع لهذه اللجنة، ماي 1898، حيث ألقى الوزير كلمة في موضوع إصلاح التعليم، كما قدم مدير العلوم، جعلت، أساساً، لمداولات اللجنة، وقد اشتملت على اثني عشر فصلاً، وكلما كانت صالحة لسير التعليم... لكن هذه الإصلاحات الرامية إلى إصلاح التعليم، كُسيت كساء سوء الظن، وتلقاها شيوخ جامع الزيتونة بسوء الظن، وتخيلوا أنها شَرَكٌ نصب ليبطل به تعليم العلوم الإسلامية، وصمموا على معارضته بكل قواهم...[57] كما تلقاه الطلبة بسوء الفهم، فظنوا أن الإصلاح يكلفهم مزاولة العلوم والبرامج الجديدة من أولها... كما اتخذه بعض رجال الحكومة، إذ ذاك، لتنوير الفكر العام على مدير العلوم...

وقد لقي هذا الإصلاح التعليمي معارضة قوية من علماء الدين، فقد كتب الشيخ الطاهر جعفر تحت المطالب

56) «أليس الصبح بقريب» ص : 243.

57) لقد تألب أعيان أهل العلم المنتخبين في لجنة الإصلاح، بالقرويين على كل مكابرة محاسنه ومقاومته مقاومة سلبية بكلمات سيابة، أو بتحريك السبابة.

الاثني عشر : «تأملت في المرقوم أعلاه، وعلمت منطوقه وفحواه، ثم عرضته على قواعد الدين، فرأيت أن قواعد الدين تأباه...» كما تصدى الشيخ امحمد بيرم، والشيخ صالح الشريف، والشيخ الطاهر جعفر إلى مقاومة إجابة شيء من تلك المطالب... بل كان جواب الشيخ محمد بيرم عن كل مطلب يُعرض، وعن كل تفريع يعرض أن يرفع سبّابته مشيراً بالنفي... ولا يتكلم !! كما تصدى الشيخ صالح الشريف لتلك المطالب بالتزييف، وكتب تقريراً شاع ذكره..

وقد حكى الشيخ الأُستاذ محمد الطاهر ابن عاشور الذي كان طالباً إذ ذاك، حيث إنه حكى، وهو تلميذ على الشيخ صالح الشريف الذي تعرض يوما في أثناء بعض دروسه أو عقبه بالمشادة للطلبة بأن مطالب مدير العلوم رفضت، وقال هذه العبارة «الله يبقي شيخ الإسلام، الله يبقي كبار البلاد» ولقد كان هذا الشيخ فصيحا مفوها.[58]

وهكذا مر التعليم التونسي في مراحل واعية كانت تتسم بالحدة، وتوقد نار المناقشة منذ عهد بعيد، ومنذ آل الأمر إلى علي بن محمد بن علي الملقب بالباشا 1153 هـ الذي صرف همته إلى تنبيه شأن العلم، لأنه كان محباً لأهل العلم، وكان له حظ في المشاركة العلمية، فكان سمره بالليل مع العلماء، منهم الشيخ حمودة الريكلي قاضي تونس، والشيخ سعادة قاضيها، والشيخ محمد السحيمي البارع في المعقولات، ومحمد الورغي الشاعر، واعتنى بشأن الكتب، فجلب النساخين من الاستانة، وكتب له الورغي المشرقي الجميل كتباً شهيرة، أشهرها نسخة «القاموس» البديعة.

وأسس المدارس الشهيرة المعروفة «بالباشية» ولأوقافها اليوم، بإدارة الأوقاف، وكيل خاص وهي أربع مدارس عظيمة وجعل بكل منها خزانة كتب بديعة ومدرساً ووقف عليها خزائن الكتب.[59]

وفي ربيع الأول عام 1319 كتبت جريدة «الحاضرة» «فصولاً تنتقد بها سلوك النظارة العلمية في أحوال التعليم، والامتحان، منها ما في عدد 651 مقال عنوانه : «سفرٌ بصفر» كانت له رنة بين المتعلمين والعامة، وافترق الناس فيه بين قادح ومادح، بما دعا شيخ الإسلام محمد بن الخوجة إلى التذمر من ذلك في خطابه الذي خاطب به في ختم الامتحان الوزير الأكبر السيد محمد العزيز بوعتور.

وقد أقنعه الوزير بأن عُرف الجرائد أنها تخوض في سائر المواقع العامة.

ثم رجعت جريدة «الحاضرة» إلى الخوض في ذلك، فنشرت فصلا مسهباً[60] في انتقاد أحوال التعليم بالجامع الأعظم من سلسلة مقالات عنوانها : «التعليم العربي».

وفي عام 1320 صادف ورود الأُستاذ الشيخ محمد عبده إلى تونس، والأفكار قد نضجت من الخوض في هاته المسائل ومطالعتها، فاشرأبت الأعناق إلى سماع رأي زعيم النهضة المصرية، وما كان إلا أن سمعوا منه خطابه الذي ألقاه في قاعة الخلدونية، وحضره مآت من أهل العلم، فأنحى فيه على الحالة المتبعة عند التونسيين وعند المصريين بما كان سبباً لفتح ما بقي مغمضاً من عيون الغافلين، ولذلك أغضب عليه كافة الجامدين من أهل العلم، إلا أنهم مع ذلك اعترفوا بوجود خلل في التعليم بألسنتهم، وفيما قد كتبوه.

ومن أهم ذلك وأصرحه ما كتب الأُستاذ الشيخ محمد النجار المفتي المالكي في تعليقه على حديث كتابة العلم، في رمضان عام 1321، وقد طبع بالمطبعة التونسية؛ في مجموعة : «دروس رمضان» ومن ذلك الوقت كثر الخوض في نقائص التعليم ووجوب إصلاحه، واشتغلت بذلك الجرائد التونسية، فنشرت جريدة «الكوري» مقالاً باللغة الفرنسية في انتقاد أحوال التدريس، ردته عليها جريدة (الترقي) الفرنسية والعربية)).

---

58) «أليس الصبح بقريب» ص : 145.

59) أليس الصبح بقريب ص : 92.

60) في عددها 693، الصادر في 14 محرم 1220.

ثم نشرت جريدة «إظهار الحق»[61] مقالة تحت عنوان : «التدريس بالجامع الزيتوني» انتقد كل المدرسين وتقصيرهم في ترقية مدارك التلاميذ، وتطويل مدة قراءة الكتب، فأغضب بها الزيتونيين... وبسببها كتب له بعض أساتذتهم وهو الشيخ محمد النخلي مقالاً في جريدة «الزهرة»[62] تحت عنوان : «التدريس وأرزاق أهله».

وتصدت أيضاً جريدة «الحاضرة» لرد مقالة (الكوري) ومقالة جريدة «إظهار الحق»،[63] وردت جريدة «الصواب» أيضاً على جريدة «إظهار الحق» رداً شنيعاً.

وكان من التلاميذ تلميذ يدعى محمد بن عمران الماجري كان زعيم الاعتصاب سنة 1316 حين تأسس الاختيار العمومي، ثم دخل الامتحانات وأخفق فيها، فأسس جريدة دعاها (المزعج) ونشر فيها مقالات في الانتقاد على النظارة، والحط من المدرسين والنداء على فساد التعليم وجمود التلامذة عام 1324 هـ.

وفيما هم كذلك إذا جاءت الأخبار من مصر تؤذن بحدوث اعتصاب من تلامذة الأزهر المطالبة بالإصلاح سنة 1327 فاستطار بذلك التلاميذ بالجامع فرحاً، وأصبح ذلك حديثهم، فلم يبق منهم من لم يقتن عدداً من جريدة «الزهرة» التونسية أو من جرائد القاهرة التي تحمل هذه الأخبار، وكان ذلك أول شعور لهم بوجوب طلب الإصلاح...[64]

☆ ☆ ☆

وفي المغرب :

ولقد وقعت عدة إصلاحات وتحسينات في جامعة القرويين ومنذ تأسيسها، وفي مختلف العصور، لكن بمجرد اعتلاء المولى يوسف بن الحسن عرش الآباء والأجداد توجهت همة جلالته لإصلاح الحالة العلمية بالكلية القروية، والنظر في سد الخلل الذي كان تسرب إليها، والفحص بتدقيق في المراتب العلمية وتنقيحها، وإنزال كل من العلماء منزلته في المرتبة اللائقة به، وسحب الدخلاء الغير المستحقين من كل مرتبة...[65]

ولقد أصدر المولى يوسف أمره الكريم بإنشاء مجلس تحسيني لكلية القرويين ينظر فيما تتحسن به حالة التدريس والتعليم والامتحانات وبترقية جرايات المدرسين ذوي المراتب وأسند الرياسة فيه للعلامة محمد الحجوي نائب الصدر الأعظم في المعارف[66] فنظم المجلس من رئيس وهو السيد محمد الحجوي، وستة أعضاء وثلاثة خلفاء بأغلبية الأصوات وكانت الانتخابات على هذا التفصيل :

الطبقة الأولى : نال العلامة السيد أحمد بن الخياط النيابة عن الرئيس بأصوات مائة وعشرة، ونال السيد أحمد بن الجلالي العضوية بتسعين صوتاً، كما نالها السيد أحمد ابن المواز بواحد وثمانين صوتاً، ونال الشيخ عبد الحي الكتاني الخلافة عن الأعضاء بخمسين صوتاً.

الطبقة الثانية : السيد عبد الواحد الفاسي نال العضوية بخمسين صوتاً، ونالها السيد علال الهرابلي بواحد وأربعين صوتاً، ونال مولاي الشريف التكناوتي الخلافة عنهما بثمان وثلاثين صوتاً.

الطبقة الثالثة : السيد محمد بن عبد السلام ابن سودة نال العضوية باثنين وثلاثين صوتاً، ونال النيابة عنه في العضوية السيد محمد البدراوي بأحد وثلاثين صوتاً.

ويقول السيد وزير المعارف محمد الحجوي في هذا الصدد **بصفته** مسؤولا عن تأسيس هذا المجلس :

«فكان أمر القرويين أول ما أهمني قلباً وقالباً لأنها أمي وظئري، ومن ثديها العذب ارتضعت، وبها أميطت عني التمائم، وبعد مجهودات صدر أمر شريف سنة 1332 بإدخال نظام إليها تنهض به، لائق بمنزلتها من قلب الأمة المغربية بل الإفريقية، وأسند نظرها إلي فقدمت فاساً صحبة أحد أعضاء الكتابة العامة للدولة الحامية، وهو

---

61) في عددها الصادر 25 / شوال عام 1323 هـ وفي دجنبر 1905.

62) الصادرة في 27 ذي القعدة عام 1323 هـ 22 يناير 1906.

63) في عددها الصادر : 23 شوال 1323 موافق 19 دجنبر 1905.

64) «أليس الصبح بقريبه» ص : 253.

65) الدرر الفاخرة... ص : 127.

66) كان أول من وظف بها، إذ لم يكن لوزارة المعارف وجود في المغرب من عام 1330 هـ.

المستعرب الشهير الذائع الصيت لدى العلماء والعوام السيد مرسي المكلف بتعضيدي في درس المسألة وإيجاد أسباب حلها إدارياً».

ولما حللنا فاساً جمعت علماءها الأعلام كلهم وشرحت لهم الحال ورغبتهم في تشكيل لجنة لتحسين حال القرويين من بينهم بالانتخاب على نسق انتخاب المجلس البلدي بفاس إذ كان مرادنا الوقوف على أنظارهم وحاجاتهم وأن نبدي لهم، ما ظهر لي من إدخال نظام مفيد وإصلاحات مادية مع إصلاحات أدبية في أسلوب التعليم أيضاً وإحياء علوم اندثرت منها كلياً ونتبادل الآراء على عين المكان ونجعل قانوناً أساسياً للقرويين يكفل حياتها ورقيها ولا نبرم أمراً إلا بعد حصول موافقتهم بل استحسانهم فقبلوا ذلك بغاية الارتياح وشكلوا لجنة من أماثلهم بأغلبية الأصوات تحت اسم مجلس العلماء التحسيني للقرويين تركبت من رئيس وستة أعضاء وثلاثة خلفاء يوم 21 جمادى الثانية عام 1332.[67]

وكانت الجلسة الافتتاحية تحت رئاسة الخليفة السلطاني إذ ذاك سيدي محمد المهدي صنو جلالة السلطان المولى يوسف وشقيق سمو السلطان السابق مولاي عبد العزيز، وذلك على الساعة الرابعة وثلاثين دقيقة بعد الزوال، بقصر البطحاء في سادس عشر رجب.[68]

وهناك وقع الاحتفال بتسميتهم بمحضر الخليفة وأعيان المدينة[69]

يقول السيد وزير المعارف : «وبعدما وقع احتفال تسميتهم الرسمية بمحضر خليفة السلطان بقصر البطحاء وأعيان المدينة شرعنا في العمل معهم فكنا نجتمع يومياً فأطرح عليهم مسألة مما كنت أريد إدراجه من التنظيم والتحسين في القانون الأساسي للقرويين ثم التمس آراءهم وأسمع ملاحظاتهم، فيحرر كل واحد ما ظهر له، ويؤخر البت في المسألة إلى جلسة ثانية حتى يطلع المجلس على تلك التحريرات، ثم يقترع على الرأي المقبول، فيثبت في سجل التقريرات أصل المسألة وما أبداه كل واحد فيها ثم ما وقع عليه رأي الجميع أو الأغلب عليه، وفي الجلسة التي بعدها يسرد عليهم محضر الجلسة قبلها حتى يسلموه فيثبت في سجل القرارات وعند ذلك نشرع في إملاء مسألة أخرى وعلى هذه الخطة كان سيرنا إلى أن تجمع من تلك القرارات **مائة مادة ومادتان 102**، مقسمة على عشرة أقسام وهي :

القسم الأول : وفيه اثنان وعشرون مادة في نظام المجلس الأساسي وكيفية تكوينه وبيان أوقات اجتماعه وتحديد نظره وتصرفاته وخصائص الرئيس والأعضاء وخلفائهم وتكوين أمين صندوق له وكاتب وما يتبع ذلك.

القسم الثاني : وفيه سبع مواد في ضابط العالمية وامتحان طالبها وتنقيح قائمة العلماء التي كانت ملئانة بمن لايستحق أن يدرج فيها وإدخال من حرم منها مع استحقاقه وطبقاتها المتكونة إذ ذاك من 154 عالماً ومقرئاً.

القسم الثالث : وفيه سبع مواد أيضاً في كيفية امتحان المدرسين.

القسم الرابع : وفيه خمسة عشر مادة في إحداث وظيف شيخ للقرويين وناظرين 3 معه وتحديد نظرهم وكيفية سير أعمالهم التي أهمها مراقبة الدروس وسير النظام وكيفية إدخال النظام التدريجي للدروس والمدرسين والتلاميذ.

القسم الخامس : وفيه سبعة وعشرون مادة في ضابط التدريس وامتحان التلاميذ وتنظيمهم طبقات ابتدائية وثانوية وعالية وأن لا يقبل واحد في مرتبة إلا بعد نجاحه في امتحان التي قبلها شفاهياً وكتابة ومدة القراءة في كل طبقة والصفات التي تؤهل المدرس لنوال هذا الوظيف وشروط قبول المتعلمين الذين يتدرجون في النظام.

القسم السادس : وفيه إحدى عشر مادة في العطلة السنوية والرخص الاعتيادية وغيرها وضوابط ذلك.

67) الفكر السامي ص : 4/31.

68) أشارت «الأخبار التلغرافية» التي كانت تصدر بفاس ع : 109، بتاريخ 19 ماي إلى هذه الجلسة.

69) عينت لاجتماع اللجنة الإدارية لإصلاح القرويين، الدويرة المعروفة : بدويرة الوضوء لكون النساء كن يتوضأن بها.

القسم السابع : وفيه خمس مواد في المجازات على تآليف الكتب ولا سيما الدراسية وكيفية امتحان التواليف التي يطلب أصحابها الجوائز.

القسم الثامن : وفيه أربع مواد في ضابط التقاعد ومن يستحقه.

القسم التاسع : وفيه ثلاث مواد في الأمور التأديبية لمن خلف الضوابط أو أساء المعاملة أو ارتكب ما يخل بناموس العلم والدين.

القسم العاشر : يعرض هذا القانون على أنظار الجلالة اليوسفية لتصدق عليه أو تنقحه ولا يكون قابل التنفيذ إلا بعد ذلك وكان الفراغ منه في 22 شعبان العام.

وقد علق السيد الحجوي وزير المعارف الأسبق على هذه القرارات المقترحة بقوله :

«ويكفي اللبيب المنصف إمعان النظر في عنوان الأقسام العشرة ليعترف أنه منطبق على مبادئ الدين الحنيف والقومية العربية المغربية وشعارها أتم انطباق، كيف لا وقد حصلنا على موافقة نخبة علماء فاس بل المغرب الذين هم هيأة المجلس على الطريقة التي شرحناها آنفاً بكل حرية وكل استقامة مما لايمكن أن يتهمنا فيه أحد بتطرف أو ابتداع وأقول : (من غير تمدح أو تبجح إن ذلك القانون لو خرج من حيز الخيال إلى حيز الأعمال لكان محيياً للقرويين مجدداً لهيأتها التدريسية تجديداً صحيحاً متيناً إذ ليس له مرمى سوى ترميم ما انهار من هيكلها المشمخر باعثاً لعلوم وفنون من أجداثها كان الإهمال أخفاها وتطاول الأزمان عفاها مرقياً ومحسناً لما فضل عن أيدي الأوهام والإهمال سائقاً لمن تمسك به إلى العروج بذلك المعهد الخطير إلى مستوى نظامي عصري ديني به يبلغ العلم والدين والأدب والثقافة أوج الكمال والفخار).

ولكن مع الأسف المكدر تداخل في القضية ذوو الأغراض الشخصية فبينما نحن نبني ونصلح ونرمم. وما كدنا نختم القانون المشار إليه حتى صدر أمر شريف برجوعنا ولم يبق من مشروعنا إلا أن راتب المدرسين ضعف أضعافاً فصار للطبقة الأولى مائة فرنك مائة شهرية وستين للثانية هذا بعد المضاعفة وبه تعلم ما كان قدره قبل التحسين في سالف القرون وأبقى المجلس صورياً لا حياه له ولا ظهور إلا في الحفلات الرسمية والمقامات التشريفية.[70]

☆ ☆ ☆

ولقد كانت جماعة من العلماء تشايع الفقيه السيد الحجوي وتناصر برنامجه الإصلاحي، بل إن بعض الشعراء أنشدوا في هذا الحدث الساخن الذي ملأ الساحة الفكرية بمدينة فاس، وشغل الناس عما أهم من أمور التعليم، فهذا الشاعر الاجتماعي الإصلاحي صاحب التاريخ المشهور محمد بن الأعرج السليماني الحسني ينشد، مؤيداً الوزير، من قصيدة طويلة :

غـزلت لهم غـداة نصحت غـزلاً
رقيقـاً عـالجـوه فمـا استقـامـا
وأيقظت النـوام بـزجر فـال
وتـذكير فمـا فقهـوا الكـلامـا
بـدا من بعض أهـل الـزيـغ طيش
فسبب عن صنيعهم انخرامـا
رضـوا بـالبخس في سوق المعـالي
فظنـوهـا لجهلهم اغتنـامـا
رضـوا بـالطـل عجـزاً ثم قـالـوا
دعـوا مـا كـان كيف جرى ودامـا
ألسنـا العـالمين لـدى البرايـا
أتـوقظنـا ومـا كنـا نيـامـا
سبكت لهم سبـائـك من لجين
ومن تبر تغـالى أن تـسـامـا
فكـان الطرف منهم بعـد سبر
ومعيـار غثـاء أو رغـامـا
على أن المعـارف لا تـدانى
أنـاسـاً طـالمـا ألفـوا عـوامـا

---

70) الفكر السامي ص : 4/33.

فــــــــدعهم في غبـــــــاوتهم ستبلى
سرائرهم وينصرمـــــوا انصرامـــــــا

وهــل تجـــدي معـــالجـــة لميت
وهــل يغني الصريــخ لمن تعــــامــــا

أمير المــــــــومنين رآك أهـــــــــلاً
حبــاك غــداة طـوقــك الـوســامــا

وقـــــدمـــــك افتخــــاراً مستشــــاراً
لـــدولتـــه وقلـــدك الحســامـــا

☆ ☆ ☆

ثم في الثاني عشر من شهر رمضان العام الموافق للرابع من غشت سنة 1914 صدر الأمر العالي بإسقاط إدارة المعارف الدينية وضمها لوزارة العدلية التي أسندت إلى شيخ الإسلام العلامة المحدث الشيخ أبي شعيب الدكالي وإليكم نص الظهير الصادر في ذلك بعد الحمدلة والصلاة والطابع السلطاني الذي نقش داخله (يوسف بن الحسن الله وليه) :

«يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره، وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره، انه بمقتضى ظهيرنا الشريف المؤرخ بثاني عشر رمضان المعظم عام 1332 هـ الموافق للرابع من غشت سنة 1914م المتعلق بإسقاط إدارة المعارف من شريف أعتابنا استغناء عنها بالوزارة العدلية لتقارب موضوعيهما، وتناسب إجراءات شؤونهما، أسندنا النظر لوزير العدلية في ضبط ما يتعلق بالمعارف الإسلامية، وضبط شؤون القائمين بالوظائف الدينية، ونأمره بمباشرة هاتيك الأعمال، وإدارتها على أحسن أسلوب وأبدع منوال، رغبة في تحسين هيأتها، وعود كليات الديانة الإسلامية إلى نضارتها وزهرتها، متبعا في ذلك ما يرشد إليه من الإشارات الحسنة، والإرشادات المستحسنة، والله يعينه ويسدده، ولصالح القول والعمل يرشده، والسلام.

صدر به أمرنا المعتز بالله في 22 ربيع الثاني عام 1333 هـ موافق 9 مارس سنة 1915م.

وفي التاريخ نفسه أسندت رئاسة مجلس التحسين القروي للعلامة أبي العباس أحمد ابن الخياط الزكاري وهذا نص القرار الوزيري الصادر له بما ذكر بعد الحمدلة والصلاة :

«محبنا الأعز الأرضى الفقيه العلامة الأجل سيدي أحمد ابن الخياط أمنك الله، وسلام عليك ورحمة الله، عن خير مولانا نصره الله، وبعد فقد اقتضى نظر سيدنا أيده الله إسناد النظر في المعارف الإسلامية، وضبط أمر العلماء وأرباب الوظائف الدينية، إلى وزارة العدلية، وأناط دام علاه بنا إدارة أعمالها وتهذيب شؤونها في سائر إيالته الشريفة لتنتظم الدروس العلمية والمدارس، وتعمر منها الربوع الدوارس، ويعود للعلوم الإسلامية رونقها وبهجتها، ولكلياتها نضارتها وزهرتها، حسبما صدر أمره الشريف بذلك وعليه فإنك قد أقررت في رئاسة مجلس التحسين العلمي بتلك الديار الفاسية، لما عهد منك منذ قديم من العكوف على بث العلم ونشره مع الإخلاص وحسن الطوية، ورسوخ القدم وصدق الروية، وسترد عليك المكاتيب بما يتعين إجراؤه في تأسيس الضوابط الممهدة في ذلك، والخطة التي يسلك عليها فيما هنالك، بحول الله أدام الله وجود مولانا الإمام، لإحياء مآثر علوم الإسلام، ماخفقت بنصره الرايات والأعلام، وعلى المحبة والسلام». هـ

ثم لما كان عام ستة وثلاثين وثلاثمائة وألف 1336 هـ صدر الأمر العالي إليه بما لفظه بعد الافتتاح :

«الفقيــــه الأرضى رئيس المجلس التحسيني لكليـــة القرويين عمرها الله بدوام ذكره الشريف السيد أحمد بن الخياط سددك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد فلا يعزب عن علمكم ما لجنابنا الشريف من الاهتمام الكلي بالعلم والعلماء وما قام به جنابنا العالي بالله منذ أعوام من تمهيد الوسائل التي تتحسن بها حالة التعليم، ابتغاء الحصول على النفع العميم، إذ انتشار العلم في الأمم هو الشرط الأول في حياتها، وحفظ كيانها وشريعتها، ولذلك لما تكررت منكم استعطافات جنابنا الأسمى، وطلب النظر فيما تنتعش به هذه الفئة المنتسبة لجانب العلم الاحمى، اقتضى نظرنا السديد، ورأينا الموفق الرشيد، بعد التأمل في القضية، وإعطائها حقها من الأهمية، إن

أصدرنا أمرنا الشريف بترقية رواتب العلماء ذوي المراتب بشرط مواظبة كل منهم على تدريس فنون العلم التي يرشحون لتدريسها بعد :

أما العلماء ذوو الرتبة الأولى فيشترط في حقهم التدريس كذلك لكن لايتقيدون بتعليم فن دون آخر لاستحقاقهم تدريس سائر العلوم. وقدر ما ينفذ سنوياً من الأوقاف لكل واحد من مدرسي الرتبة الأولى اثنتا عشرة مائة بسيطة مخزنية. ولكل واحد من مدرسي الرتبة الثانية سبعمائة وعشرون بسيطة. ولكل واحد من مدرسي الرتبة الثالثة أربعمائة وثمانون بسيطة. ولكل واحد من مدرسي الرتبة الرابعة ثلاثمائة وستون بسيطة ثم يجري كل قدر على التقيسط للمنفذ له شهرياً زيادة على الصلات السنوية.

كما اقتضى نظرنا الشريف إبقاء إدارة شؤون القرويين منوطة بمجلس تحسين التدريس كما كان، نعم لمزيد الاهتمام، والرغبة في سير أعماله على ما يرام، صدرت أوامرنا العالية بالله بأن يكون يعرض خديمنا وزير العدلية الشريفة كل ما يتعلق هناكم بالمعارف الإسلامية على مجلس مرتبة العلوم الدينية المنعقد تحت رئاسة جنابنا الأسمى متركباً من خدامنا الوزير الصدر الأعظم ووزير العدلية ووزير الأحباس وحاجب حضرتنا الشريفة وبان يعين أمين من جانبنا الشريف من أعيان أبناء فاس يكون مكلفاً بدفع رواتب العلماء مع السهر على تعاهد أحوال التدريس وقيام كل عالم بوظيفه بحيث لايقبض الرواتب المسطرة، إلا من استكمل الشروط المذكورة المقررة. ويعلم الله أن القصد من هذا كله هو زيادة انتشار العلوم وتوفر جمع العلماء وتحسين طريقة التعليم حقق الله الرجاء.

وعليه فنأمرك أن تجمع سائر العلماء ذوي المراتب الأربعة وتقرأ عليهم كتابنا الشريف هذا ليقوم كل منهم بما يجب عليه ويعلم أن المرتب شرطه التدريس والقيام، لامجرد الاتصاف بالعلم والسلام، 16 ربيع الثاني عام 1346.[71]

☆ ☆ ☆

وفي عهد المغفور له مولانا محمد الخامس خطت جامعة القرويين خطوات موفقة، إذ أولاها رحمه الله كل عنايته، وصرف مهمته العلوية إلى ما يضمن رضاء بال عماره العلماء ومعيشتهم، حتى يتهيأ لهم صرف أوقاتهم، ونفائس أعمارهم في بذل نفائس الإفادة، ودرر الإجادة، فتعلقت همته بترتيب أزمنة التعلم والتعليم ترتيباً دورياً، فنسلت الطلاب من الحواضر والبواد إلى هنا المورد من كل حدب... وكان لصدور ظهيره الشريف بذلك رنة فرح بين العلماء ،الطلبة، وذلك بتاريخ 16 ذي الحجة عام 1348 هـ.

وعين لمراقبة التدريس بعض طلبة الكلية القروية من أهل فاس في مقابلة راتب شهري قدره ست عشرة مائة فرنك وخمسون فرنكاً، وقسم المدرسين إلى ثلاث طبقات، وحصر عدد الأولى في ثمان ورتب لكل واحد منها خمس عشرة مائة فرنك مشاهرة، وحصر عدد الثانية في اثني عشر والراتب الشهري لكل منها اثنتا عشرة مائة فرنك وخمسون فرنكاً، وحصر عدد الثالثة في اثني عشر براتب شهري قدره ألف فرنك لكل مدرس وعين لكل طبقة ما تتعاطى تدريسه من الكتب العلمية على أن تبتدئ الدروس من الساعة الثامنة إلى الحادية عشرة صباحاً ومن الثانية إلى الخامسة مساء وحدد لكل درس ساعة زمنية وأنيط بكل مدرس إلقاء ثلاثة دروس يومياً مع تخصيص كل فرد من أفراد الطبقات الثلاث بإقراء فن لايتجاوزه إلى غيره وجعل ساعات التعليم بالنسبة للمتعلم ستا وبالنسبة للمعلم ثلاثاً يفصل بين الست ساعات بشطرها انتجاعاً للراحة، سعياً وراء فائدة الاستراحة، إذ الطبع المكدود، لايصلحه إلا التنقل خارج الحدود، في ظل القانون الممدود. من الأدب المحدود، وأناط ملاحظة مراقب الدروس برئيس المجلس العلمي بالحضرة الفاسية وعلق شؤون المجلس العلمي بأنظار المجلس الأعلى بالرباط المتركب من وزرائه الكرام، وهنا يحلو إيراد بعض الظهائر المولوية المتعلقة بما أوردناه، المفصلة لما أجملناه. تتميماً للفائدة دونكم نص أولها :

---

71) انظر الدرر الفاخرة ص : 138.

«الحمد لله، محب جنابنا الشريف رئيس المجلس العلمي بالقرويين الفقيه السيد أحمد بن الجيلالي سددك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فقد اقتضى نظرنا الشريف تحسين حالة التعليم بالقرويين بعد اتفاقنا مع المقيم العام واستشارتنا مع اللجنة المعينة لذلك من جانبنا العالي بالله تعلى بأن عينا مدرسين من جميع طبقات علمائها للقيام بالتدريس على كيفية ناجحة بحول الله وقوته وتصلك قائمة بأسماء المعينين لذلك لتخبرهم بما ذكر وقد أمرنا بتنفيذ شطر الرواتب من أول المحرم الآتي ولاء الموافق يوليه العجمي سنة 1930 إلى تمام سبعة أشهر ثم بعد ذلك يتمم لكل راتبه، أما كيفية التدريس والنظام في الأوقات فعند قفول جنابنا السعيد من وجهتنا المباركة يوافيكم ذلك أما الآن فيبقى التدريس على حاله، وقد عينا لمراقبة التدريس الطالب العربي الحريشي **ويعلم الله تعلى أن قصدنا هو نشر العلم وبثه وإعانة تلك الطائفة المؤمنة على حمل الشريعة** وفق الله الجميع والسلام في 26 حجة الحرام متم عام 1348، قد سجل هذا الكتاب الشريف بقسم المعارف الإسلامية من وزارة العدلية الشريفة في 20 حجة الحرام متم عام 1348 موافق 28 مايه سنة 1930 : محمد الرندة كان الله له» صح منه.

ونص القائمة المحال عليها اعلاه بعد الحمدلة :

بيان أسماء العلماء الذين عينوا بالقرويين للتدريس :

الفقيه مولاي عبد الله الفضيلي الذي صار بعد ذلك رئيساً للمجلس العلمي. الفقيه السيد الراضي السناني، مولاي علي الدرقاوي، الفقيه السيد محمد بن أحمد ابن الحاج، الفقيه السيد عبد الحي الكتاني وقد انسلخ عن النظام الفقيه السيد أحمد الشامي، الفقيه السيد الحسين بن الوليد العراقي، الفقيه السيد ادريس الوزاني.

الطبقة الثانية :

الفقيه السيد ادريس المراكشي، الفقيه السيد محمد بن كبور ابن الحاج، الفقيه السيد أبو الشتاء الصنهاجي، الفقيه السيد محمد ابن ابراهيم الدكالي، الفقيه السيد محمد العلمي، الفقيه السيد العباس بناني، الفقيه السيد الطائع ابن الحاج، الفقيه السيد عبد العزيز ابن الخياط، الفقيه السيد أحمد الشرادي، الفقيه السيد الحسن مزور، الفقيه السيد العباس المطاري، الفقيه السيد محمد بن محمد بن عبد القادر ابن سودة.

الطبقة الثالثة :

«الفقيه السيد محمد بن عبد الرحمن العراقي، الفقيه السيد أحمد بن محمد القادري، الفقيه السيد الحسن الزرهوني، الفقيه السيد محمد أشرقي، الفقيه السيد محمد بن سليمان العلوي، الفقيه السيد عمر ابن سودة، الفقيه السيد الحسن بن عمر العلوي، الفقيه السيد عبد العزيز العراقي، الفقيه السيد محمد بن ادريس الشامي، الفقيه السيد الحسن بن التاودي ابن سودة، الفقيه السيد الطالب ابن سودة، الفقيه السيد الحاج عبد القادر البردعي».

ونص الظهير الشريف في الأمر بامتثال الضابط المسنون للقرويين ليكون قانون أعمالها والإعلان بتأسيس المجلس الأعلى للقرويين بعد الحمدلة والطابع الكبير بداخله : «محمد بن يوسف الله وليه، ومولاه. فالله خير حفظا وهو أرحم الراحمين» :

«يعلم من كتابنا هذا أعلى الله قدره. وأعز أمره. وأطلع في سماء المعارف شمسه المنيرة وبدره. أننا بحول الله القوي المعين. المالك لأزمة الأمور في كل وقت وحين. اقتضى نظرنا الشريف تأسيس مجلس أعلى بأعتابنا الشريفة. يتألف أعضاؤه من أعيان دولتنا المنيفة. تحت رئاسة وزيرنا الصدر الأعظم للنظر في تنظيم التعليم وتحسين طرقه بكلية القروييين عمرها الله بدوام ذكره يطلق عليه اسم **(المجلس الأعلى لنظام التعليم الإسلامي العام بالقرويين)** وأسندنا له النظر في سن ضابط كفيل بتحسين حالة الكلية المذكورة فيما يرجع لانتخاب العلماء المدرسين، وتعيين الفنون التي تدرس فيها، والتآليف التي يقرأ بها، والأوقات التي تلقى فيها الدروس، وما يتعلق بذلك صوناً لكيانها وحفظاً لبهجتها

ونضارتها، وحرصاً على دوام عمارتها، وتعظيماً لشأنها حتى تكون رياض العلوم بها ناضرة زاهرة. وبحارها متدفقة زاخرة. كما كانت عليه فيما مضى من العصور الغابرة، قياماً بما يجب من تعلم العلوم الشرعية الفاخرة. فنأمر العلماء والمتعلمين أن يمتثلوا أمره ويعملوا بالضابط المسنون، ويسيروا على مقتضاه فيما يتعاطونه من العلوم والفنون، ولا يخرجوا عنه فيما قرره من المؤلفات والمتون. وما يلحق بذلك في جميع الشؤون. وفقهم الله لما في صلاح الإسلام والمسلمين، وأعانهم على نشر العلم وإحياء معالم الدين، وأرشدهم لسلوك الصراط المستقيم المستبين. والسلام صدر به أمرنا المعتز بالله في عاشر ذي القعدة الحرام عام 1349، قد سجل هذا الظهير الشريف بقسم المعارف الإسلامية من وزارة العدلية الشريفة في 12 ذي القعدة عام تاريخه موافق فاتح أبريل سنة 1931م : محمد الرندة كان الله له[72]

ثم نشر الضابط المسنون، وقد تضمن أحد عشر فصلاً **حيث تناول الفصل السابع والثامن موضوع الامتحانات سواء للثانوي والنهائي والوظائف المخصصة لحامليها...**

وكان هذا الظهير غير نهائي، فكان يغير أو يكمل بحسب ماتدعو إليه الحاجة، وكان تاريخه في 10 ذي الحجة عام 1351 هـ، الموافق 31 مارس 1933م، وقد سجل هذا الظهير الشريف بالوزارة الكبرى بتاريخ 15 محرم عام 1352 هـ الموافق ماي عام 1933م.

الكفاية.. وتكريم العلماء :

كان لا يسمح، بالمرتب العلمي إلا لمن ثبتت كفايته، وظهرت قدرته العلمية، وعرف بحسن السلوك، وجمال الأحدوثة، وكريم الأخلاق، بشهادة كبار العلماء، وعلية الشخصيات..

ففي تونس مثلاً، كما في غيرها من الأقطار الإسلامية، قد أجرى الأمير محمد بن حسين بن علي الذي كان ذا ميل إلى العلم جرايات للمدرسين التونسيين من الجزية، وتعاقب الأمراء والوزراء بعد ذلك على تعيين دروس علمية في المدارس والجوامع، مثل درسي البيضاوي والقسطلاني من «أوقاف يوسف» صاحب الطابع في جامعه ببطحاء الحلفاويين، فهؤلاء الحكام قد نصروا العلم، ووقفوا له أوقافاً كثيرة دارة، بتوفير أهله وبرهم وإفاضة الصّلات عليهم...

وفي عصر امحمد باشا قصرت الهمم عن الاعتناء بالعلم، ومن تفرق العلماء في تونس في طلب الرزق للظروف الاقتصادية الخانقة، فتقدم إليه بعض الناصحين، وكان من الذين يستمعون القول، فيتبعون أحسنه، فأدرك فائدة تنظيم التعليم وكفاية المدرسين أمر تطلب الرزق بترتيب جراية لهم مناسبة للوقت، لأنه كان يحب العلم، ويقدر أهله، وكان في استقرابه لنجباء من أهل العلم، ومشاورته إياهم مرشد كبير لأعماله، فأمدّ التعليم وأهله بالإعانات الواسعة، إذ سن له نظاماً في عام 1258 هـ، وهو المعبر عنه «بالمعلقة» لتعليق ظهيره بالحائط الغربي قرب «باب الشفاء» بجامع الزيتونة، وانتخب ثلاثين مدرساً خصص لهم جرايات كافية، وعين لكل واحد منهم أن يقرئ درسين كل يوم، وكان منهم أناس مشاهير منتخبون مثل الشيخ محمد ابن عاشور، والشيخ الطيب الرياحي، والشيخ محمد الخضار، والشيخ محمد النيفر، والشيخ محمد ابن الخوجة.[73]

وتوجد في بلادنا المغربية، ووطننا العزيز عدة رسوم تؤذن بأن لايسمح لأي كان، أن ينعم بالمرتب العلمي إلا لمن كان يباشر التدريس، ويمارس الوظائف الدينية من إمامة وخطابة ووعظ وأرشاد.

ولقد كان العلماء، في بلادنا، يتقاضون، لقاء تفوقهم العلمي، رواتب شهرية قارة، بالإضافة إلى ما كان يصلهم

72) راجع في هذا الموضوع مجموعة الظهائر في «الدرر الفاخرة» ص : 152.

73) أليس الصبح بقريب ص : 92 ـ 93.

من عطاآت السلاطين، وينوبهم من الأوقاف المحبّسة عليهم، كما كان سلاطين المغرب يصلون طلبة العلم ومعلمي الأطفال بالكتاتيب القرآنية، وكل الذين يشرفون على عمل من أعمال الدين كمقدمي المدارس العلمية والموقتين والمؤذنين والحزابين...

يؤكد ذلك ما عثرنا عليه من مراسيم تقضي بالاهتمام الكبير بالعلماء والطلبة ورفع مستواهم المادي والمعنوي، والعناية بأحوالهم..

والرسالة التالية من السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى عامل تطوان الحاج عبد القادر أشعاش تبين عدد العلماء والفقهاء ببلدان وطبقاتهم، ومبلغ الصلة المخصصة لكل واحد منهم.[74]

«الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، الطابع السلطاني الصغير، بداخله : عبد الرحمن بن هشام، الله وليه.

خديمنا الأرضى القائد الحاج عبد القادر أشعاش، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد : فقد أنعمنا بصلةٍ على الفقهاء، وطلبة العلم الفقهاء الكبار، هم ثلاثة عشر، خمسة عشر مثقالاً للواحد، ثم الطبقة الثانية التي تليهم، عددهم : أربعة وعشرون، خمسة وسبعون أوقية للواحد، ثم الطبقة الثالثة النجباء خمسة عشر، خمسون أوقية للواحد، ثم الطبقة الرابعة المبتدئون عددهم ستة وعشرون، خمسة وعشرون أوقية للواحد، اجتمع في الجميع خمسمائة مثاقل، وخمسة عشر مثقالاً...

كما أنعمنا على المؤدبين بمائة مثقال، وعلى المؤذنين بمائة مثقال أخرى فمرْ الأمناء أن يدفعوا لكل فريق ما أنعمنا عليه به، والجميع ألف مثقال واحد، وخمسة عشر مثقالاً، فوجّه لنا زمام عدد المؤدبين والمؤذنين والأشراف، وما وجب لكل فريق في صلته، والسلام، في 7 رجب الفرد الحرام عام 1261 هـ.

وهذا رسم يقول نصه ما يلي بعد الحمدلة والصلاة :

«يشهد من يضع شكله إثر تاريخه بمعرفة الفقيه الأنجب سيدي محمد بن الفقيه الأمجد سيدي محمد المكناسي، المعرفة التامة بها ومعها، يشهد بأنه مشتغل بتدريس العلم مدة تزيد على ثماني سنين، فمن علم ذلك، قيد به شهادته مسؤولة منه في حادي عشر من شهر المحرم من عام 1274 عبد ربه : أحمد المرنيسي...

كما أنه كان في الماضي لاسبيل لنقل مدرس من مرتبة إلى أخرى أرقى منها إلا باستحقاق، وهذا نص ظهير بعد الحمدلة والصلاة والطابع نقش داخله (محمد بن عبد الرحمن الله وليه) يصح أن يكون دليلاً على ذلك...

«ابن عمنا الأرضى الفقيه القاضي مولاي محمد بن عبد الرحمن، سددك الله، وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد : فإن الطالب السيد عبد القادر بن الطالب ابن سودة ذكر أن أحد ولديه، استحق الكون في المرتبة الثالثة من مراتب الفقهاء، وأن بيده شهادة بذلك، ويطلب للآخر الزيادة في مرتبه، والإنعام عليهما معا بدويرة من الأحباس أو كرائها، فإن استحق الولد المذكور المرتبة المذكورة، فانقله إليها، كما أن الآخر إن استحق زيادة في مرتبه، فزد له ما يقبضه أمثاله، **وانظر لهما دويرة من دور الأحباس يسكنان بها من غير شيء يجب عليهما، كما يطلب لهما تنفيذ مشاهرة من أحباس المرستان، فإن كان على شرط المحسنين، فنفذ لهما منه مالأمثالهما**. والسلام في 27 ربيع الأول 1290 هـ...

وعلى هذا الضبط كان العمل جارياً في سائر الوظائف الدينية من أذان وتنظيف وإمامة وتعليم.

وهذا نص كتاب آخر أكبر دليل، وأحلى برهان على ذلك، وأوضح حجة جاء فيه :

الحمد لله وحده

الواضع شكله إثر تاريخه يعرف الفقيه الأجل النبيه الأنبل، سيدي محمد ابن الفقيه العدل الأفضل سيدي عبد

74) هذه الرسالة محفوظة بمديرية الوثائق الملكية، وتاريخها : 7 رجب الفرد عام 1261 هـ الذي يوافق يوم السبت 12 يوليوز عام 1854م.

الهادي بن الحاج المعرفة التامة الكافية شرعاً بها ومعها، يشهد بأنه خير. ديّن تقي، مشتغل بما يعنيه، تاركاً لما يشينه ويعنيه، مستحق لأن تنفذ له الإمامة بمسجد من مساجد فاس، يستعين بها على ضروريات لكونه جامعاً لأوصاف الإمامة وشروطها المعتبرة، كل ذلك في علمه بالقرابة والاتصال، والاطلاع على الأحوال، وبه قيد شهادة لسائلها منه في سادس ربيع، عام 1315. عبد ربه بشكله ودعائه، وواقعها بالاطلاع عبد ربه فلان بشكله ودعائه...[75]

الحمد لله أدى الشهود الأربعة أعلاه، فقبلوا، واعلم به فلان بشكله ودعائه.

وقد تتأخر الصلة، ويتطلع العلماء إلى المساعدة، ودفع الضائقة، فيضطرون لمكاتبة الأحباس وإلى من يهمهم الأمر، وقد أمدنا مولاي عبد الرحمن بن زيدان[76] بعدة مكاتيب رفعت للحضرة الإمامية فيما يرجع لما تأخر دفعه في إبانه، وهذه بعض النصوص والوثائق في الموضوع :

1 ـ بعد الحمدلة، والصلاة، والطابع السلطاني نقش داخله عبد العزيز بن الحسن، الله وليّه ومولاه...

وصيفنا الأرضى الطالب محمد الفشار، وفقك الله، وسلام عليك، ورحمة الله، **فنأمرك أن تنفذ للفقيه القاضي السيد أحمد بن سودة الخليع الذي جرت العادة بتنفيذه للقاضي قبله**، والسلام في 19 محرم 1312 هـ.

2 ـ ونص المكتوب الثاني، بعد الحمدلة والصلاة..

محبنا الفقيه الوجيه، الحبي النبيه، من شرب من معين الأدب ظروفاً وكؤوساً، وأتقن من قضاياه وجوهاً ورؤوساً، فلاح الفلاح من محياه شاهداً ومحسوساً. الفقيه الحاجب السيد موسى، لا زالت محاسن أفعالكم طالعة أقماراً وشموساً، ووقاك الله شرا وَبُوسَا، ويوماً عبوساً، ولا زلت بعناية الله محفوفاً. وبالمحبة في العلم وأهله معروفاً. ولا برحت أرجاء المغرب برأيكم السديد مزدهرة. وروضة العلم يانعة مثمرة. وشوكة العدا مُضحلة ومنكسرة. ما استقام أمر برأي سديده وفرح مكتس بثوب جديد.

أما بعد : إهداء هذه الدعوات. وما يناسب منصبكم من أطيب التحيات، والأعمال بالنيات، فإن العادة الجارية من سيدنا نصره الله، ومد في عمره، ولا زال هذا المغرب مستنيراً بسنا قمره. **أن يكسو الفقهاء المدرسين كل سنة حسبما اقتنصته أفعاله المستحسنة، من اقتناص كل حسنة. وفي كريم علمكم أن فصل الشتاء أقبل يتهادى، وهبت نوامسه الباردة مثنى وفرادى، فنحبك بارك الله فيك، ومنحك ماتحب وتتمنى، وأطال لك في طاعته عمراً وسناً. أن تنهي الأمر لمولانا الأمير، فتظهر هذه الحسنة على يدك التي تروي وتمير، والله على كل شيء قدير.. ولك منا الدعاء بأن يجعلك الله ممن حفظ في جميع أحواله، وسلم من كيد الشيطان ووباله، وفاز بمحاسن أفعاله وأقواله، ووجد الله** في جوابه وسؤاله، بجاه النبي وآله، وبه كتب عبد ربه تعالى في أواسط رجب الفرد عام 1286.

أحمد بن محمد بناني... التوقيعات..

3 ـ ونص مضمن الثالث :

جماعة العلماء بهذه الحضرة الإدريسية وفرهم الله بأنهم كانوا طلبوا من جلالة مولانا الكريمة الإنعام عليهم بعادتهم السنوية من القمح، وأمر مولانا أعزه الله بتنفيذها لهم، وإلى الآن لم يتوصلوا بها، فيطلبون من جلالة مولانا دام علاه إنجازها لهم، داعين لمولانا بكل خير، ولمولانا النصر.

فوقعت الجلالة على مطلبهم بما لفظه : «ينفذ لهم»

ونص مضمن الرابع..

الحمد لله وحده

نعم سيدي أعزك الله..

فقد صدر الأمر الشريف أسماه الله بتنفيذ عادة السادة العلماء السنوية يجب لهم في ذلك بعد حط ما أسقطه مولانا أيده الله أوسق وأمداد : 55 أمداد. و 168 أوسق. وقد بحث أمناء الأملاك السعيدة المكلفون بالخَرْص، فلم

75) انظر العز والصولة ص 2/188.

76) «العز والصولة» ص : 163 ـ 164 ـ 2/166.

يوجد تحت يدهم من ذلك إلا 32 وسقاً، يبقي يخص لكمال ذلك أوسق 36/55، فإن اقتضى النظر الشريف إصدار الأمر الشريف الباشا ولد أب محمد الشركي بتنفيذ القدر الباقي لكمال ذلك، وهو ما ذكر أعلاه يؤديه من عنده حتى يجوزه مما بقي بذمة إيالته الزراهنة والبهاليل، حيث وقع التراخي منه في شد العضد على دفع مابقي بذمتهم ليتوصل العلماء بما نفذ لهم، ولمولانا النظر.

ونص التوقيع الشريف (يصدر له).

هكذا كانت الأجور أو المكافآت العلمية يتناولها القائمون على بث العلم ونشره في هذه الديار المغربية...

وهكذا نجد أن علماء جامعة القرويين في القرون الأخيرة لم يكونوا يتقاضون سوى هدايا من نوع خاص بالإضافة إلى تعويض مالي بسيط لاعن التدريس، بل عن رتبتهم العلمية، ولو لم يدرسوا ولا ترتيب لسير دروسه، ولا للموظفين الدينيين المتخرجين منه...

ولم تزل رواتب المدرسين بالقرويين تافهة على ما وقع في السكة النقدية من الانحطاط حتى صارت لاتسد خلة المدرسين، ولا تسل عن المتعلمين، فصار جل المدرسين يتعاطى حرفة يسد بها رمقه، فتعطلت دروس، وأهملت فنون، كانت فيه زاهرة يانعة من قبل، وهكذا بقيت الحال أسيفة إلى أن هيأ الله توظيفي، - يقول العالم الأستاذ محمد الحجوي - في عام 1330 حيث سميت نائب الصدارة العظمى في وزارة العلوم والمعارف وفي مدتي انفتحت عدة مدارس ابتدائية بالمدن المغربية بعد خلوِّها منها، وباشرت إدخال اللغة العربية والدروس الدينية والقرآن العظيم لها وبسبب ذلك حصل الإقبال على التعليم، وامتلأت المدارس شيئاً فشيئاً، وانتشرت في عموم المملكة حتى البوادي، وذلك أيام السلطان المولى يوسف قدس الله روحه، فكان ذلك أول شرف أدبي فكري ناله المغرب، ولا شك أنه سيعود بالرقي العظيم على البلاد.[78]

ثم يقول الأستاذ محمد الحجوي : انه في عام 1332 «باشرتُ تنظيم المجلس التحسيني لإصلاح التعليم بالقرويين، وهو المجلس العلمي الموجود الآن، وهي بزرة لابد أن تنبث ولو بعد حين، أسست هذا المجلس، وألفت قوانينه التحسينية..: وما كان لفظ نظام، أو تنظيم يعرف له المعنى المقصود هناك.. ولا كان يوجد لعلماء ذلك العهد مرتب أو ترتيب حتى فاجأتهم بذلك، فنفروا عنه، أو بعد أن فهم المقصود أهل البصائر منهم بما بذلته معهم من النصح والبيان جار منه من كان متسنما مقاماً يقضى عليه التنظيم بالنزول عنه.[79]

ثم قال بعد كلام... «ولم يبق من مشروعنا إلا أن راتب المدرسين ضعف أضعافا، فصار للطبقة الأولى 100 فرنك شهرية، وستين فرنكا للثانية.[80] وليجتهد كل واحد منا أن يعلم واحدا، والواحد يعلم ألفا، ومن البعض تكون الكل..[81]

☆ ☆ ☆

لقد كانت وزارة الأوقاف تهتم بصلات العلماء، ولا سيما إذا تأخرت عن موعدها، وقد درجت الوزارة في حالة التأخير على أن تكتب خطاباً للنظار تذكرهم فيه بالصلات عند حلول إبانها، فترد لهم الأجوبة بالتنفيذ عن الأمر الشريف، وهذا نص كتاب مما صدر إلى ناظر أحباس كبرى مكناس السيد الصبيحي بعد الحمدلة والصلاة...

«محبنا الأعز الأرضى ناظر أحباس كبرى مكناس السيد أحمد الصبيحي، أمنك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير سيدنا أيده الله، وبعد : فقد وصلنا كتابك المؤرخ بالشهر المتصل عدد 1832 بأنه بناء على العادة في توزيع الصلة السنوية على العلماء. هناكم عن حلول إبانها، تعلم بأنه حل الإبان طالبا بتنفيذ قدرها 6990 الذي منه 5880 لعلماء 120 - الطبقة 1، ومنه 900 لعلماء 6 - الطبقة 2 - ومنه 210 لعلماء الثالثة الخ... وصار بالبال، وأنهيناه لعلم مولانا أعزه الله، وعليه، فيصلك صحبته حوالة بنكية عدد

77) «الفكر السامي» ص 4/31.

78) «الفكر السامي» ص 4/208.

79) «الفكر السامي» لمحمد الحجوي ص : 4/209.

80) نفس المصدر ص : 4/33.

81) نفس المصدر ص 4/210.

18508 بقدر الصلة 6990 المذكورة من أوفار أحباس نظارتك، فوجه لنا توصلك بها مع توصيل العلماء وفق العادة في ذلك.

وعلى المحبة والسلام، في 12 رجب الفرد عام 1343
الامضاء أحمد الجاي

كما كان الاهتمام دائماً بمصالح العلماء وتلبية رغباتهم، وإكرامهم والمحافظة على مصالحهم، مع مواءمة الظروف الوقتية والتطورات الاقتصادية، ومن أجل ذلك فقد دأب ملوك الدولة العلوية أن يهتموا بشؤون القائمين على شؤون الدين، ويعملوا على تنمية رواتبهم في عموم القطر، ويتجلى ذلك في الكتب الموالي الذي كتب في عهد المغفور له مولانا محمد الخامس رحمه الله.

الحمد لله وحده

محبنا الأعز الأرضى ناظر كبرى أحباس مراكش... سلام عليك ورحمة الله بوجود مولانا أيده الله، وبعد : فنظراً لما طلبه علماء فاس من الزيادة في رواتبهم العلمية المنفذة لهم من الأحباس، وقد كان منهم من يتعاطى التدريس، ومن لايتعاطاه، وكل له راتب بمقتضاه، فأثرنا إثر ذلك لسائر العلماء بالمدن والمراسي، وانعقد جمع خصوصي لدرس المسألة بالحضرة الشريفة المولوية، فاستظهرنا رعيا لما يخرج في جملة ذلك أن يزاد في الرواتب العلمية التي تدفعها الأحباس، ثلاثون في المائة 30 ٪ وانهينا ذلك لعلم مولانا أعزه الله، فساعد عليه دام علاه، وعليه فلتكن تدفع للعلماء المنفذة لهم رواتب شهرية بنظارتك سواء المدرس منهم وغيره زيادة ثلاثين في المائة على القدر الذي كانوا يقبضونه سابقاً، كل على نسبة راتبه المتقدم عن الأمر الشريف أسماه الله، ووجه لنا قائمة مشتملة على بيان أسماء المدرسين وغيرهم، وراتب كل واحد أصلاً وزيادة بحسب النسبة المذكورة، ولتكن الزيادة المذكورة من شهر تاريخه، وعلى المحبة والسلام."

في 16 رمضان 1346 موافق مارس 1928.

وزير الأوقاف : امحمد ملين

الرباط : محمد بنعبد الله





يوميات طالب بالقرويين في القرن التاسع الهجري

للأستاذ عبد القادر العافية

عرف جامع القرويين نشاطا ثقافيا وفكريا عبر حياته الطويلة وعرف نشاطا متزايدا في عصر بني مرين حيث كثرت حوله مدارس إيواء الطلبة، وكانت هذه المدارس مجهزة أحسن تجهيز بالنسبة لذلك العصر، مع جمال الشكل ومتانة البناء، و سعته وتعدد طبقاته، وتوفر المرافق الضرورية لحياة الطالب.

وتابعت القرويين نشاطها في العصر الوطاسي، والسعدي...

وفي العهد العلوي المجيد بنى المولى رشيد بن الشريف مدرسة الشراطين التي أوت مآت الطلبة، وكانت المدرسة الرشيدية من أروع ما بني حول القرويين، وازدهرت في هذا العهد الحياة الفكرية بهذا الجامع، وكان للمولى رشيد عناية خاصة بالعلم والعلماء.

واستمرت عناية الدولة العلوية الشريفة بالقرويين وبعلمائها وطلاب العلم بها، مما جعل القرويين تعرف مرحلة جديدة في حياتها الفكرية ابتداء من عهد المولى رشيد، ثم المولى إسماعيل، ثم حفيده سيدي محمد بن عبد الله، وولده المولى سليمان...

وعرفت انبعاثا جديدا في عهد السلطان سيدي محمد الخامس طيب الله ثراه، حيث عمل على تنظيم الدراسة بالقرويين، وإدخال التعديلات الهامة على المناهج والبرامج، واهتم بعلمائها. وطلابها اهتماما كبيرا، وبنى

والحقيقة أن القرويين منذ أسست وهي من عناوين مجد هذه البلاد، أمها الطلبة من كل مكان، داخل المغرب وخارجه، ووجدوا فيها جميعا ما يلبي رغبتهم، ويروي ظمأهم للعلم والمعرفة.

وبمناسبة إحياء الدراسة بالقرويين، وما قامت به وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مشكورة في هذا المجال في العهد الحسني الزاهر.

أذكر إخواني طلاب العلم وعشاق المعرفة من رواد القرويين بما كان عليه طالب العلم من جدية ونشاط، وما كان يتحمله من أجل البحث والتحصيل إلى أن يتخرج وهو صاحب ملكة فكرية، ورصيد علمي، وصاحب رسالة يعمل لنشر العلم، والآداب، والأخلاق، أين ما حل وارتحل...

فيوميات الشيخ على بن ميمون تطلعنا على ما كان عليه طالب العلم من جدية ومثابرة وحب للمعرفة.

وعلي بن ميمون (854 ـ 917 هـ) الذي كتب هذا النص، درس بالقرويين أربعة عشر عاما ثم رحل إلى المشرق.

وتجول بأهم مدن الشام وقراه، وتعرف على مراكزه



منظر يمثل الحاضرين الذين شهدوا يوم التدشين...

مدرسة لإيواء الطلبة، تعد من أهم المدارس بجوار القرويين، وهي تحمل اسمه إلى يومنا هذا.

العلمية، ثم زار الحجاز، ورحل إلى تركيا وأقام بمدينة بورصة هناك، ثم عاد إلى دمشق حيث عمل أستاذا بالمدرسة الصالحية بهذه المدينة لمدة تزيد عن عشر سنين، وخلال هذه المدة كان يعقد حلقات دروسه هنا وهناك من بلاد الشام، فكثر تلاميذه ومريدوه...

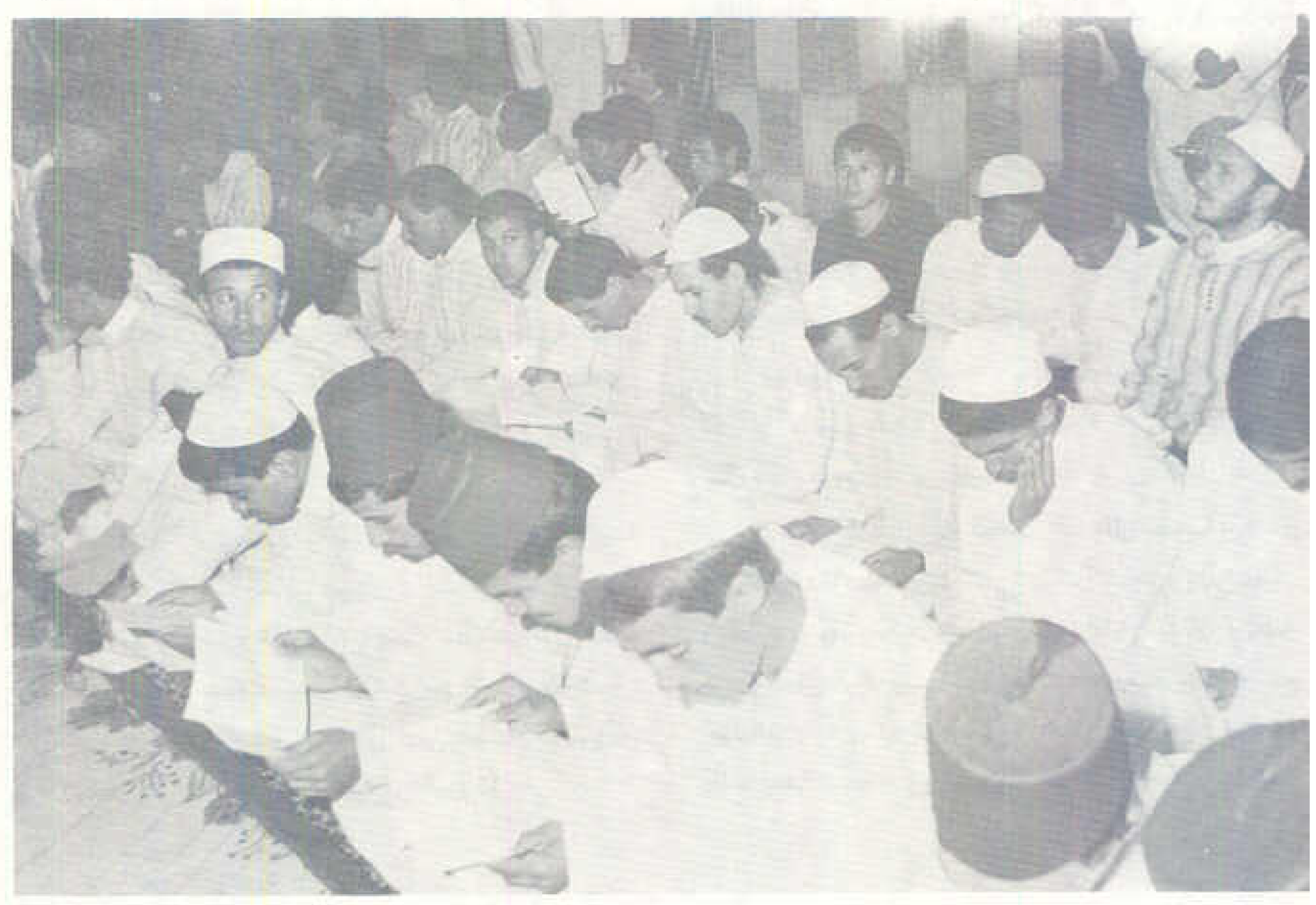
وفي صالحية دمشق ألف علي بن ميمون معظم كتبه التي نجد أسماءها وعناوينها في بعض فهارس المؤلفات، ومن هذه الكتب ما يوجد ضمن مخطوطات الخزانة العامة بالرباط، أو ببعض الخزانات الخاصة بالمغرب والشام[1] والنص الذي يتحدث فيه عن الدراسة بالقرويين هو من كتابه «الرسالة المجازة في معرفة الإجازة»[2] فهو بعدما تكلم عن مدينة فاس، وأشاد بها، وبعلمائها، وأبان عن اشتياقه إليها، وهو بالشام، يقول في معرض حديثه عن علماء القرويين «...وحفظ سائر العلوم الظاهرة من الفقه والحديث والتفسير، وحفظ نصوص كل علم مثل النحو، والفرائض. والحساب، وعلم الوقت ـ التوقيت ـ والتعديل ـ علم الفلك ـ والتوحيد، والمنطق، والبيان، والطب، وسائر العلوم العقلية، كل ذلك لابد فيه عندهم ـ أي عند علماء القرويين ـ من حفظ نص ذلك الفن، ومن لم يستحضر عندهم النص في مسألة ما، لا يلتفت إلى كلامه، ولا يحسب عندهم من طلبة العلم إلا من يأتي بالنص في كل مسألة يتكلم فيها من حفظه، كما يحفظ الآية من القرآن، وإن كان على غير هذه الصفة. يقولون في حقه : «من لم يحفظ النص فهو لص» ومنذ خرجت من فاس لم أجد مثل هذه العناية بحفظ النصوص، لا في تلمسان، ولا بجاية ولا بتونس، ولا إقليم الشام بأسره، ولا بلاد الحجاز، فإني رأيت ذلك بالمشاهدة... لقد طلبت العلم بفاس أربع عشرة سنة بعد أن من الله علي بحفظ كتابه العزيز قبل البلوغ،

---

1) انظر ترجمتنا لعلي ابن ميمون بمجلة دعوة الحق، ع : 16 نونبر 1974 وانظر في هذا العدد البحث الذي أفرده أخونا الدكتور عمر الجيدي عن مخطوطات علي بن ميمون الغماري بالمكتبة الظاهرية.

2) مخطوطة بمكتبة القرويين بفاس، ولها ميكروفيلم بالخزانة العامة بالرباط، رقم : 1343.

وحفظت مصنفات فيما يرجع إلى رسم «الكتاب العزيز» وضبطه وتلاوته وإعرابه، حفظت ذلك قبل البلوغ، وحفظت نظما من سبعمائة بيت في علم الفرائض والحساب - أي في سن الطفولة - ثم رسالة ابن أبي زيد القيرواني... حفظت ذلك كالفاتحة، وبعد ذلك دخلت مدينة فاس، فلزمت علماءها، وكنت متجردا نحوا من سبعة أعوام - أي لا أشتغل إلا بطلب العلم - وفي زمن الشتاء لا نأكل إلا بعد العشاء لكثرة المجالس العلمية، في النهار، نستفتح يومنا بمجلس الفقه والحديث، وهذا المجلس يحتوي على ثلاثة دروس، أولها الحديث بالنقل الغزير، وما يحتاجه شرحه من نسب الراوي ومكانته واللغة، والاعراب والفقه أي استنباط الفقه من الحديث - ثم درس في رسالة ابن أبي زيد القيرواني، بالنقل الكثير أيضا - أي أن الأستاذ يملي من ذاكرته نصوصا كثيرة - من شروحها كالشيخ الجزولي، وبه كان يقرأ شيخنا، وهو غاية - أي في غاية ما يكون من حيث الاستفادة منه - ويذكر من غيره أشياء كثيرة، ثم بعده مجلس المدونة بالنقل الكثير المفرط، - أي أن الأستاذ يأتي بنقول كثيرة من مختلف المصادر - من كلام مشايخ المدونة، من أولهم إلى آخرهم، نشرع في ذلك عند شروق الشمس، ويفرق أحيانا - أي المجلس - قرب الزوال فنخرج في الحين إلى أستاذ المقارئ السبع، نحضر عنده التفسير، ثم الإعراب الكبير، والصغير، ثم ألفية ابن مالك الطائي في النحو، ثم يأتي مدرس آخر ليعطي درسا في المدونة ينقل عن علماء المذهب، قبل أن يؤذن أذان الزوال، ثم ننصرف من هناك ونأتي أستاذا آخر دون الأستاذ الأول - لكنه - على طريقته، وهو شيخه، فنحضر عنده مجلسين في النحو، أولهما في كتاب يقال له المدخل للإمام الصالح الجرومي المصمودي، وبعده في ألفية ابن مالك، وبعد الظهر ننصرف، ونأتي خزانة الكتب التي يطالع فيها طلبة العلم، ويقرأون ما يحتاج إليه المشايخ وغيرهم - أي أن الطالب كان يحضر درسه بهذه المطالعة تلبية لرغبة المشايخ - كل واحد حسب مقصده، لأن فاس المذكورة فيها خزانتان عظيمتان



الطلبة الجدد الذين التحقوا بجامع القرويين بقصد الدراسة

مشهورتان لهذا الأمر، في جامعي الجمعة - يقصد جامع القرويين، وجامع الأندلس، لأن صلاة الجمعة لم تكن تقام في هذا العهد إلا فيهما - وهناك خزانة ثالثة، وكل خزانة فيها كتب موقوفة على طلبة العلم للمطالعة كل يوم على يد وكيل ناظر على ذلك، حافظ له، يجلس المطالعون بين يديه في موضع خاص، حتى إذا قضى كل واحد غرضه رد الكتاب إلى الوكيل، فيرده الوكيل إلى الخزانة، من صلاة الظهر إلى صلاة العصر، والكتب كثيرة لا تكاد تحصى إلا بمشقة، في كل فن من فنون العلم... نقعد في الخزانة للمطالعة إلى أن تقام صلاة العصر، وبعد الصلاة ننصرف إلى بيوتنا بالمدرسة نتسبب فيما نأكل، فنفرغ منه أحيانا بعد المغرب، ثم نحضر مجلس قراءة الموطأ للإمام مالك في الحديث، بالنقل عن مشايخ العلم من مذهب مالك، إلى أذان العشاء الأخيرة، وننصرف لتناول الطعام بعد صلاة العشاء ثم نشتغل بعد ذلك بالمطالعة وأحيانا، اشتغل بتعلم الحساب، وله ولعلم الفرائض مجلسان في كل يوم خميس ويوم جمعة فنستمر على ذلك حتى لا تنام الاغلبة، ونستيقظ آخر الليل، كل واحد على قدر همته، هكذا أيام الأسبوع كله، إلا يوم الخميس، ويوم الجمعة فنحضر ثلاثة مجالس غير مجلس الفرائض والحساب المذكورين... هذا في زمن الشتاء فإذا انصرم يخف هذا الكد شيئا ما، وكان غيري له من الجد والاجتهاد أكثر من هذا، وكان يقول لنا بعض مشايخنا بالقرويين، وهو ممن درست عليه القرآن تجويدا برواية نافع رضي الله عنه - كان يقول - ما أنتم على شيء مما كان عليه من قبلكم في الطلب، والجد... وذكر لنا شيئا من ذلك...»[3].

وهكذا نرى أن هذا النص يصف الحياة اليومية لطالب في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، وهو يصور بكل وضوح ما كان يعانيه الطالب في تتبعه لدروس يتصل بعضها ببعض تبتدئ من بعد صلاة الفجر، لتنتهي بعد صلاة العشاء !! وحتى تهيئ الطعام، وتناوله، لا يكون إلا خلسة ! ومرة واحدة في اليوم !!

والملاحظ من خلال هذا النص أن المجلس الواحد كان يضم عدة دروس، وأن هذه الدروس تبدأ بعد صلاة الصبح مباشرة، ويذكر النص : أن الدرس الثالث يبدأ عند طلوع الشمس.

ويذكر ابن ميمون أن يومي الخميس والجمعة - وهما عطلة الأسبوع - لا يدرس فيهما إلا خمسة دروس فقط !!

ويصف كيف كان يتردد الطلبة على المكتبات العلمية التي كانت متوفرة بفاس في هذا العهد، ويذكر أنها كانت تتوفر على عدد كبير من المجلدات في مختلف العلوم والفنون، مجلدات يصعب عدها وإحصاؤها...

ثم يذكر أن عمل الطالب كان يخف - شيئا ما - في فصل الصيف. ومعنى كلامه أن الدراسة لا تنقطع في هذا الفصل، وإنما تخف فقط.

ومما هو جدير بالملاحظة من خلال يوميات هذا الطالب، أن المادة الواحدة تدرس بعدة كتب وبمستويات مختلفة، فالمادة الواحدة يدرسها الأستاذ المبرز، ويدرسها الأستاذ المعيد قصد الاستيعاب التحصيل، وبشروح مختلفة، ليهضم الطالب المادة العلمية، ويستوعب مضمونها وجزئياتها. ومن بين المواد التي ورد ذكرها في النص : الطب، والحساب، وعلم الفلك، والفرائض - علم المواريث - بالإضافة إلى التفسير، والحديث والقراءات بالسبع، والتجويد، والفقه، والبلاغة والنحو...

ويبدو أن كثرة المواد، وتباينها، كان يرهق الطالب، لكن ابن ميمون يقول : إن بعض شيوخه كانوا يرون أن هذا الاجتهاد هو أقل من اجتهاد طلبة آخرين كانوا قبله.

ومما لا شك فيه أن تحصيل المسائل العلمية يحتاج إلى جهود متواصلة - وإلى تفرغ كامل شامل، وإلى تفان وانقطاع... ولقد تكبد علماؤنا رحمهم الله المشاق والعناء في تحصيل العلم ومسائله، وقضاياه، ومدارسته وتتبع جزئياته... ومن الأقوال المأثورة عندهم : «العلم إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإن أعطيته بعضك لم يعطك شيئا».

---

3) الرسالة المجازة في معرفة الإجازة مصدر سابق.

ويقول الإمام الشافعي رحمه الله : «لو كلفت بشراء بصلة لمافهمت مسألة» فالطالب بن ميمون كان يتابع دروسه بالليل والنهار وبجدية متناهية، إلى أن يغلبه النوم في منتصف الليل، ثم يستيقظ قبل الفجر، ليتابع عمله في الدراسة والتحصيل.

إن هذه المثالية في طلب العلم كانت تجعل من طالب القرويين عالما متميزا بمحفوظاته، وكثرة تحصيله، واستحضاره للنصوص، وحفظه لأمهات المسائل في مختلف العلوم والفنون... ولذا نرى ابن ميمون عندما حط رحاله بصالحية دمشق، أصبح أستاذا يشار له بالبنان، واجتمع عليه الطلبة والمريدون من كل جهات الشام، مما جعل كثيرا من طلابه الشاميين يتحدثون عنه بإعجاب، وترجم له عدد منهم، من بينهم تلميذه علي ابن عطية ابن علوان الحموي (ت : 936 هـ) الذي أفرد ترجمته بمجلد خاص، سماه : مجلي الحزن عن المحزون في مناقب الشيخ علي بن ميمون»[4] وترجم له الشيخ نجم الدين الغزي في كتابه : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة[5] وترجم له الشيخ يوسف النبهاني في كتاب : (جامع كرامة الأولياء)، وتحدث عنه أمير البيان شكيب أرسلان ذاكرا أن قبره أصبح في حارة مسيحية قرب بيروت، وأنه كاد يطمس فعمل على صيانته وإشهاره... وغيرهم، وغيرهم. وهذا مما يدل على أن الشيخ علي بن ميمون، ابن القرويين استطاع بعلمه واجتهاده أن يحتل مكانة مرموقة بإقليم الشام. وجعل كثيرا من علمائه وأبنائه يتحدثون عنه بإكبار وإجلال.

والشيخ علي بن ميمون الذي كتب النص السالف استطرادا في «الرسالة المجازة في معرفة الإجازة» نجد عنده نصا آخر لا يقل أهمية عن النص السالف الذكر، في رسالة أخرى له، سماها : «رسالة الإخوان من أهل الذكر وحملة القرآن» سيكون موضوع حلقة أخرى بحول الله.



الأستاذ محمد الأزرق وهو يدشن الدروس العلمية بجامع القرويين

4) انظر : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزي : 2 : حرف العين.

5) نفس المرجع.

مخطوطات علي بن ميمون الغماري بالمكتبة الظاهرية

للدكتور عمر الجيدي

علي بن ميمون الغماري أحد المغاربة الذين عملوا على تحقيق التواصل العلمي والثقافي بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه: تأليفا وتدريسا، وهو ثالث الغماريين الذين أنشأوا مدرسة للتصوف السني في المشرق، وعملوا على نشرها هنالك، وأصبح لها أتباع وأنصار ومريدون... فإلى جانب أبي الحسن الشاذلي، وعبد الرحيم القنائي الترغي يذكر علي بن ميمون كثالث الثلاثة الذين طبعوا عصرهم بطابع خاص.

لكن من هو علي بن ميمون هذا :

لقد أحسن صنعا إذ أثبت نسبه كاملا في طالعة كتابه «رسالة الإخوان» حيث قال :

«علي بن ميمون بن أبي بكر بن علي بن ميمون بن أبي بكر بن يوسف ابن إسحاق بن أبي بكر بن عطاء الله بن سليمان بن يحيى ابن نصر بن يوسف بن عبد الحميد ابن يلتين بن وازروف ابن واشكور بن عرب بن هلال بن محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الهاشمي القريشي الغماري».

ولد بقبيلة بني بُوزْرَة إحدى القبائل الغمارية على ساحل البحر الأبيض المتوسط بشمال المغرب، والمعلومات عن حياته الأولى ضئيلة، بل تكاد تكون منعدمة، لكنه ظهر على مسرح الأحداث في عهد أبي الحسن علي بن راشد الأكبر أمير شفشاون الذي تولى له القضاء على المدينة الراشدية، وإن كنا نعلم أنه كان قبل ذلك يرأس فرقة المجاهدين على الشواطئ الغمارية حماية لها من المهاجمين الإسبان والبرتغال...

والظاهر أنه لم ينتقل إلى مدينة شُفشاون حتى كان قد حصل علما واسعا ببلده غمارة التي كانت يومئذ تعج بالعلماء والصلحاء والزهاد، فأخذ عنهم علمهم، وتخلق بأخلاقهم، وقلدهم في سلوكهم، نقول هذا اعتمادا على نص أورده هو نفسه في كتابه «رسالة الإخوان» إذ يقول : «وذلك أن من أعظم نعم الله علي أن علمني كتابه العزيز قبل البلوغ، وقرأت في ذلك الزمان نظم الشيخ الخراز رحمه الله في رسم القرآن وضبطه حفظا، وحفظت نظم الشيخ أبي الحسن علي بن برّي في قراءة ورش وقالون على الإمام نافع رضي الله عنه، وحفظنا الأجرومية في النحو، وحفظت نظم الشيخ أبي مقرع في معرفة حساب السنة وغيره، كما هو معلوم هذه الأشياء، وكلها حفظتها كأم القرآن في ذلك الزمان وصورتها على الشيخ، ثم بعد البلوغ منّ علي بحفظ رسالة الشيخ أبي محمد بن أبي زيد القيرواني رحمه الله

وصورتهـا على الشيخ، ثم قرأت نظم الشيخ أبي إسحـاق التلمسـاني في الفرائض وحفظتـه وصورتـه على الشيخ، واشتغلت بمبادئ علم الحساب والفرائض حتى حصلت على معرفة المنـاسخـات وقسمـة التركـات والإقرار والإنكـار والوصيات والتـدبير والصلح ومسـائل الخنثى وسـائر أبواب فقه الحساب والفرائض وكنت أحفظ هـذه الكتب المذكورة كلها كـأم القرآن شكرا لله وأنا ابن عشرين سنـة، ولم أزل ببلاد غمارة التي نشأت فيها ولم أدخل مدينـة قـط، بل في قبائل غمارة عمرها الله».

ولأن اختياره لمنصب القضاء من طرف أمير شفشـاون يدلك على أن الرجل كان على دراية واسعة واطلاع شـامل على أسرار الشريعة، ولكن ابن ميمـون لم يـدم في القضـاء طويلا إذ سرعـان مـا تخلى عن هـذا المنصب لأمر ظهر لـه من الأمير...

يروي ابن عسكر في الـدوحـة (ص 28) أن علي بن ميمون كان جالسـا يومـا مع الأمير ابن راشـد الأكبر، وإذا بيهودي أقبل وأخذ بيد الأمير المذكور وقبلها فقال القـاضي ابن ميمون «إنا لله وإنا إليه راجعون، نحن نقبل يـدا تقبلهـا اليهود» فـأزعجتـه العنـايـة الربـانيـة بسبب ذلـك إلى حضرة فاس، ويظهر أن التحاقه بفاس كـان حوالي 894 هـ ومكث بها سبع سنوات حسبما ورد في كتـابـه «الرسالـة المجـازة» حيث قال : دخلت هذه المدينـة المبـاركـة فـاس فـالتزمت علماءها وبقيت في المـدرسـة متجردا نحوا من سبعـة أعوام» ولكن ابن ميمون يذكر في كتابـه «فضل خيـار النـاس» أنـه دخلها ما بين سبعين إلى ثمانين بعد ثمانمـائـة، ولقـد عـدد بعض الشيوخ الـذين أخذ عنهم في فـاس فـذكر منهم : أبـا زيـد عبـد الرحمن بن سليمـان النـالي الشهير بـالحميـدي الغماري، وأبا الحسن علي الزقاق، وأبـا عبـد الله محمد بن أبي جمعة وأبا عبـد اللـه محمـد المكنـاسي قـاضي الجمـاعـة عصره، وأبا عبد الله محمد بن إبراهيم، وأبا عبـد اللـه محمـد بن أحمـد ابن غـازي، وأبـا العبـاس أحمـد الـونشريسي في شيوخ آخرين، ولكن ابن ميمون كـان معجبـا كثيرا بشيخـه الأول (الغماري) لعلو درجته في الحفظ والفهم حديثا وفقهـا وتفسيرا... اسمع إليـه وهـو يتحـدث عنـه فيقـول : «الشيخ الفقيـه العـالم المحدث الـذي لم يبـق في وقتنـا هـذا في المغرب الأقصى والأدنى من يحفـظ هـذا الكتـاب (يقصـد المدونة) عن ظهر قلب مثله، لا في فاس ولا في غيرهـا من مدن المغرب بأجمعه، فإني أعرف ذلك جيدا» ثم استمع إليه وهو يصف علو منزلته في العلوم فيقول : «... كان متشبثـا وعلى إطـلاع وفهم في سـائر العلـوم مثـل النحـو والحساب والفرائض»، درس ابن ميمون على الحميدي هذا موطأ الإمام مالك والعمدة مختصر الصحيحي والمدونـة، ويصف مجـالس دروسـه فيقول : «فـأول مـا يستفتـح يـومنـا بمجلس شيخي الـذي أخـذت عنه معظم مـا يسر اللـه لي فيـه من الفقـه والحـديث، ولـه ثلاثـة مجـالس في مجلس واحـد يبـدأ أولا بالحديث بالنقل الغزير الكثير لكل مـا يحتـاجه الحـديث من معرفة نسب الراوي ومكانتـه في اللغـة والإعراب والفقـه وغير ذلك.. ثم بعده مجلس رسـالـة ابن أبي زيـد القيرواني بالنقل الكثير أيضا من شارحيها.. ثم بعـده مجلس المـدونـة بـالنقل الكثير المفرط من كلام مشـايخ المـدونـة من أولهم إلى آخرهم، فيشرع عند شروق الشمس ويفرق أحيـانـا قرب الزوال» (أنظر الرسالـة المجـازة)، وفي موضع آخر يـذكر : «ثم نأتي بعد لمجلس شيخي (والحديث دائما عن الحميدي) فنقعد عنده في مجلس موطأ مالـك بن أنس رضي اللـه عنـه في الحديث بنقل مشايخ العلم من مـذهب مـالـك إلى أذان العشاء الأخيرة» (نفس المرجع).

(قلت : من الأسف أن يكون هذا الشيخ بهذه المكانـة والمنـزلـة في العلم ويـذاع صيت الـونشريشي وابن غـازي والزقاق وأضرابهم ولا نعرف شيئا عن هذا العـالم الفـذ الـذي يحكى عنه ابن ميمون ما يحكى إنه الإهمال البغيض الـذي لحق بعلماء البادية).

وبعد ما أمضى ابن ميمون سبع سنوات (عند الـدكتور عبـد الهـادي التـازي عشرون سنـة أنظر جـامـع القرويين 506/2) في الـدراسـة في فـاس وحصـل جملـة وافرة من العلوم، وظهر في فنون كثيرة مثل :

الفقه واللغة والعربية وغيرها شد الرحلة إلى المشرق في جمـادى الثـانيـة سنـة إحـدى وتسعمـائـة (أنظر رسـالـة

الإخوان ص 1) فمر بالجزائر والتقى ببعض شيوخها، ثم منها إلى تونس وهناك التقى بشيخه عرفة القيرواني فطلب منه أن يتصل بالشيخ العارف بالله أبي العباس أحمد بن محمد التوزري التباسي التونسي ببلاد الجريد، فأخذ عنه الطريقة، ويقول ابن عسكر في الدوحة (ص 28 ـ 29) إن سبب هجرة ابن ميمون من فاس إلى المشرق «أنه سمت همته إلى منازل الأفراد فاعتكف بجامع القرويين وآلى على نفسه ألا يخرج منه حتى يريه الله تعالى وليا من أوليائه، فأقام هنالك مدة إلى ذات يوم فقعد إلى سارية من سواري المسجد وسار يتلو القرآن، وكان له صوت حسن، والناس كلهم قد خرجوا من المسجد وغلقت أبوابه قبل الزوال فلم يبق فيه أحد، فبينما هو يقرأ إذ سمع بكاء وأنينا خلفه فالتفت فإذا هو برجل بصير (كفيف) فعلم أنه من الأولياء فسأله عن شيخ التربية، فأشار عليه بأنه في بلاد الجريد...».

وهكذا أقام ابن ميمون في بلاد الجريد أربعة أشهر، ثم واصل سيره نحو المشرق، وينقل ابن العماد أنه دخل القاهرة وحج منها قبل أن ينتقل إلى الشام، (شذرات الذهب 53/8).

ولكن ابن ميمون يصرخ في كتابه «بيان غربة الإسلام ص 9» أنه لم يدخل مصر قط، ولا أدري مستند ابن العماد فيما نقل، المهم أن ابن ميمون وصل إلى بلاد الشام سنة 904 هـ فقد جاء في كتابه «تتريه الصديق» ص 1» ما يلي : لما شاء الله تعالى حلولي ببلاد الشام سنة أربع وتسعمائة سمعت من لاخلاق له من أهل الأهواء...».

ثم انتقل من الشام إلى توركية في شهر ذي الحجة سنة خمس وتسعمائة ونزل بمدينة بورحا ومكث بها مدة وتنقل في أرجاء توركية ثم انتقل ثانية إلى الشام وهكذا دخل دمشق أواخر سنة 912 هـ ونزل بحارة السكة بالصالحية وهرع الناس للتبرك به، والأخذ عنه، وممن أخذ عنه الشيخ عبد النبي شيخ المالكية والشيخ شمس الدين بن رمضان شيخ الحنفية وخلق من الفضلاء (أنظر شذرات الذهب 83/8).

وينقل ابن العماد عن محمد بن عراق في سفينته أنه لم يشتهر في بلاد العرب بالعلم والمشيخة والإرشاد إلا بعد رجوعه من الروم (يقصد توركية) إلى حماة سنة إحدى عشرة ثم قدم منها إلى دمشق في سابع عشرة رجب سنة 913 هـ وأقام في قدمته هذه ثلاث سنوات وخمسة أشهر وأربعة عشر يوما يربي ويرشد ويسلك ويدعو إلى الله على بصيرة.. واجتمع إليه الجم الغفير ثم دخل عليه قبضه وهو بصالحية دمشق، واستمر ملازما له حتى ترك مجلس التأديب، وأخذ يستفسر عن الأماكن التي في بطون الأودية ورؤوس الجبال حتى ذكر له مكان (مجدل معوش) فهاجر إليه في ثاني عشر محرم 917 هـ وأقام هناك خمسة أشهر وتسعة عشر يوما وتوفي ليلة الإثنين عادي عشر جمادى الآخرة ودفن به في أرض موات بشاهق جبل حسبما أوحي به...

وينقل صاحب شذرات الذهب (83/8) عن الشقائق النعمانية أن ابن ميمون كان لا يخالف السنة حتى نقل عنه أنه قال لو أتاني السلطان أبو يزيد بن عثمان لا أعامله إلا بالسنة، وكان لا يقوم للزائرين ولا يقومون له، وإذا جاءه أحد من أهل العلم يفرش له جلد شاة تعظيما له، وكان قوالا بالحق لا يخاف في الله لومة لائم، وكان له غضب شديد إذا رأى في المريدين منكرا يضرهم بالعصا وكان لا يقبل وظيفة ولا هدايا الأمراء والسلاطين، وكان مع ذلك يطعم كل يوم عشرين نفسا من المريدين وله أحوال كثيرة ومناقب عظيمة»

ويذكر أنه كان من طريقته لا يرى لبس الخرقة ولا إلباسها. وذكر تلميذه ابن علوان الذي خصه بكتاب من وصاياه ما يلي :

«إجعل تسعة أعشارك صمتا وعشرة كلاما» «الشيطان له وحي وفيض فلا تغتروا بما يجري في نفوسكم وعلى ألسنتكم من الكلام في التوحيد والحقائق حتى تشهدوه من قلوبكم» وكان ينهي أصحابه عن الدخول بين العوام وبين الحكام ويقول ما رأيت لهم مثلا إلا الفار والحيات فإن كلا منهما مفسد في الأرض، وكان شديد الإنكار على علماء

عصره، ويسمى القضاة : القضاة، ومن مأثور كلامه : «لا ينفع الدار إلا ما فيها» «لا تشتغل بعد أموال التجار وأنت مفلس» «اسلك ما سلكوا تدرك ما أدركوا» «عجبت لمن وقع عليه ـ نظر المفلح كيف لا يفلح» «كنزك تحت جدارك وأنت تطلبه من عند جارك»...

ومن تتبعنا لكتبه رأيناه عنيفا في الرد على الخصوم جرئ على قول الحق مسارع إلى تغيير المنكر، شديد الحرص على اتباع السنة، وقمع البدعة، وتلك صفات الغماريين، فما عهدناهم إلا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر قوالين بالحق، لا يعرفون المداهنة ولا المجاملة حيث يتعلق الأمر بنحو من أنحاء الدين وشؤون العقيدة، فجرأته من جرأتهم، ومواقفه من مواقفهم وهكذا انتشرت دعوة هذا الرجل الإصلاحية في بلاد المشرق وذاع صيته وشاع علمه في الآفاق ودعا الخلق إلى الحق فهدى الله به خلقا كثيرا، وخلف الفحول من تلاميذه ومريديه، واندرست الطرق بطريقته، فالطريقة الميمونية بالمشرق ـ كما يقول ابن عسكر (الدوحة ص 29) كالطريقة الشاذلية بالمغرب...

وخلاصة القول فإن ترجمة ابن ميمون طويلة الذيل وتحتاج إلى صفحات وربما إلى مجلدات لكن نقتصر على ما أجملناه ونحيل الراغب في المزيد على المراجع الآتية :

1 ـ شذرات الذهب 81/8.
2 ـ الروض العاطر للنعيمي ص 197.
3 ـ تاريخ النهرواني 89.
4 ـ دوحة الناشر لابن عسكر ص 28.
5 ـ الموسوعة الإسلامية بالفرنسية 399/1.
6 ـ سلوة الأنفاس للكتاني 74/1.
7 ـ كشف الظنون 843/1.
8 ـ الشقائق النعمانية 540/1.
9 ـ الكواكب السائرة 271/1 ـ 278.
10 ـ جامع القرويين للتازي 412/2 ـ 506.
11 ـ الاعلام للزركلي 180/5.
12 ـ بروكلمان 124/2.
13 ـ مرآة المحاسن للفاسي 13.
14 ـ مجلة المغرب عدد 1 ـ 1937.
15 ـ رسالة المغرب غشت 1943.
16 ـ الكتاب الذهبي 170 ـ 171.
17 ـ هدية العارفين 741/1.

وقد أفرده تلميذه علي بن عطية الملقب بعلوات بكتاب أسماه «مجلي الحزن عن المحزون في مناقب الشيخ علي بن ميمون».

ولننتقل إلى استعراض إنتاجه العلمي لأنه هو الذي يهمنا معرفته، وبه نزداد معرفة بشخصية ابن ميمون العالم الصوفي الزاهد المصلح.

مؤلفاته

من مؤلفات ابن ميمون التي ثبتت لدينا صحة نسبتها إليه ما يلي :

1 ـ رسالة الإخوان من أهل الفقه و حملة القرآن، توجد نسخة منها بالمكتبة العامة بالرباط رقم 1780 د ونسخة أخرى بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

2 ـ الرسالة الميمونية في توحيد الأجرومية توجد نسخة منها بالمكتبة العامة بالرباط ونسخة بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

3 ـ النحو المفيد لأهل السلوك في علم التوحيد.

4 ـ متن الفرائض.

5 ـ الرسالة المجازة في أحكام الإجازة منها نسخة مصورة على شريط بالمكتبة العامة بالرباط.

6 ـ فضل خيار الناس والكشف عن مكر الوسواس نسخة منه في المكتبة الظاهرية بدمشق.

7 ـ تنزيه الصديق عن وصف الزنديق توجد منه أربع نسخ بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

8 ـ مبادئ السالكين إلى مقامات العارفين توجد منه ثلاث نسخ بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

9 ـ بيان الأحكام في السجادة والخرقة والعلام (وهي الطريقة الميمونية) توجد منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق.

10 ـ بيان غربة الإسلام بواسطة صنفي المتفقهة والمتفقرة من أهل مصر والشام ومن والهما من بلاد الأعجام توجد نسخة منه بالمكتبة الظاهرية بدمشق ونسخة أخرى بمكتبة وزان.

11 ـ مواهب الرحمن في كشف عورة الشيطان، توجد منه نسختان في المكتبة الظاهرية بدمشق، ونسخة بجامع السيد سلطان علي في بغداد.

12 ـ تنظيم الشعائر من الصوامع والمساجد والمنابر (هدية العارفين 741/1).

13 ـ سفينة النجاة نسبه له البغدادي في هدية العارفين 741/1، وإني لفي شك مريب من نسبة هذا الكتاب لابن ميمون.

وأظن أن هذا الكتاب هو لمحمد بن عراق الذي ترجم لابن ميمون ترجمة وافية استعرض فيها كثيرا من أقواله وأحواله.

14 ـ شرح الأربعين النواوية (هدية العارفين 741/1).

15 ـ عقد الشرف في التاريخ (هدية العارفين 741/1).

16 ـ كشف الإمارة في حق السيارة ألفها كما يقول البغدادي في الشنيعة التي وجدها في جبل عجلون (أنظر هدية العارفين 741/1).

17 ـ منتهى الطلب في أشعار العرب ضم 800 بيت من شعر الشاعر الراعي النميري أشار إليه البغدادي في هدية العارفين 741/1 ويوجد بإحدى مكاتب العراق (أنظر أخبار التراث العربي عدد 34 ص 5.

18 ـ إضافة إلى أنظام ورسائل كثيرة تركها مفرقة لم تجمع في كتاب ولاشك أن هناك مؤلفات أخرى لهذا العالم الجليل الذي كان يشغل وقته بالتأليف والتدريس والوعظ والإرشاد والتربية والإصلاح.

تحليل موجز لكتبه الموجودة بالمكتبة الظاهرية

1 ـ الكتاب الأول :

«تنزيه الصديق عن وصف الزنديق»، توجد منه أربع نسخ إحداهما قوبلت على نسخة جيدة بخط الشيخ عبد الغني النابلسي، يتناول الكتاب الرد على من أنكر عن ابن عربي مذهبه في التصوف والانتصار له، والدفاع عن مذهبه، وقد ألفه ابن ميمون لما حل بالشام ووجد علماءها يفسقون ابن عربي فسألوه عنه فأجابهم بأن ابن عربي من أكابر العارفين بالله، ومن خواص حضرة الحق...

2 ـ الكتاب الثاني :

فضل خيار الناس والكشف عن مكر الوسواس :

يدور محتوى الكتاب حول الإخلاص في العبادة لله والتحذير من العجب والرياء المحبطين للعمل، ويصور فيه ابن ميمون الحالة التي آلى إليها الإنسان المسلم في القرن العاشر الهجري، ويذكر في سبب تأليفه، أنه لما كان في بُورْصا من بلاد توركية أخبره بعض الأصحاب عن بعض المشيخة أنه كان في مشقة عظيمة مع الوسواس في صلاته إلى أن وقف على نص عن بعض التابعين فأراد معرفة وجهة نظر ابن ميمون فيه، فألف له هذا الكتاب...

3 ـ الكتاب الثالث :

بيان غربة الإسلام بواسطة صنفي المتفقهة والمتفقرة من أهل مصر والشام ومن والهما من بلاد الأعجام، يصور فيه ما ارتكبه عامة أهل القرن العاشر الهجري من مخالفات للكتاب والسنة والتخلف بالضلال والبدعة أقوالا وأفعالا بواسطة المتفقهة والمتفقرة مركزا انتقاده على أهل مصر والشام والترك والفرس، وهذا الكتاب له نظير في المكتبة المغربية...

4 ـ الكتاب الرابع :

مواهب الرحمن في كشف عورة الشيطان، يحذر فيه من حيل الشيطان وأوصافه مبينا كيفية استيلائه على النفوس الضعيفة، مستشهدا في ذلك بوفرة في الآيات والأحاديث.

5 ـ الكتاب الخامس :

بيان الأحكام في الخرقة والسجادة والعلام وما ارتكبه من الأقوال والأفعال مشايخ الأوهام وهو المعروف

بالطريقة الميمونية، يوضح فيه ما ينبغي للمريد أن يتحلى به وما يجب على شيخ التربية أن يتّصف به، حاملا على ما ارتكبه بعض أدعياء التصوف من أعمال يزعمون أنهم يسيرون فيها على هدي العلم اللدني...

6 ـ الكتاب السادس :

مبادئ السالكين إلى مقامات العارفين :

يركز فيه على الإخلاص في العبادة والالتزام المطلق بالقواعد الخمس، على الوجه المطلوب شرعا، والتحذير مما قد يلحقها من آفة الجوارح.

7 الكتاب السابع :

رسالة الإخوان من أهل الفقه وحملة القرآن.. بناها على سبعة أحوال في كل أصل فصل، كل فصل يستند إلى آية، فالفصل الأول في قوله تعالى : **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾** الثاني في قوله تعالى : **﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾** الثالث في قوله تعالى : **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** الرابع في قوله تعالى : **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾** الخامس في قوله تعالى : **﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾** السادس في قوله تعالى : **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾** السابع في قوله تعالى : **﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾**.

والباعث على تأليف هذا الكتاب، وصول عالمين من المغرب إلى دمشق فسألهما ابن ميمون على مدينة فاس وعلمائها فأخبراه بما كان عليه علماؤها يومئذ، وفيهم بعض شيوخه وأقرانه فأراد تجديد الصلة بهم بواسطة هذه الرسالة، وفي الكتاب معلومات قيمة تفيد في ترجمة ابن ميمون وفي التعرف على بعض شيوخه، وهذا الكتاب له نظير في المكتبة المغربية...

8 ـ الكتاب الثامن :

الرسالة الميمونية في توحيد الأجرومية، هذا الكتاب لم تسمح الظروف بتصويره، وإن كنا نعرف محتوياته من خلال النسخة الموجودة بالمكتبة العامة بالرباط...

إن هذه المؤلفات التي أسلفنا القول عنها توجد في حالة جيدة، كتبت جميعها بخط مشرقي غاية في الإتقان ونرجو أن نعمل أو يعمل غيرنا على إخراجها للناس كلها أو على الأقل جلها ليستفيد القارئ مما ورد فيها من حقائق وأفكار والله الموفق لكل خير.

وأخيرا نسوق كلمة شكر وتقدير للزميل الكريم الأستاذ سلام بلحاج الذي اغتنمت فرصة وجوده في دمشق في مهمة علمية فالتمست منه تصوير كتب ابن ميمون فلبى الالتماس وكان كالعهد به فجزاه الله خيرا.

الرباط : عمر الجيدي

مجموع رسائل ديوانية موحدية لجامعه «يحيى»

عرض وتقديم : الأستاذ العلوي البلغيثي

تمهيد :

تأصلت ظاهرة جمع الرسائل بنوعيها : الإخوانية والديوانية، وتدوينها في مجاميع خاصة بمغرب الفتوح عهد الموحدين، وأضحت هدايا ثمينة يقدمها أرباب الكتابة وجهابذة الإنشاء، ممن كانوا يشغلون مناصب عليا في جهاز الدولة، إلى الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجالات الدولة، الذين كانت لهم عناية فائقة بشؤون الثقافة والفكر، ومشاركة فعالة في مختلف نتاجاتها، وخاصة في فن الترسيل الذي رجحت كفته، وبرز فرسانه في ميدان الإبداع الأدبي، وأصبحوا يضاهون كبار الشعراء في المنزلة.

وكانت الغاية المتوخاة من هذه المجاميع، بجانب الإهداء والاتحاف، الاطلاع على النماذج الرفيعة المنتقاة من فن الترسيل، لينتفع بها المترسلون، وبالأخص الناشئون، الذين يطمحون في اللحاق بمصاف شيوخهم ممن لهم القدح المعلى في هذا الفن، والتألق في سماء مجد الكتابة.

التعريف بالمجموع :

ويستوقفنا من هذه المجاميع الهامة، مجموع جديد، كشف عنه البحث التراثي ببلادنا[1]، ويتعلق الأمر بمجموع رسائل ديوانية لجامعه «يحيى» الذي ظل مجهول الهوية إلى أن لاحت لي - بعد بحث طويل - أمارات شخصيته في «برنامج الرعيني»[2]، فرجحتها، مستندا في ذلك إلى دليلين موضوعيين : الأول : إثبات صاحب هذا المصدر لمجموعات ترسيله التي كان «يعنونها باسمه، وأنه الجامع لها»[3]، وهذا الاسم الذي يحمله مجموعه هو «يحيى»، وقد ذكره الناسخ في القسم الأول من المجموع بقوله : «قال يحيى - وفقه الله - : «انتهى ما ألفيته من المكتوب في تقاديم الوُلاة في المجموع وفي المبيضات»[4].

والثاني : معاصرته للفترة الموحدية الأخيرة التي تميزت بازدهار الحركة الأدبية، وعرفت عدة تحولات سياسية خطيرة أفضت إلى أفول شمس هذه الامبراطورية العتيدة، ثم معرفته لأساطين الكتابة في دواوين الدولة كالرعيني الذي تولى الكتابة لخلفاء هذه الفترة.

ولعل هذا الوجه هو : يحيى بن إبراهيم الأصبحي الحكم، كنيته أبو زكرياء، والمعروف بالخدوج[5]، ينسب إلى مدينة مرسية[6]، ولا يعرف على وجه التحديد تاريخ

1) د.محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، مجلة كلية الآداب بالرباط العدد : 7، ص : 218، س : 1980.
2) برنامج الشيوخ، ص : 164.
3) .نفس المصدر.
4) ص : 61.
5) برنامج الشيوخ : 164.
6) ذكر ذلك المقري في نفحه، حيث قال : «وليحيى الخدوج المرسي»، ج : 185/3.

ميلاده، ولا الشيوخ الذين تلقى عنهم، وتاريخ ومكان وفاته. وكل ما يعرف عنه أنه «أدرك المائة السابعة»[7].

وقد عاصر الرعيني، المترجم له، واتصل به حسب اعتراف هذا الأخير «لقيته وعرض على تواليفه»[8]. وتؤكد هذه الإشارة - بما لا يدع مجالا للشك - أن أبا زكرياء من أبناء العصر الموحدي الأخير، الذين عاصروا كبار الأعلام في شتى ميادين الثقافة. ويغلب على الظن أنه تتلمذ على الكثير منهم، حتى نبغ وأصبح من الأدباء المتميزين، ويمكننا أن نستشف من ترجمته التي اقتضبها له أبو الحسن الرعيني، العلوم التي حذق وبرز فيها، والفنون التي لمع فيها، كالأدب وفن الترسيل، والرحلة، والخطابة، وفن الغناء، هذا فضلا عن لعبة الشطرنج.

ويصفه الرعيني بأنه : «قديم الاشتغال بالكتابة، رائق الوراقة، معتن بالأدب»، ذاكرا بعض مؤلفاته التي وقف عليها، ككتاب «الخيرة من الذخيرة»، و«مجموعات ترسيل»، والمصنف الضخم : «الأغاني الأندلسية»[9]، و«الفهرسة» التي جمعها لنفسه، وكتاب «الشطرنج» الملقب عند الناس ب «الشطرنج المصوّر، للحكيم المصغر».

وصف الكتاب :

والكتاب مخطوط في الأصل، محفوظ بالخزانة الحسنية العامرة بالرباط[10]، مبتور الطرفين، متوسط الحجم، يقع في أربع وتسعين صفحة. مقياسه : 16/21، ومسطرته : 23. مكتوب بخط مغربي متوسط، أسود اللون، تعتري جوانبه خروم وإمحاءات أتت على سطور، وكلمات كثيرة. وهو خال من تاريخ التأليف، والنسخ، واسم الناسخ، ويبدو أن عملية النسخ تمت عقب انقراض دولة الموحدين، وخير دليل على ذلك ما ورد في ثنايا المجموع من إشارة إلى وفاة كاتب الخليفة المأمون الذي كتب عنه تقديم قاض : «وكتب - رحمة الله عليه - عن الإمام المأمون تقديم قاض بعد التصدير»[11]. ومنها أيضا وفاة الخليفة المرتضى. «وعن الخليفة المرتضى رحمه الله لأهل سبتة»[12].

دوافع تأليف الكتاب :

أما الدوافع التي جعلته يؤلف هذا الكتاب، فيلخصها في معرض حديثه عن تقاديم جديدة وجدها في مجموع آخر عثر عليه : «وهذا ابتداء ما وجدته ممن من هذه التقاديم في غير ذلك المجموع، مما جنيت ثمره، وأجريت نهره، وأشممت زهره، ونظمت لأولى الآداب والألباب درره ليتملى بلآلئها، ويتسلى بما بث الأنس في لياليها»[13].

فالحافز إذن أدبي، كما يتجلى من هذا القول، يتوخى منه إطلاع أبناء الجيل من المتأدبين، ومن بعدهم، على نماذج رفيعة من فن الترسيل لكبار الأعلام ممن كانوا يشتغلون في دواوين الدولة.

وقد حرص المؤلف على الوحدة الموضوعية في الكتاب، سالكا في سبيل ذلك منهجا فنيا يرتبط في عمقه بالناحية التاريخية، ويتبين لنا ذلك في قوله : «ومما ألفيت أنا من هذه التقاديم مما لم تكن في المجموع ولم تتحصل في ذلك الموضوع ما أثبته - إن شاء الله - مع هذه ليكون بها متصلا، وبها مكملا حتى تتساوى انسياقا، ويرتبط مساقا، وتلتئم انتظاما واتساقا، لتختص هذه التقاديم بمكانها، وتتبين ببيانها، وتجرى في التماثل ملء عنانها، ثم آتى بعد ذلك بتقاديم القضاة مما في المجموع، ومما وجدته في غيره لتنحصر ألقاب ما أردته، وتتحصل فائدة ما أوردته، وآتى بعد ذلك بالصكوك والظهائر وغيرهما مما لم ترتبط في هذه الفنون، ولا تدخل في هذه العيون، وتكون منحازة وحدها[14]، ومعطاة ما عندها، حتى لا يقع في الكتاب غلط، ويكون بعضه ببعض مرتبط، وإن وجدت شيئا بعد تمام هذا القصد من هذه الأنواع، وحصلت على إمتاع هذا المتاع، فسأورده - إن شاء الله - شاملا،

---

7) توفي قبل المترجم له الرعيني، حسب ترحم هذا الأخير عليه في نهاية ترجمته.
8) برنامج الشيوخ.
9) قال عنه المقري في نفحه، إنه على : «منزع الأغاني لأبي فرج». ج : 185/3.
10) تحت رقم 4752.
11) ص/61.
12) ص/11.
13) ص/78.
14) سقوط حرف الحاء.

وأطلعه هلالا كاملا، والله الموفق للصواب، والملبي لتوفية المقاصد والآراب»[15].

يتبين لنا من هذا القول أن الكاتب عنى بفن التعيينات، وخصص له حيزا كبيرا يشمل فصلين : الأول للولاة ومساعديهم من القواد العسكريين، والجباة والثاني للقضاة، مع ملحقات خاصة بالصكوك والظهائر وغيرهما مما لا يندرجان تحت هذا الفن.

والمتتبع للكتاب ـ على الحالة التي وصلتنا ـ يلاحظ التزام الكاتب بهذا المنهج الذي رسمه أثناء فراغه من عرض مجموعة من التعيينات والمخاطبات الجمهورية؛ فقد ابتدأ بتعيينات الولاة والقواد، ثم أردفها بتعيينات القضاة.

ويظهر بجلاء أن المؤلف اعتمد على بعض المجاميع، التي لم يكشف لنا عن طبيعتها أو أصحابها. كما اعتمد على مظان أخرى في تأليف هذا المجموع، وقد ذكر ذلك أربع مرات في أربعة مواضع، حفاظا منه على الأمانة العلمية؛ الأولى، حين إنهائه تجريد تعيينات الولاة من المجموع : «انتهى ما في أثناء المجموع من المكتوب في تقاديم الولاة[16] على البلاد وإقرار من فيه المصلحة لسد الثغور وضبطها من القواد». ويتبع ذلك بالإشارة إلى ما جمعه من مصادر أخرى : «ومما ألفيت أنا من هذه التقاديم[17] مما لم تكن في المجموع ولم تتحصل في ذلك الموضوع ما أثبته ـ إن شاء الله ـ مع هذه ليكون بها متصلا وبها مكملا»[18].

والثانية بعد الانتهاء من عرض تعيينات الولاة أيضا : «انتهى ما ألفيته من المكتوب في تقاديم الولاة في المجموع وفي المبيضات وأنا أتليت ما في الفصل الذي في المجموع من تقاديم القضاة، وأضيف إليه ما في أثنائه وما خرج عنه من تلك العهود والمكاتبات».[19] ففي هذا الإشعار بالانتهاء من تعيينات الولاة، التي استقاها من المجموع والمبيضات، يذكر لنا أيضا الإضافات الملحقة بالباب، والتي استمدها من مصادر أخرى.

والثالثة، بعد انتهاء عملية تجريد تقاديم القضاة من أحد فصول مجموع الشيخ : «انتهى ما ألفيت من هذه التقاديم في الفصل الذي في مجموع الشيخ[20] رحمة الله عليه». ويضيف قائلا : «وألفيت في أثناء المجموع منها مما كتب عن الخليفة الرشيد»[21].

والرابعة، عند فراغه من عرض تعيينات القضاة، المنتجعة من المجموع المعتمد : «انتهى ما في المجموع مما ذكرته، وما ألفيته فيه ووجدته[22]، ووصلت بعضه ببعض وأوردته». ويردف ذلك بالإشارة إلى ما جمعه بنفسه من مظان أخرى : «وهذا ابتداء ما وجدته من هذه التقاديم[23] في غير ذلك المجموع»[24].

ويمكننا أن نتصور، في ضوء هذا التحليل، الأصل الذي كان عليه الكتاب قبل تعرضه لآفات الضياع والبتر والمحو، وهو أنه يتألف من مقدمة، وباب، وملحق.

وقد وقع الكاتب نتيجة اتباعه هذا المنهج، الذي يقوم على المعيار الفني، في بعض الارتباك، والمتجلى في خلطه بين تعيينات الولاة والقواد ونظار المجابي، وفي عدم فصله بين الولاة والقضاة. وكان بإمكانه أن يميز بين هذه الأنواع، ويفرد لكل نوع على حدة فصلا خاصا، فتتعدد فصول هذا الباب، وتصبح ثلاثة في المجموع : الأول للولاة، والثاني للقواد، والثالث للقضاة، مع ملحق بالزوائد.

محتوى الكتاب :

ويحتوي المجموع على سبع وسبعين رسالة وفصلا، موزعة على الشكل التالي : ثمان وأربعون للولاة، منها

15) ص/7.
16) عددها ثلاث رسائل، الأولى : مبتورة البداية. ص : 2 ـ 7.
17) وتبلغ ستا وأربعين رسالة وفصلا، ص : 7 ـ 61.
18) ص : 7.
19) ص : 61.
20) سنتعرف عليه فيما بعد.
21) ص : 75.
22) عدد رسائله وفصوله عشر، ص : 61 ـ 72.
23) وعدد رسائله وفصوله، ثمان عشرة، ص : 78 ـ 94.
24) ص : 78.

ثلاث لقواد الجيش والأسطول[25]، واثنتان للشيوخ[26]، وتسع وعشرون للقضاة[27].

وقد صدرت هذه الرسائل الديوانية عن أربعة خلفاء موحدين، وأمير أندلسي منشق عن الدولة الأم، وهم بالتتابع : المأمون[28]، والرشيد[29]، والمعتضد[30]، والمرتضى[31]، وابن هود[32]. ويذكرهم الجامع في عدة مواضع من المجموع، فقد ذكر الخليفة المأمون في ثلاثة منها : الأول تحت عنوان : «كتب ـ رحمه الله ـ قديما عن المأمون أبي العلاء، وذلك قبل خلافته في تقديم وال مخاطبة جمهورية»[33]. والثاني، جاء فيه : «وكتب ـ رحمة الله عليه ـ عن الإمام المأمون»[34]. والثالث، بعنوان : «وكتب في تقديم صنوه الفقيه أبي محمد على خطة القضاء بشريس عن الخليفة الإمام المأمون»[35].

وذكر الخليفة الرشيد في موضع واحد، بعنوان : «مما كتب به عن الخليفة الرشيد في تقديم صنوه أبي محمد على خطة القضاء بشريس وما إليها»[36].

وذكر الخليفة المعتضد في موضعين : الأول، تحت عنوان : «تقديم ناظر في المجبى عن المعتضد»[37]، والثاني، بعنوان : «مخاطبة أخرى عن الخليفة المعتضد في إعادة قاض لخطبته بعد الصدر»[38].

وذكر الخليفة المرتضى في ثلاثة مواضع : الأول، بعنوان : «ومن المكتوب عن الخليفة المرتضى ـ رحمه الله ـ لأهل سبتة»[39]، والثاني، تحت عنوان : «وعن الخليفة المرتضى تقديم عامل»[40]، والثالث، بعنوان : «من تقديم آخر عن الخليفة المرتضى»[41].

وأخيرا ذكر ابن هود في موضعين : الأول، تحت عنوان، وبخط باهت لا يكاد يبين : «وكتب ـ رحمه الله ـ عن ابن هود في استدعاء ابن الرميمي»[42]. والثاني، بعنوان : «وعن ابن هود في تقديم من ذكر على خطة القضاء بمالقة»[43]. واحتفظ لنا الجامع بتواريخ بعض الرسائل، وعددها سبعة، وهي : تاريخان لرسالتي الخليفة المأمون (52 و53)، الأول : «منتصف شهر شوال المبارك سنة ست وعشرين وستمائة»[44]. والثاني : «شهر صفر سنة ست وعشرين وستمائة»[45]. وتاريخ لرسالة الخليفة الرشيد (57)، وهو : «غرة ذى العدة عام ستة وثلاثين وستمائة»[46]. وثلاثة تواريخ لثلاث رسائل للخليفة المرتضى : (6 و43 و74) وهي : الأول : «في الرابع عشر كرجب الفرد عام ثمانية وأربعين وستمائة»[47]. والثاني : «غرة جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وستمائة»[48]. والثالث : «غرة شهر ذى القعدة عام ثمانية وأربعين وستمائة»[49]. وثلاثة تواريخ لثلاث رسائل لابن هود. إثنتان تحملان اسمه، وهما : (5 و54)، والثالثة بدونه، وهي : (30)، وفيها يقدم الولاء

25) وهي بحسب الترتيب : الثالثة (4 ـ 5)، والثانية والعشرون (36 ـ 37)، والواحدة والأربعون (53 ـ 54).
26) وهما : التاسعة والثلاثون (51 ـ 52)، والأربعون (52 ـ 53).
27) وهي : من «التاسعة والأربعون» إلى «السابعة والسبعون»، ص : (61 ـ 94).
28) هو إدريس بن يعقوب المنصور، يكنى أبا العلاء، ويلقب بالمأمون، تولى الإمارة بالأندلس، وبويع بالخلافة سنة 624 هـ، وكانت وفاته سنة 629 هـ.
29) هو عبد الواحد بن المأمون إدريس، كنيته : أبو محمد، بويع بالخلافة سنة 630 هـ، ومات غريقا في أحد صهاريج بستانه بمراكش سنة 640 هـ.
30) هو علي بن المأمون أبي العلاء إدريس، يكنى : أبا الحسن، ويدعى بالسعيد، ويلقب بالمعتضد، بويع بالخلافة سنة 640 هـ وتوفي مقتولا سنة 646 هـ.
31) هو عمر بن أبي إبراهيم إسحاق بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، كنيته : أبو حفص : ولقبه : المرتضى، اعتلى عرش الخلافة سنة 646 هـ، وتوفي مقتولا سنة 656 هـ.
32) هو محمد بن يوسف بن هود، أمير من سلالة بني هود أصحاب سرقسطة السابقين، يكنى : أبا عبد الله، وتلقب بالمتوكل على الله، حين أعلن نفسه أميرا على مرسية، وخضعت له معظم بلاد الأندلس، توفي بألمرية سنة 635 هـ.
33) ص : 7.
34) ص : 61.
35) ص : 65.
36) ص/75.
37) ص/55.
38) ص/81.
39) ص/11.
40) ص/55.
41) ص/59.
42) ص/6.
43) ص/67.
44) ص/66.
45) ص/67.
46) ص/75.
47) ص/17.
48) ص/56.
49) ص/92.

للخليفة العباسي، وهذه التواريخ هي : الأول، «ثامن شهر رمضان المعظم عام ثلاثين وستمائة»[50]، والثاني : «غرة ربيع الآخر عام أربعة وثلاثين وستمائة»[51]، والثالث : «عقب شهر رمضان المعظم سنة خمس وثلاثين وستمائة»[52] والملاحظ أن المؤلف حذف صدور معظم الرسائل التي أوردها في المجموع، ولعل اهتمامه بقيمتها الفنية، صرفه عن إطارها التاريخي، برغم ما يتضمنه من إشارات مضيئة، طالما أسعفت الباحثين على معرفة الظروف والملابسات المحيطة بها.

ويبدو أن معظم الرسائل كتبت في حضرة الدولة الموحدية مراكش[53]، وأنها أرسلت إلى مختلف الولايات والأرجاء[54]. بيد أن هناك سؤالا ملحا يطرح نفسه وهو : كم عدد رسائل كل خليفة من الأربعة المذكورين ؟ إن الجواب لصعب وعسير، لسببين أساسيين، الأول، خلو معظم الرسائل من أسماء مرسليها والثاني، أنها جاءت عارية من التاريخ الذي كتبت فيه. وأمام هذه الصعوبة لم يبق لنا سوى ركوب متن الافتراض التالي، وهو : اندراج كل مجموعة من الرسائل تحت اسم المرسل المصرح به في المجموع، أو التاريخ المذيل بها. وبهذا يصبح نصيب كل واحد منهم : ست رسائل للأمير المأمون : الأولى (4) في تقديم وال[55]، والخمس الأخرى (49، و50، و51، و52، و53) في تقديم القضاة، الأخيران منهم على شريس والجزيرة الخضراء[56]. وثمان رسائل للخليفة الرشيد في تقديم القضاة، وهي : (57، و58، و59، و60، و61، و62، و63، و64)، الأول منهم على شريس[57]، وعشر رسائل للخليفة المعتضد؛ الأولى : (42) في تقديم ناظر في المجبى[58]، والتسع الباقية : (65، و66، و67، و68، و69، و70، و71، و72، و73) في تقديم القضاة[59]. وإحدى وأربعون رسالة للخليفة المرتضى، مرتبة على الشكل التالي : (6 ـ 29) و(31 ـ 41) و(43 ـ 48)، في تقديم الولاة[60]، الأول (6) أبو القاسم العزفي على سبتة، والثاني عشر (17) ناظر في المجبى بسجلماسة وما إليها. وخمس رسائل للأمير ابن هود؛ اثنتان (5 و30) في تقديم الولاة، الأول : ذو الوزارتين ابن الرميمي، والثاني على الجزيرة الخضراء وأنظارها، أما الثلاث الباقية : (54، و55، و56)، فهي : في تقديم القضاة، الأول : على مالقا.

وتبقى الرسائل الثلاث الأولى في المجموع دونما اندراج، ومن مواصفاتها : الأولى مبتورة الأول، من الحضرة إلى أهل الجزيرة إثر تقديم وفد منها للبيعة. والثانية : في تقديم قائد على الأسطول وأشغال البحر، والثالثة : في تقديم وال. ويغلب على الظن أنها أنشئت في نفس الفترة عن أحد هؤلاء الخلفاء الموحدين، ومما يؤكد صحة ذلك هو احتفاظ الموحدين بالجزيرة الخضراء وإشبيلية، عندما دانت لابن هود معظم مدن الأندلس[61].

بقي أن نعرف من الذي كتب هذه الرسائل ؟ هل هو كاتب واحد، أو عدة كتاب، تبعا لتعدد أصحابها، وتعدد الكتاب الذين كانوا يشتغلون في دواوين بلاطاتهم، كأبي زيد الفازازي[62]، وأخيه أبي عبد الله[63]، وأولادهما، وأبي

---

50) ص/11.
51) ص/69.
52) ص/46.
53) نستثنى الرسالتين اللتين صدرتا عن الخليفة المأمون قبل خلافته : الأولى (4) بقرطبة، والثانية (53) بإشبيلية. والرسائل الثلاث المذكورة لابن هود بحضرة غرناطة إلى مالقة، والجزيرة الخضراء.
54) وردت أسماء بعضها مذكورة كسبتة (4)، وسجلماسة (18)، وشريس (53) و(57)، والجزيرة الخضراء (54).
55) ص : 7 ـ 8.
56) ص : 61 ـ 67.
57) ص : 75 ـ 80.
58) ص : 55.
59) ص : 81 ـ 90.
60) ص : 11 ـ 44، و46 ـ 61.
61) انظر المعجب للمراكشي / 475، وتاريخ ابن خلدون : 530/6 ـ 531.
62) هو عبد الرحمان بن محمد بن يخلفتن بن أحمد الفازازي، من جبل فازاز بقبلي مدينة مكناس، يكنى أبا زيد، نشأ في مراكش، وتولى الكتابة للأمراء الموحدين بالأندلس، وحضرة مراكش، وقد تزهد في أخريات حياته، واشتهر بعشرينياته التي نظمها في مدح المصطفى (ص)، وتوفي بمراكش سنة 627 هـ.
(توجد ترجمته في : التكملة /1641، وبرنامج الرعيني /101، والإحاطة : 517/3، وبغية الوعاة : 91/2. ونفح الطيب : 468/4، والذيل والتكملة : 542/2/ق/8).
63) هو محمد بن يخلفتن بن أحمد الفازازي، من كبار الكتاب، الذين اشتغلوا بالكتابة والقضاء لدى الأمراء الموحدين بالعدوتين، وتوفي حوالي سنة 621 هـ.
(انظر ترجمته في : التكملة : 618، ونفح الطيب : 467/4، والبيان المغرب الموحدي /232، والمعجب 312 ـ 325، والوافي بالوفيات : 213/5، والذيل والتكملة : 8، ق : 362/1، وفي نفس المصدر نقلا عن صلة الصلة : 2 (الخاص بالغرباء) ق : 507/2.

عبد الله[64]، وأبي عمران[65]، وأبي زكرياء[66]، وكأبي القاسم البلـوي[67]، وابن عيـــاش التجيبي[68]، وأبي الحسن الجيـاني[69]، وأبي المطرف ابن عميرة[70]، وغيرهم ؟ إننـا باستقراء الرسـائل الواردة في المجموع، نجـد أنها من إنشاء كاتب واحد، وسندنا في هذا الإقرار هو التشابه الموجود في مطـالعها وخواتمهـا وصيغهـا الكـلامية، فهي لا تخرج في الفواتح عن مثل هذه الصيغ : «وإنـا كتبنـاه كتب الله لكم نظرا»، و«أدام اللـه كرامتهم بتقـواه»، أو «كتب اللـه لكم توافقا». وكذا الشأن بالنسبة للخواتم فهي تتشابه فيما بينهـا، ولا تكاد تخرج عن صيغ الـدعـاء التـاليـة : «وهو سبحـانـه، يعرفكم أطراد الأسعـاد، ويمدكم في أعمـال السـداد بـالإعـانـة والإنجاد»، أو «وهو سبحانه يجمع على مـا يرضـاه دواعيكم، ويصرف إلى مـا يؤلف لـديـه مسـاعيكم بمنـه. والسـلام». أو «إنشاء الله تعالى»، أو «بحول الله تعـالى». وإذا سلمنـا بهـذا الاستنتـاج الموضـوعي، فمن هـو إذن هـذا الكـاتب ؟ لعـل كـاتب هـذه الرسـائل هو أبـو الحسن الرعيني، ودليلنـا على ذلك هو أسلوبه في الكتابة، واشتغـالـه في دواوين أصحـاب هـذه الرسـائـل، ثم كتـابتـه عن اثنين منهم، وهمـا الخليفـة المـأمـون، وابنـه الرشيـد، في تقـديم صنوه أبي محمـد الرعيني[71] على خطـة القضـاء ثـلاث مرات : الأولى، على (قضاء). شريس من طرف الخليفـة المـأمون سنـة 626 هـ[72] والثانية على الجزيرة الخضراء من طرف نفس الخليفـة سنـة 626 هـ[73] والثـالثـة، على (قضـاء) شريس أيضـا، من طرف الخليفة الرشيد سنة 636 هـ[74].

فما هي الخطوط العامة في حياته ؟

إنه علي بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمان بن هيصم، يكنى : أبا الحسن، ويلقب : ابن الفخـار، صنعـة أبيه، وينسب إلى اشبيلية مسقط رأسه، وإلى بطشة[75] التي نزل بها سلفه قـديمـا، وكـانوا يعرفون ببني الحـاج[76]. ولـد بإشبيلية سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة (592هـ)، ونشـأ بهـا، وتلقى فيهـا تعليمـه على شيـوخهـا، وشيـوخ مـدن الأنـدلس الزاهرة كمالقة. وشريس، وقرطبـة ومرسيـة وغرنـاطـة. وقـد أجازه معظمهم، وشهدوا له بتفتح مواهبه العلمية، منذ نعومـة أظفـاره، ومنهم من أجـازه أكثر من مرة، كـالشيخ أبي زيـد الفازازي[77]. الذي قال عنه : «وأجاز لي ما رواه، ومـالـه من نظم ونثر مرارا عدة، وقرأت عليه الأربعين حديثا»[78].

وقد ندب للإقراء، وتعليم العربية في سن مبكرة، وهو ما أسعفه على شحذ ذهنه، وتنمية ملكته الفكريـة، ومواهبـه العلمية والأدبية، حيث أضحى عالما فذا في الأصول والفقه، وعلـوم اللســان العربي، والآداب، شعرا ونثرا، قـال عنـه ابن

64) هو محمد بن أبي زيد الفازازي، كتب للخليفـة الرشيـد. (توجد ترجمته في : الإحاطة : 1517/3، والبيان /283).

65) هو موسى بن أبي عبد الله الفازازي (ترجمته في : الذيل والتكملة : 123/6).

66) وهو من كتاب الخليفة المرتضى (البيان المغرب / 371 ـ 389).

67) انظر ترجمتـه في الـذيل والتكملة للمراكشي، السفر : 1، القسم : 2، ص : 453، واختصار القـدح المعلى لابن سعيـد، ص : 120، وأعلام المغرب العربي لعبد الوهاب بن منصور، الجزء : 4، ص : 146.

68) هو أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمان بن عيـاش التجيبي، تقلد الكتابة للخلفاء الموحدين، مثل أبيـه أبي عبد اللـه، فكتب عن المستنصر والمأمون، وتوفي سنة 629 هـ.

69) هو علي بن محمـد بن حسن الأنصـاري : إشبيلي جيـاني الأصـل، يكنى أبا الحسن، ولقبه : الجياني، نزل مراكش، واستكتبـه الخليفـة الرشيد، واستعمل في الأعمال السلطانيـة، وتولى خطة الإشراف على بلاد حاحة بنواحي مراكش، لـه منظومات كثيرة في مقاصد شتى، ورسائل متنوعة، منها رسالته البارعة إلى الروضـة النبويـة الشريفـة. توفي بتامطريت سنة 663 هـ.

70) هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي، يكنى أبا المطرف، ينحـدر أصلـه من شقر : Jucar، وتسمى اليوم : Alára). وبها ولد سنة 582 هـ. استكتبه الخليفة الرشيد حين وروده حضرة مراكش، ثم قلده القضـاء ببيلانـة، وبعدهـا سلا. وفي عهـد السعيد تولى قضاء مكنـاسـة الزيتون، وتنقل بين سبتـة وتـونس، وبهذه الأخيرة توفي سنة 658 هـ. وله آثار شعرية جليلة مبثوثة في كتب التراجم، ورسـائل كثيرة بديعة في مجاميع، منها مجموعان مخطوطان يوجدان بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ك 232 وك 233.

71) هو عبد الله الرعيني، يكنى أبا محمد، استقضي بقواعد الأندلس على يـد الأمراء المـوحـدين، والأمير ابن هـود، و بعض الخلفـاء الموحدين، وأهم هذه القواعد شريس، ومالقا، والجزيرة الخضراء... ولم تردد له ـ حسب ما أعرف ـ ترجمة في كتب التراجم. وقد اكتفى صنوه أبو الحسن بالإشارة إليه في برنامجه، ص : 142. وذكره ابن عبد الملك المراكشي في ذيله (القسم : 321/5. ونص على أنه روى عنه.

72) الرسالة (52)، ص/65.

73) الرسالة (53)، ص/66.

74) الرسالة (57)، ص/75.

75) قرية تقع على نهر الواد الكبير بإشبيلية، تسمى بـالإسبـانيـة « BAZA ».

76) سبق التعريف به.

77) سبق التعريف به.

78) برنامج الشيوخ : 102.

الخطيب : «وكان محدثا عارفا بالرواية، متعدد المشيخة، فاضلا، دينا، مشاركا في كثير من المعارف حسن الخط، جيد الكتابة»[79] تلقد عدة مهام جليلة كالتدريس، والقضاء على مذهب الإمام مالك في مورور[80] والكتابة لأمراء الأندلس بقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومرسية[81]، كالأمير أبي العلاء بن عبد المؤمن، والمتوكل محمد بن يوسف بن هود، والسلطان الغالب أبي عبد الله بن نصر[82]، ثم بعد ذلك للخلفاء الموحدين بمراكش : الرشيد والمعتضد والمرتضى والواثق[83] آخرهم، في مدة تزيد على العشرين عاما[84]. قال عنه ابن الزبير في هذا الصدد : «غلبت عليه الكتابة، واعتمدها وتقدم فيها، وكتب لجلة من الملوك بالأندلس، والعدوة»[85] وقال ابن الخطيب عن كتابته للخلفاء الموحدين بمراكش : ونمت حاله ونبهت رتبته، واستقل بالإنشاء بعد شيخه أبي زيد الفازازي»[86].

ولم تمنعه هذه المهام من الاشتغال بالتأليف، فقد ألف : برنامج شيوخه الذي ترجم فيه لأساتذته، ومن هم في مرتبتهم، وكتاب : «اقتضاء السنن في انتقاء أربعين من السنن» خرجها عن أربعين شيخا، و«شرح الكافي لابن شريح» و«صلة المطمح والذخيرة» أورد فيه مخاطبات الكتاب والشعراء له، وما جرى بينهم من المراجعات».

توفى الرعيني إلى رحمة ربه بمراكش سنة ست وستين وستمائة (666 هـ)، بعد حياة حافلة بالنشاط الثقافي، خصوصا في مجال الأدب، الذي لمع فيه شاعرا وكاتبا.

ومن نماذج شعره، التي نوردها له، ما جاء في فاتحة رسالته الجوابية لأبي المطرف ابن عميرة :[87]

وافى الكتاب وقد تقلد جيده
ما أنت محسن نظمه ومجيده[88]
من كل معنى ضمن لفظ[89] في حلى
خط يزين[90] طلى الطروس فريده
آبا[91] المطرف دعوة من خالص
لعلاك غائب[92] وده وشهيده
أنت الوحيد بلاغة وبراعة
ولك البيان طريفه وتليده
فالنثر أنت بديعه وعماده
والنظم أنت حبيبه ووليده[93]

ولأبي الحسن رسائل إخوانية بديعة، أورد تلميذه ابن عبد الملك المراكشي أربعا[94] منها في أعقاب ترجمته بكتابه «الذيل والتكملة»[95]. ومما كتبه في الرسالة الرابعة التي أجاب فيها أبا المطرف ابن عميرة، وكان وقتها قاضيا

---

79) الإحاطة : 163/4.

80) مورور : وهي من مراكز الأندلس القديمة، وتقع جنوب شرقي إشبيلية، وتسمى بالإسبانية Moron.

81) ذكر الرعيني ذلك في برنامجه مرتين : الأولى، أثناء ترجمته لعبد الرحمان الفازازي : «واشتراكي في الكتابة معه بقرطبة وإشبيلية» ص : حرف الياء. والثانية، تعريفه بأبي يحيى الأزدي : «كتب معي بإشبيلية وغرناطة ومرسية». ص : ي.

82) هو محمد بن يوسف الملقب بالغالب بالله المتوكل على الله. ولد بأرجونة Arjona بأحواز قرطبة، ملكه أهل غرناطة عليهم، سنة 635 هـ واتخذها حاضرة لدولة بني الأحمر في الأندلس.

83) هو إدريس بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المومن. يكنى أبا العلاء، ويلقب بأبي دبوس الواثق بالله المعتمد على الله، بويع بالخلافة سنة 665 هـ وقتل سنة 668 هـ. وبوفاته انقرضت دولة الموحدين. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

84) قال الدكتور محمد بن شريفة عن ذلك، في معرض حديثه عن شيوخ ابن عبد الملك المراكشي : «ولا شك أنه كان على جانب كبير من المدارة حتى استطاع أن يحتفظ بمنصبه في دار الخلافة طوال هذه الحقبة المضطربة». الذيل والتكملة : السفر : 8. القسم : 1، ص : 14. من تحقيقه. صدر عن أكاديمية المملكة المغربية.

85) صلة الصلة : 141.

86) الإحاطة : 163/4.

87) الذيل والتكملة، السفر : الخامس، القسم : الأول، ص/355، تحقيق : الدكتور إحسان عباس.

88) في رواية ابن الخطيب : «ما أنت تحسن نظمه وتجيده». الإحاطة : 164/4.

89) رواه ابن الخطيب : «لفظه».

90) في روايته : «يزيل». الطروس : ج، طرس، ومعناها : الصحيفة.

91) في روايته : «أباه. ولا يستقيم بها الوزن.

92) رواه : «غابته».

93) روى بداية الصدر : «وانثره، والعجز : «وانظم»، وبها يختل الوزن، والأبيات من بحر الكامل.

94) وهي : رسالتان كتبهما إلى ابن الجنان، التزم فيهما حرف «العين». السفر : 5، ق : 1 ص/330 و341. ورسالتان جوابيتان، كتبهما إلى أبي المطرف ابن عميرة، الأولى، يتوشف فيها إلى الرسالة النونية. نفس المصدر، ص/351، والثانية يجيبه فيها بقضاء الرباط ص/355.

95) نفس المصدر.

على الرباط : «وكان من أملي أن أجدد معكم في رباط الفتح عهدا بالقرب، وقدرت أن يتاح هنالكم تلاقي السفين والركب، فأخلف التقدير، وأعجل عن اللحاق المسير، وضاعت الرقعة أثناء شواغل الأسفار وشغوبها، ذهلت عنها النفس بما مسها من لغوبها، وشاهدى في صدق هذه الدعوى والتي قبلها، علم هذه الوزارة العلية التي أفاضت فضلها، وأعجزت الزمان أن يوجد مثلها، فكل هذا كان منها بمرأى ومسمع، وبمحضر عيانها ومطلع، ثم شردت عن حفظى تلك القطعة وما قيدت من جوابها، ووجب لتذكيركم الآن استئناف هذه وإن كنت لا أرضى بها :

لبيك ها أنا للصفاء مديم
وعلى الوفاء مدى الحياة مقيم

وإليك من خلدى صميم مودة
لي في اعتقاد خلوصها تصميم

يا سابق البلغاء غير مدافع
لك دون غيرك ينبغي التسليم

قسما بمجدك لا يزال مساوقا
للدهر مالك في بنيه قسيم

أنى وأنت وحيد عصرك سؤددا
ولك المناقب كلهن كريم

ومآثر سلفية زكى بها
شرفا حديثا من علاك قديم

أوليت إذ واليت فضلك كل ما
يقضى به لك في الجلال الخيم

وحبوت إذ ناديتني وأنلتني
جاها وأحداث الزمان تضيم[96]

وقد برع الرعيني في المكاتبات الرسمية وأبدع في الكثير منها، وسنعرض لبعض نماذجها، وأول ما نبدأ به من هذه الرسائل الديوانية، ما كتبه عن الأمير أبي العلاء المأمون قبل خلافته، من قرطبة بالأندلس، في تقديم وال :

«إلى أهل فلانة ـ جمع الله على البر والتقوى جمهوركم، وعرفهم من سديد النظر ما يصلح[97] أحوالهم، وينظم أمورهم ـ سلام. فكتبناه ـ كتب الله لكم وعيا للنصائح ورعيا للمصالح ـ من قرطبة. ولا متعرف بفضل الله وبركات[98] أمره الأعلى إلا الخيرات[99] الوالفة العهاد، والمسرات المترادفة الإسعاد، والحمد لله كثيرا حمدا يقرن نعمه بالنمو والازدياد. وقد علمتم ـ أكرمكم الله ـ أن أخص المصالح بمكانكم، وأعودها بالأمر والدعة عليكم في كل أحيانكم، تخير وال يتقلد أشغالكم، ويتفقد أحوالكم، ويريكم في كل محاولاته على ما تعدمون معه تمهيدا، ولا تفقدون نظرا سديدا. وإن الشيخ أبا فلان ـ أدام الله كرامته ـ ممن جمع أوصاف الاستقلال، واستظهر بأكرم الشيم وأحسن الخلال، ووثق منه بالاضطلاع فيما أسند إليه من الأشغال، ولذلك اختير في النظر في مصالح أفقكم وأنظاره. وقدم لأشغالكم إيراده وإصداره. وقد وصيناه بتقوى الله تعالى[100] فيما أسندناه إليه، وقصدناه من مهماتكم عليهم وأوزعنا إليه أن يسلك في تسديد مناحيكم، وتشريد أهل الفساد عن نواحيكم، السنن التي تصلح بسلوكه أحوالكم، وتنبسط به في الأمر آمالكم، وتتمشى معه على الجادة أقوالكم وأعمالكم، وألزمناه أن يكون لأموركم كلها متفقدا، وفي أداء النصيحة فيما قلد منها مجدا مجتهدا، حتى لا يشذ عن تفقده مهم من مهماتكم، ولا يهمل نظره جهة من جهاتكم، وعليكم بمعونته في تنفيذ الحق وإمضائه، ومعاضدته في استيفاء الواجب واقتضائه. والعلم بأن النبيه أو الخامل[101] في الشرع سواء، وصنف واحد، وأن الحق تستوي في حلوه ومره الأنحاء الدينية والمقاصد. ومتى كانت المحاولات جارية على هذا الأسلوب انتصف الضعيف من القوى، وسار الشريف والمشروف على السنن

96) الأبيات من بحر الكامل.
97) محو حرفين قدرتهما بالياء والصاد.
98) محو حرفي الباء والراء.
99) محو نقطتي الياء.
100) محو حرف العين.
101) سقوط نقطة الخاء.

السوي. فإذا وافاكم ـ إن شاء الله تعالى ـ فوفوه حقه[102]، وتوخوا وفقه، واسلكوا في التعاون على الخير والبر طرقه، والله تعالى ينجدكم وإياه على تمشية المصالح، ويستعملكم بالعمل الصالح، بمنه وكرمه. والسلام»[103].

والملاحظ أن الرسالة جاءت مخاطبة جمهورية، تكشف عن العلاقة الوثيقة التي تربط الحاكم بالمحكومين، والقائمة على روح المشاورة والعدالة، والتعاون، المنبثقة من تعاليم الإسلام السمحة.

وقد استهلها الكاتب بذكر اسم المرسل، إليهم، الذين كنى عنهم بـ «أهل فلانة» والدعاء لهم، ثم السلام، فالدخول إلى الموضوع المقصود، وختمها بالدعاء والسلام، دونما ذكر للتاريخ.

ومن الرسائل التي أوردها الجامع لأبي الحسن الرعيني، ما كتبه عن الأمير المنشق ابن هود في استدعاء وزيره ابن الرميمي[104] من مالقا بعد إنابته عنه في تدبير شؤون أهلها، وتقليد ابنه[105] واليا عليها. وقد استهلها بهذه المقدمة :

«إلى الوزراء والفقهاء، والأعيان والأعلام والحسباء، والصدور العلية النبهاء، الأولياء النعماء الأوداء الصرحاء، السابقين الأولين بسجايا الإخلاص ومزايا الولاء، الصادقين فيما تفصح به ألسنتهم عن صدورهم من الحب والصفاء، وصفوتنا من أهل بلادنا وإخواتنا بصريح الوداد، وأخلائنا الذين اجتبينا من نجبائهم وحسبائهم نخبة السراة الأمجاد، والكافة الذين اجتبينا من نجبائهم وحسبائهم نخبة السراة الأمجاد، والكافة الذين يتعهدهم نظرنا الجميل بما يحظيهم بقاصية الأمل من صلاح أحوالهم وغاية المراد، ـ أدام الله كرامتهم وأثرتهم بتقواه، وعرفهم أجزل منته وأسباغ نعماه، وأجراهم في كل أمورهم على ما ييسرهم لحسناه ـ سلام كريم عليكم أيها الأولياء المكرمون، والأوداء الذين يسبقون في مضمار الخلوص ويتقدمون. أما بعد حمد الله المنعم بآلائه على أوليائه، الملهم من حمده إلى ما يضاعف قسم نعمائه، الميسر من صنعه الأجمل، ومنحه الأجزل، ما يستغل كل شكر بإزائه. والصلاة على سيدنا محمد رسوله المصطفى الكريم، سيد رسله وخاتم أنبيائه المبعوث بالحق، والمنعوث بأكرم الخلق لتبيين مزية اصطفائه، الهادي إلى الرشد والداعي إلى اقتفائه. وعلى آله وصحبه الكرام أعلام الإسلام ونجوم اهتدائه، البالغين في إظهار الدين الحنفي وإعلائه إلى غاية انتهائه، العاملين على سنن السنن لا ينكبون عن جادة استوائه. والرضى عن الإمام العباسي أمير المؤمنين المحتوى على الشرف الباذخ، والمجد الراسخ، بصريح انتمائه، القائم بالدعوة النبوية قيام الخلفاء الراشدين آبائه، المستسقى بجده عليه السلام مزن السماء»[106].

وبعد هذه المقدمة التي اشتملت على ذكر المكتوب إليهم، والإطناب في تعداد صفاتهم. والحمدلة، والتصلية على الرسول المصطفى وآله وصحبه، والترضية عن الإمام الخليفة العباسي ببغداد. يذكر مصدر الرسالة، وهي غرناطة، متوجها بالخطاب إلى المكتوب إليهم، مبينا ما يحظون به من رعاية وعناية، وذلك لما يتسمون به من وفاء وإخلاص للإمارة : «فإن عنايتنا بالأقل والأكثر من أموركم لا تزال تتجدد، وإن رعايتنا لمصالح خاصتكم وجمهوركم لا تنفك تتزيد، لمكانتكم في النفس التي أحظتكم بالشفوف[107]، ولسابقتكم التي لم تشركوا في تقدمها المعروف، ولموالاتكم التي خصتكم[108] من شرف الصفات بما يناسب منكم شرف الموصوف، فإنكم القوم لا يجارون في مضمار[109] خلوص وصفاء، ولا يبارون إذا استبقت حلبة جد ووفاء، ولا يزالون من أتباع الجد[110] على سنن اهتداء واقتفاء. فالنظر الأجمل في تمهيد جنباتكم وتأمين جهاتكم. ومما قدمه على كل

---

102) محو حرفي الحاء والقاف.

103) ص : 7 ـ 8.

104) انظر تاريخ ابن خلدون، مج : 615/6.

105) هو محمد بن عبد الله بن أبي يحيى بن الرميمي. ارجع إلى المعجب للمراكشي ص : 150، وأعمال الأعلام لابن الخطيب، ص : 330، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد ج : 198/2، والنفح للمقري، ج : 357/2.

106) ص : 9.

107) محو حرف الألف.

108) محو حرفي الكاف والميم من آخر الكلمة.

109) محو حرفي الألف والراء.

110) محو حرف الدال.

المهمات ونسبقه، والخير الأجزل الذي نتوخاكم به ونعتمدكم لا نزال نواليه وننسقه».

ويخبركم بإرسال وزيره ابن الرميمي إليهم لينوب عنه في تدبير شؤونهم السياسية والمدنية، برغم احتياجه إليه في إمارته : «وبحسب هذا كان من توجه ولينا الأخلص، وصفينا المستخلص، وظهيرنا المعتمد على سدد نظره، وخالصتنا الذي لاح في التدبير كريم أثره، ذي[111] الوزارتين المخصوص بسنى المكانة لدينا الحال الحال اختصاصا بنا واتصالا محل اليمنى[112] من يدينا ـ وصل الله ارتقاءه، وفسح بقاءه ـ إلى قطركم المبارك ـ حاطه الله ـ لينوب[113] عنا في مباشرة أحوالكم ويقوم مقامنا في تسيير آمالكم. وقد كان من ذلكم ما علمنا[114] أنه يوافق اختياركم هنالكم، وقضينا به الغرض الأهم لدينا من تمهيد أرجائكم وحلالكم، ولا خفاء عليكم أن تدبير إمارتنا ـ أعلاه الله ـ منوط لا نتهاضه وغنائه[115]، وإن الإرادات المترددة لدينا مضبوطة باضطلاعه واكتفائه. وإنا بحسب[116] ذلكم نحتاج إلى حضوره بين أيدينا، ونستمد من سداد نظره ورجاحة حلمه[117] مايحملنا على الأولى من التدبير ويجرينا[118]، وما سمحنا في هذه الأيام بغيبة عنا، ولا احتملنا مشقة انفصاله منا، إلا لما اقتضاه اعتناؤنا بكم من إيثاركم بالمؤثر لدى[119] الخاطر، والسماح لكم بمن يحل محل السواد من الناظر»[120].

ويقدم الوالي الذي وقع عليه الاختيار بعد الاختبار والتجربة، وهو ابن ذي الوزارتين ابن الرميمي : «وذلك أن قدمنا في قطركم وجميع جهاته دنيها ونازحها الرئيس فلانا بن ولينا ذي الوزارتين ـ وصل الله إسعاده وإنجاده، وأدام أرقاءه في درج المجد وإصعاده ـ بعد أن توسمنا فيه النجابة، وتحققنا منه الإصابة، وشهدت لدينا أصالته التي لا تنكر، ومكانته التي لها المنصب الأسمى والمظهر، إن يحذو حذو والده، ولا ينكب عن كريم مقاصده وهو لنا نجل بالود والولاء، ولأبيه، ولينا المبرور بكرم الانتماء واعتناؤنا به اعتناء رحماء الآباء بنجباء الأبناء، وله الاتصال بما خصصناه به من مزية الاحتباء. وقد أمضينا بعد استخارة الله تعالى تقديمه على المصالح التي لديكم والمنافع، وأسندنا إلى نظره جميع الداني من أقطاركم والشاسع، واعتمدناه واعتمدناكم في ذلك بالخير المتواتي والإحسان المتتابع وأقررناه واليا عليكم محميا بالاستبداد بنظره فيما لديكم به محاذبة المشارك والمنازع، وعلمنا علم يقين أنه من أبيه ولينا الأعلى حال في كفالة لا يتطرق لها الإهمال، وأنه من ذاته السنية لا يعدم الترقي إلى رتب الانتهاض والاستقلال، وهذا نظر خصصناكم بمختاره ومنتقاه، وحبوناكم منه بما يخلد في الآباء منكم والبنين مؤبده ومبقاه، فاستبشروا بما تستقبلون من البركات الجزيلة، وابتهجوا بما يملأ عيونكم قرة، ونفوسكم مسرة اجتلاء الموصولة والمنح المبذولة ـ إن شاء الله تعالى ـ وهو سبحانه يصل اكتفالكم بالعافية واكتنافكم، ويسعد حالكم واستينافكم. كتب في ثامن شهر رمضان المعظم عام ثلاثين وستمائة»[121]. والرسالة تنطوي على قيمة تاريخية، بجانب قيمتها الفنية، وتتجلى في خضوع عدد من المدن الأندلسية التابعة للامبراطورية الموحدية لإمارة ابن هود، التي دانت بالولاء للخلافة العباسية ببغداد.

وتصادف هذه الفترة خلافة الرشيد أبي العلاء المأمون، الذي بدأ الضعف في عهده يدب في جسم الدولة الموحدية، وأخذت بعض مدن العدوة بالخصوص تستقل عن حكمها المركزي بمراكش.

وكتب الرعيني عن الخليفة المرتضى رسالة جوابية إلى أهل سبتة[122] بعد تقديمهم البيعة إليه، وفيها يستجيب

---

111) محو حرف الياء.
112) محو حرف الياء.
113) محو حرف الواو.
114) محو حرف الألف.
115) محو حرفي الهمزة والهاء.
116) محو حرف الباء.
117) محو حرف الألف.
118) سقوط نقطة الجيم.

119) محو حرف الياء.
120) ص : 10.
121) ص : 11.
122) توجد الرسالة التي بعثها أهل سبتة إلى الخليفة المرتضى ضمن : «رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي». إنشاء خلق الغافقي القبتوري، تقديم وتحقيق : د.محمد الحبيب الهيلة. الرسالة الثامنة، ص : 115 ـ 121. المطبعة الملكية بالرباط س : 1399 ـ 1979.

لرغبتهم في تقليد الفقيه أبي القاسم العزفي[123] على بلدتهم، متعهدا بحماية ثغرهم من تهديدات الصلبيين، وقد افتتحها الكاتب بقوله : «تقض الاعتناء بالنظر في مصالحهم، والاحتفاء بالأمور العائدة بالخير على غاديهم ورائحهم، وتتضمن الجواب لهم عن رغبتهم في تقديم الفقيه الأجل أبي القاسم العزفي على بلدتهم، وإسعافهم فيما تأكدت فيه من ذلك طلبة جملتهم.. وهي بعد التصدير باسم الخليفة والمخاطبين - عرفهم الله عز وجل الخيرة فيا يقتضيه واستعملهم من التعاون على البر والتقوى بما يرتضيه وأتانا من الخير مثل ما نريده لهم ولسائر إخوانهم المسلمين وننويه - سلام. أما بعد فإنا نحمد إليكم الله عز وجل الذي لا إله إلا هو ونشكره على نعمه وآلائه، ونصلي على سيدنا محمد الكريم الرءوف الرحيم صفوة خلقه وخاتم أنبيائه. والحمد لله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور[125]، وينفذ وفق إرادته وقدرته المراد والمقدور، ويحكم بين عباده بما يذعن له الآمر والمأمور، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[126] فلا ينكب عنه ولا يجور، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور[127]. والصلاة الهامية الديم، النامية القسم على نبيه المفضل على جميع الأرسال والأمم، المرسل بالحنيفية السمحة للعرب والعجم. سيدنا ومولانا محمد الذي تعين لمكانته على الأنبياء الشفوف والظهور، وتبين بإبانته المتحير المتضحة الجلاء الواجب والمحظور، وأيده ربه من معجزات القرآن بما لا يزال جديدا، وإن بليت الدهور، ولا يبرح باقيا وإن فنيت العصور، وجعله أول من تنشق عنه الأرض إذا بعثرت القبور، وأول شافع مشفع إذا جمع الناس في بساط واحد للحشر والنشور. وعلى آله وصحابته الأبرار الكرام الذين تألقت منهم في سماء الإسلام الأهلة والبدور، وألقى في إيمانهم مفاتح الأقطار الواسعة والأمصار الدانية الشاسعة المعمور، وتضاعفت لهم بالجهاد في سبيل الله، والذب عن دينه[128] المثوبات والأجور، وذل لاجتيابهم للأعداء من قواصي النواحي والأرجاء»[129].

ثم يرضى عن القائم بأمر الله، وعن «الخلفاء الراشدين المهتدين الذين طبق الخافقين شعارهم المنصور ولواؤهم المنشور، وأمنت بعدالتهم الرعايا وبحمايتهم الثغور، وكان لهم في إعلاء كلمة الإيمان وإرداء عبدة الصلبان الغناء المذكور، والثناء المأثور، وحاطوا ما للإسلام من الذمار والحماة الأذمار المتخطفين لأرواح الكفار كما تتخطف بنات الماء الصقور. وعن سيدنا الأمير الطاهر له. إبراهيم من مضاعف الرضوان ما يتعهد بالروح والريحان جدثه الطاهر ويزور، ويتجدد لديه به من قسم الرحمة والغفران النماء والوفور، ويكون جزاء كريما لما أسلف في التزام العلم والعمل سعيه المبارك المشكور، ويسعى نورا بين يديه[130] يوم يلقى في يمناهما كتابه المنشور، وتتلقاه الملائكة[131] إن شاء الله تعالى من البشرى بما يوجبه المعد له عند الله من جزيل ثوابه والدخور»[132].

ويخلص من هذه المقدمات إلى الموضوع المقصود : «وإنا كتبناه - كتب الله تعالى لكم حفظا تصحبكم في كل أحوالكم كالئه وكافله، وحظا من فضله العظيم وطوله الجسيم تدر عليكم حوافله، ولا تغبكم رغائبه ونوافله - من حضرتنا بفلانة[133]. ثم اعلموا علم يقين أنكم عندنا وفيما طوينا عقدنا في الأولياء الخلطاء متقدمون، وفي عدد النصحاء الصرحاء منتظمون، وبشيم الصدق والوفاء متسمون، تميزتم في تلبية[134] دعوتنا[135] بمزية السبق، وسلكتم في

123) هو محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين، ينحدر أصله إلى قابوس بن النعمان بن المنذر ملوك الحيرة، ولد بسبتة عام 607 هـ. تقلد إمارة المدينة عام 647 هـ. عهد الخليفة المرتضى، وظل على رأسها إلى أن توفي من مرض عضال عام 677 هـ. ساهم في تنشيط الحركة الفكرية والأدبية في مدينة سبتة، وأكمل كتاب «الدر المنظم، في مولد النبي المعظم» الذي ألفه والده القاضي المحدث أبو العباس.

124) محو حرف الهمزة.

125) سورة غافر : 18.

126) سورة يونس : 24.

127) سورة الشورى : 52.

128) محو حرف الهاء.

129) ص : 11.

130) اقتباس من الآية الكريمة : «يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم»، سورة الحديد : 11.

131) سورة الأنبياء : 102.

132) ص : 13.

133) كناية عن مراكش.

134) سقوط نقطتي التاء.

135) محو حرف الدال.

البدار إليها على أهدى الطرق، وخلصت مصافاتكم لها من الشوب وسلكتم في البدار إليها على أهدى الطرق، وخلصت مصافاتكم لها من الشوب والمذق، لذلكم خصتكم بمزيد الرعي والإيثار، ونصتكم في الرعيل الأول من أولى التيقن في موالاتنا».

ويخبرهم بوصول كتابهم إليه، وما تضمن من تقديم فروض الطاعة والولاء للخلافة الموحدية : «وإلى هذا نور الله بصائركم، وعمر بتقواه خاطركم. فإن كتابكم وصل إلينا إثر كتاب منكم[136] تقدمه تذكرون[137] ما ابتدأتم به من انتظامكم في سلك الجماعة واتساقكم، وتقررون ما[138] تقدمتم إليه من حسن ابتداركم إلى الطاعة واستباقكم، واعتصامكم بحبل الله تعالى في موالاة هذه الدعوة واعتلاقكم ـ أعزكم الله تعالى ـ مرعي لكم لا يضاع».

وقال عن قضية الوالي الذي قلده أمور بلدتهم : «فأما ما ذكرتم في شأن من استعملناه هنالكم، وما صدر عن (حوايهم)[140] فقد علمتم أولا أنا لم نقدم واليا لشغل عندكم حتى تكررت في التقديم له رغباتكم، وترددت في التعجيل به طلباتكم واستحثنا في ذلك خطيباكم الوافدان علينا ومخاطباتكم فعينا إسعافا لكم من قدرنا فيه الصلاحية[141] لما له أهلناه وظننا به الاضطلاع بما حملناه، وعهدنا له أن يلتزم العدل ويوثر الحق في كل ما فيه استعملناه، والذي كان في ذلكم من حسن الانتقاء[143] والاختيار وفيناه، ولم نقف دون غاية من الاجتهاد لكم ولقطركم فيما اعتمدناه من ذلك وتوخيناه، وليس إلينا علم البواطن والضمائر»[144].

ويفند ادعاءات أتباع الولاة، مبرئا ساحتهم من جميع التهم التي ألصقت بهم؛ «وأما ما ذكرتم مما جرى على ألسنة أتباع الولاة من أقوال لا يهتف بها عاقل، ولا يتعين لها قائل فما أخلقكم بأن لا يكون لذلكم في خواطركم تأثير، ولا ينشأ لأجله في نفس من نفوسكم تغيير، فإن مثله لا يسمع، وحاشى أنه فيكم، ولا يليق بما علم في الطاعة من حسن مناحيكم. وإني وقد تميزتم من الموالاة الصريحة الصحيحة بما أبرمت منه المعاقد وتنزهتم في المناصحة لدعوتنا عن كل ما ينقمه الناقم وينقده الناقد، ونأيتم عن مواقف التهم بما اقتضته منكم البصائر الراسخة والعقائد، فقول القائل فيكم لما عدل ذلكم عليه مردود، وباب القبول دونه فيه موصد مسدود، والقائل كائنا من كان مخلا عن بابنا مطرود، فثقوا بما نعتمد به مذاهبكم في طاعتنا من (   )[145] والاحماد، وطيبوا نفوسا وقروا عيونا بما وقر لكم في النفس من جميل الاعتقاد، وأقبلوا على ما يعنيكم من الشؤون إقبالا ينفعكم في المعاش والمعاد، واعلموا أن لدينا من الحنو عليكم وإرادة الخير لكم ودفع المضار عنكم ما لا تنفك عنه في الإصدار والإيراد، وما تخولكم منه بأوفى ما نتخول به رعايانا من أهل البلاد. والله الميسر للصلاح والسداد، والمان علينا في كل ما تولينا بالإعانة والإنجاد»[146]. ويستخف بالصليبيين وبتهديداتهم لثغرهم : «وأما ما ذكرتم مما صرح به الافريريان[147] اللذان ذكرتم أنهما[148] قدما على ذلكم (الثغر)[149] ـ حماه الله ـ من إشبيلية ـ أعادها الله ـ من كونها وصلا للاجتماع بالنصارى (   )[150] هنالكم في أمور خوطبوا بها من حضرتنا ـ كلأها الله ـ فكيف يلج في أسماع أمثالكم من المسلمين العقلاء هذا الزور الشنيع المنكر وياعجبا من الإصغاء لأقوال كفرة الأعداء الذين لا

136) محو حرف الميم.
137) محو حرفي الواو والنون.
138) محو قدرته بـ «ما» لاستواء المعنى.
139) ص : 17.
140) كلمة مخروطة الوسط.
141) محو حرفي الياء والتاء.
142) محو حرف الواو.
143) محو حرف القاف.
144) ص : 14 ـ 15.

145) كلمة ممحوة، ولعلها ما قدرته.
146) ص : 15.
147) الإفريريان : كلمة إسبانية، تعنى الراهبين، وهي مثنى FRAILE، راهب وترجمتها بالفرنسية : MOINE.
148) سقوط حرف الميم.
149) محو بمقدار كلمة.
150) محو بمقدار كلمة.
151) محو حرفي الكاف والميم من آخر الكلمة.
152) محو حرف الهمزة.

يـألـونكم خبـالا[153] ودوا مـاعنتهم قـد بـدت البغضـاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر»[154].

ويستجيب لرغبتهم في تقلـد أبي القـاسم العـزفي أمورهم : «وأما ما أنهيتم ـ أعزكم الله ـ من رغبتكم في أن تفرد فلان ـ أدام الله أثرتـه وكرامتـه ووصـل على الأعمـال الصالحات إعـانتـه ـ بـالنظر في مصـالحكم[155] ومجـابيكم والتولي بحسن الحياطة والحماية لجوائبكم ونواحيكم، فقـد وافقت رغبتكم في ذلك اختيـارنـا»[156]. ويوصيهم بشـد أزر واليهم أبي القـاسم العـزفي الـذي وافـق على تعيينـه : «فـإذا وافاكم كتابنا هذا فلتبادروا من المعاضدة له والمساعدة لما تحسن فيه آثاركم، ولتكونوا معه يدا واحدة فيما تـأمن عليـه أرجـاؤكم وأقطـاركم، ولتعلموا أنـه لا يعنيكم من نظرنـا مـا يتمشى به في المصالح اختيـاركم، ويصـان بتواليـه وتـاليـه حماكم وذماركم إن شاء (الله)[157] تعالى، وهو سبحانه يعلق بـالتقـوى إيمـانكم، ويصـل عـافيتكم ودعتكم وأمـانكم، كتب[158] في الرابع عشر لرجب الفرد الفرد عـام ثمـانيـة وأربعين وستمائة»[159].

وبـالتمعن في فصول هـذه الرسـالـة الجوابيـة الهـامـة، نلاحظ استغنـاء الكـاتب عن التصدير، واقتصـاره على ذكر الظروف التي أنشئت فيهـا. مقتضبـا السـلام، مستعمـلا الحمدلة، والتصلية على النبي المصطفى، وعلى آله وصحابته الكرام، والترضية عن القائم بـأمر اللـه، والخلفـاء الراشـدين. وعن الأمير أبي إسحاق. وبعدهـا دخل الموضـوع، خـاتمـا بالدعاء مع ذكر التاريخ.

وقد تفنن الكـاتب في أسلوب الرسـالـة، معتمـدا على التصـوير الفني، والتـأنق البـديعي الـذي من أبرز مظـاهر السجع. والتضمين القرآني.

وتسجل الرسالة عدة أحداث تـاريخيـة، أهمهـا عودة مدينة سبتة إلى أحضان الدولة الموحدية بزعامة الفقيـه أبي القـاسم العزفي، الـذي رشحـه أهلهـا لتقلـد أمـورهم، وتـدبير شؤونهم.

وكتب الرعيني عن الخليفة المعتضد في تقـديم نـاظر على المجبى الرسالة التالية : «وإنا كتبنـاه ـ كتب اللـه لكم توافقـا على المصـالح ـ وأن تعلموا أن النظر الجميـل يسـدد أنحـاءكم، ويمهـد أرجـاءكم، ويطلع عليكم من الخيرات مـا يطابق أملكم ورجاءكم، فـابشروا من كرم التعهـد لأحوالكم بمـا ينظم أموركم ويشمـل خـاصتكم وجمهـوركم[160]، ويقر عيونكم، ويبهج صـدوركم. وبـاللـه تعـالى نعتضد على مـا تتولاه للإسلام[161] وأهله من إفـاضـة البركـات على جوانبهم وجهاتهم، وإجادة العنايات بمصالحهم ومهمـاتهم، وهو المـان بعضـده، والهـادي إلى سـواء السبيـل وقصـده لا رب سـواه. وبحسب ذلكم قـدمنـا فـلانـا لينظر في مصـالحكم النظر الأسـد، ويتولى في ضم مجـابي المخـزن والمختص ثمرهمـا الله الجد الأسد. وقد[162] وصينـاه بتقوى الله تعالى فيما قدم إليـه من ذلكم، وأمرنـاه أن يسلـك جـادة الحق[163] في كل أحوالكم، وحـددنـا لـه أن يستوفي حقوق المخزن والمختص هنالكم أتم الاستيفاء، وأن يكون في الضبط لأشغـالهـا على ما قدر فيه من الغنـاء والاكتفـاء، وأن يعمل في ذلـك عملا ليحظيـه بـالأثرة والاعتنـاء. فـإذا وافـاكم بمعـونـة[164] اللـه فارجعوا بجميع أشغـالكم إليـه، وأعينوه على كل مـا قصرنـاه عليه، وتعاونوا معه على ما تحمدون أثره في حالكم ومـآلكم ويظهر فيه الموثر والمشكور[165] من أعمالكم ـ إن شاء اللـه تعـالى ـ وهو معينكم على مـا يرضـاه[166]، وميسركم لأقـوم سبيل وأهداه بمنه»[167].

153) سورة آل عمران : 117.
154) ص : 16.
155) محو حرفي الكاف والميم.
156) ص : 16.
157) محو اسم الجلالة.
158) محو حرف الكاف.
159) ص : 17.
160) سقوط حرف الجيم.

161) كلمة باهتة، لعلها ما أثبتناه.
162) محو قدرته بالمثبت.
163) كلمة باهتة.
164) سقوط حرفي الباء والعين.
165) سقوط حرف الميم.
166) بهت بآخر الكلمة.
167) ص : 55.

وتتميز الرسالة بالقصر، وعدم استهلالها بالمقدمات الفنية التي تمهد للموضوع الرئيس. ولعلها جاءت محذوفة من طرف الجامع، وقد التزم الكاتب فيها بأسلوب السجع كعادته، مظهرا تفننه فيه.

وبرع الرعيني في تقاديم القضاة، ومن نماذج هذا النوع، ما كتبه عن الخليفة المأمون في تقديم صنوه الفقيه أبي محمد على خطة القضاء بشريس، وهذا نصه : «أدام الله كرامتهم بتقواه، وأسبغ عليهم عوارف منّه الجزيلة ونعماه. وإنا كتبناه - كتب الله لكم نظرا تتعرفون يمنه في أقطاركم ولا تعدمون معه هدو أحوالكم وتمهيد قراركم، والعلم بأن الاعتناء بمكانكم يوجب تقويم أشغالكم فيما يقدم وإجراءكم مجرى من يصرف إليه التهمم. وبحسب ذلكم نتخير[168] المستعملين[169] فيكم ونحيذ الانتقاء لمن تقدمه في نواحيكم. والله تعالى يعين على إقامة المصالح وإدامة الحياطة للداني من الجهات والنازح. وإنا قدمنا فلانا للانفراد بالنظر في أحكامكم الشرعية، والاجتهاد في الفصل بينكم في النوازل الدينية، بعد أن تكرر مرارا استعماله، وتحقق غناؤه واستقلاله، وخبر فكانت جميلة أوصافه، ومشكورة خلاله، وقد أوصيناه بتقوى الله تعالى، وهي الجادة الواضحة[170]، والوسيلة الناجحة. وأمرناه أن يقف مع كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة فيما يبرمه وينقضه من أحكامه، وأن يصرف إلى ذلك وجه الاقتداء به وائتمامه، وأن يحافظ على الوصايا التي نأمر بها من التزام العدل والرفق والتصميم في كل طارئة تنشأ على الحق، وحددنا له أن يضبط شغل القضاء الذي أسند إليه وقصر عليه، وأن لا يقدم من المسددين، إلا من يتميز بالقبول ويرتسم في العدول ولا يقبل من الشهود إلا من عرف بالشهادة في العدالة وسداد الحالة، واشتهر[171] بالتيقظ والزكاء، واتصف بالنزاهة والزكاء، في الشهادة)[172] وهي أجل ما يحله من قضاياه ويعتقده، فعليه أن يحتاط لذلك جهده، ويضع قبوله حيث يجب ورده، وعليه أن يسوى في الحكم بين النبيه والخامل[174]، والمفضول والفاضل. فالشرع لا تعتبر فيه المناصب، ولا تلحظ في تنفيذه المراتب، ولا يرعى فيه إلا جانب الحق الذي دونه الجوانب. فإذا واخاكم - بمعونة الله تعالى - فاغتبطوا بقدومه على مكانكم، وواصلوا إنجاده في كل أحيانكم، وأديموا التعاون على البر والتقوى، وكونوا يدا واحدة فيما يراد بكم من الخير وينوى. واعلموا أنه اختير لكم بعد الاختبار، واستحسان ما تقدم له من السيرة في المواضع التي قدم عليها والآثار، والتقدير فيه للوفاء بمرتضى الإيراد والإصدار - إن شاء الله تعالى - وهو سبحانه يجمع[176] على طاعته أهواءكم، ويصرف إلى ما يرضاه أغراضكم وأنحاءكم، بمنه. والسلام. التاريخ : منتصف شهر شوال سنة ست وعشرين وستمائة»[177].

فقد استهل الرسالة بالدعاء للمخاطبين من أهل شريس، ثم الشروع مباشرة في تقديم صنوه أبي محمد الرعيني على قضائهم، مع تبيين ما روعي في تعيينه من اعتبارات، والوصايا التي زوده بها الخليفة، وختمها بالدعاء، وذكر التاريخ الذي كتبت فيه. وكتب أيضا عن ابن هود في تقديم صنوه على خطة القضاء بمالقة، بعد ذكر المكتوب إليهم والدعاء لهم، والحمدلة والتصلية على النبي ﷺ وآله وصحبه الكرام، والترضية عن الخليفة العباسي الذي يدين له بالولاء، منتقلا إلى هذه المخاطبة الجمهورية : «فإنا كتبناه - كتب الله لكم أجمل معتمد في حفظ نظامكم وأحسن منتحى وأجراكم من جميل النظر على ما يكون به متولى أحكامكم مختتما بالعدل ومفتتحا، ونحن نتوكل على الله تعالى فيما نحكم من أمر ونبرم من عقد ونستخيره في كل ما نتوخاه بالعزم إليه من حميد سعي وجميل قصد، ونسأله الهداية فيما نحاوله ونزاوله من صدر وورد، ونتلقى نعمه الجزيلة ومننه الموصولة بما

---

168) محو بمقدار كلمة لعله المقدر.
169) سقوط حرف التاء.
170) سقوط الحرف المقدر.
171) محو حرفي الهاء والراء.
172) محو بمقدار سطر.

173) محو حرف العين.
174) كلمة باهتة.
175) محو حرفي السيم والراء.
176) محو حرف الميم.
177) ص : 65 - 66.

يجب لها المزيد[178] من شكر وحمد. وإلى هذا فإن قطركم ذلك وأنظاره مما تزال نوفيه قسط العناية الحفيلة، ونتخير للاشتغال فيه من نتحقق وقوفه مع مذاهبنا الجميلة، وننهض لتقلد الفصل في الأحكام بين أهله من عرفناه بالنباهة والنزاهة والعدالة والفضيلة، وبحسب الصحيح من هذا الاعتبار والصريح من توخينا لكم وبجهاتكم بمزيد من التقديم والإيثار بالغنا في الانتقاء والاختبار، وعينا لخطة القضاء هنالكم من خبرناه فزاد نصوعا على الاختيار، واستعملناه في تبيهات البلاد المرة بعد المرة فحمدناه مع التفكرار وتردد المرار ذلكم فلان. وإنه لخليق بما قدمناه إليه من أحكامكم، وحقيق بما قصرناه عليه من الفصل في نوازل خصامكم، لإستظهاركم[179] بأوصاف العدالة والطهارة، واشتماله على كل موثر مسكور من السياسة والإدارة، وكونه مجبولا على الشيم المستحسنة والسجايا المختارة، وما زالت هذه الخلال فيه منذ استعملناه على مر السنين تتضح[180] وتستبين، ومنازعه في نقضه وإبرامه[181] وإمضائه وارتيابه لا يعدوها السداد[182] ولا يريمها الدين. وقد ألقينا إليه من الوصايا الجامعة ما يلقاه بحسن قبوله. وحددنا له أن يبني أحكامه كلها على مقتضى كتاب الله وسنة رسوله[183]، وأن يقتدي بإجماع الأمة وفتاوي الأئمة في مقوله ومفعوله، وأكدنا عليه في أن يختار المسددين للجهات كلها وينتقيهم، وألا يستعمل[184] إلا زكيهم وتقيهم، وأن يكون لهم متعهدا في كل الأحوال، وآخذا فيهم بما يقتضيه نظره من الإقرار والاستبدال، وكذلك فليكن عمله في الشهود الذين تصح الحقوق بهم أو تبطل، وبشهادتهم يرد ما يقبح ويقبل ما يحمد. وأمرناه أن يحتاط للحسبة التي هي قوام المعايش والمرافق، وألا يتولاها في موضع من المواضع إلا الشهير له بنزاهة التناولات، وسداد الطرائق وإجراء للأحكام الشرعية على القوانين المرتضاة، واقتضاء في إقامة الحق وإشاعة العدل لسبل العدول من القضاة، وعملا في توفية المذاهب المشكورة بالسير الملتمسة منه المقتضاة. فإذا وافاكم بمعونة الله تعالى فاعلموا أنا آثرناكم باستعماله في أقطاركم، ورضينا لكم محمود جواره ورضينا له محمود جواركم، واخترناه لكم واخترناكم له عملا بموجب إيثاره وإيثاركم، فلتكونوا معه يدا واحدة على ما أنهضناه إليه من تقلد أحكامكم ولتوالوه كل الموالاة بغاية جدكم واعتزامكم - إن شاء الله - وهو سبحانه يعرفكم يمن مقدمه، ويوجدكم بركة استعماله وسعادة تقدمه، بمن الله تعالى وكرمه والسلام، التاريخ غرة ربيع الآخر عام أربعة وثلاثين وستمائة»[185].

توحي الرسالة بخضوع مدينة مالقة ونواحيها لسلطة ابن هود، بعد أن كانت تابعة للامبراطورية الموحدية، وباهتمام هذه الإمارة الجديدة بخطة القضاء، وتقليدها لمن ترسوا بها كأبي محمد الرعيني صنو الكاتب. ومما يلاحظ في الوصايا التي وجهت إلى القاضي، الاعتناء بنظام الحسبة، واعتباره من المهام المتعلقة باختصاصات نظام القضاء.

وكتب عن الخليفة الرشيد في تقديم صنوه أيضا أبي محمد على خطة القضاء بشريس وما إليها : «وإنا كتبناه[186] كتب الله لكم استقبالا لأيمن النظر وأحسنه، وإقبالا فيما يعود بصلاح أحوالكم، ونجاح آمالكم على أوح السنن وأبينه، وأن تعلموا أن مصالحكم معتمدة بالاعتناء، وأن جوانبكم متعهدة بالرعاية في كل الآناء، وأنكم موفون من نظرنا لأجمل مالا يغبكم منه نظام الأمور وسداد الأنحاء[188] وبهذا الاعتبار نتخير لأحكامكم من يعينه

178) محو حرفي الياء والدال.
179) كلمة باهتة.
180) سقوط نقطة الضاد.
181) محو حرف الباء.
182) سقوط ألف التعريف.
183) محو حرف السين.
184) محو حرف الميم.
185) ص : 68 - 69.
186) محو حرفي الباء والنون.
187) محو حرفي الفاء والياء.
188) محو حرف الألف من آخر الكلمة.

الارتضاء، ونوثر بتقلد أشغالكم[189] من عرف منه الصلاح وألف لديه الغناء. والآن قدمنا فلانا لخطة القضاء بينكم والفصل، وإجراء نوازلكم الشرعية على قانون النصفة والعدل. وقد تردد فيكم استعماله، وتقرر اضطلاعه واستقلاله، وتميزت بالنباهة والنزاهة خلاله، وهو موصى بتقوى الله وسنة رسوله عليه السلام، وإجماع الأمة فيما يمضيه من الأحكام، ويقتدي في كل أحواله بمن سلف من أئمة الدين وأعلام الإسلام، وأن يستعمل من النواب والشهود إلا من تنزه عن الظنة والاتهام، واتصف من موجبات القبول بما تنفذ به الشهادات عند الحكام. فإذا وافاكم قاضيكم المذكور، فتعاونوا معه على البر والتقوى كل التعاون، وتوافقوا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما يقتضي[190] بالرجحان عند التوازن، والله يستعمله وإياكم وأزكى المساعي والأعمال[191]، ويعرفكم[192] هذا النظر في كل الأحوال، بمنه، والسلام التاريخ : غرة ذي[193] القعدة عام ستة وثلاثين وستمائة[194].

تفصح الرسالة في مخاطبة أهل شريس عن العناية الفائقة التي توليها الخلافة الموحدية للقطر الأندلسي في مجال الأحكام الشرعية، ومن ثم كان اختيار من حنكته التجارب على رأس حواضره، دعما للوجود الإسلامي بها، ومحافظة على استقرار حياة أبنائها وأمنهم.

ونجد نفس الحرص على تطبيق الأحكام الشرعية في مغرب الموحدين، من طرف الخليفة المعتضد، الذي كان يختار من القضاة أكثرهم تمرسا وخبرة، ويتجلى ذلك في نص الرسالة التالية، التي كتبها عنه الرعيني في إعادة قاض :

«كتب الله لكم نظرا يطرد لأحوالكم صلاحها، وسلك بكم على جادة توفيقه التي لا ينبهم تبينها واتضاحها. وأن تعلموا أن اعتناءنا بكم يقضي[195] أن لا نغبكم بالنظر الجميل في كل الأحيان. وأن تطرد فيكم سير العدل والإحسان، وأن يعين لمصالحكم وأشغالكم من عرفنا تأهله لديكم[196] بتردد الخبرة وتكرر الامتحان. وبهذا الاعتبار أعدنا الآن إلى تولى أحكامكم الشرعية، وتقلد النظر في نوازلكم الدينية فلانا إعادة تفرده بالفصل بينكم والقضاء، وتشهد بما تأكد له لدينا من موجبات التأهيل لذلكم والارتضاء، وتنبيء[197] بما تضاعف له عندنا من مزيات الإيثار والاعتناء. فهو ممن تميز بالخدم[198] الحديثة والقديمة، وتبين سلوكه على تردد استعماله في هذه الخطة للطرق الواضحة والسبل القويمة. وقد تقدم إليه بالوصية الأكيدة في أن يكون على تقوى الله تعالى مداره، وأن لا يعدل عن كتاب الله تعالى، وسنة رسوله وإجماع الأمة إيراده وإصداره، وأن لا يستعمل من النواب عنه إلا الأذكياء الذين يحسن لهم اختياره، والشهود هم مستند الحكم فيما يمضيه أو يتوقف فيه، فليقدم انتقاءهم جهده، ولا يقبل منهم إلا من صحت عدالته عنده، وليجعل التسوية في الحكم بين المشروف والشريف، والقوي والضعيف من أهم ما يصرف إليه قصده، وليتول النظر في حسبة الطعام[199] تولى من يصدع فيها بالحق، ويجريها على أقوم الطرق إظهارا[200] لمذاهبنا في العدل والرفق، واعتمادا على ما نوثره من استقامة الأحوال لكافة الخلق. فائتمروا لما أسندناه إليه أحسن ائتمار، واستمروا على ما تحسن آثاركم (به من)[201] إعانته أجمل الاستمرار. واعلموا أنا اثرناكم به عن حسن نظر لكم واختيار وأنتم تعرفون في عودته هذه إليكم من حسن سيرته فيكم ما حصلتم قبل[202] منه على معرفة[203] واختبار إن شاء الله تعالى وهو سبحانه يوجدكم يمن نظرنا في كل أموركم، ويعرفكم أتم عائد بالخيرات

189) محو حرفي الغين والألف.
190) محو بمقدار كلمة.
191) كلمة باهتة.
192) محو حرف الراء.
193) بهت الحرف الأول، ومحو الحرف الثاني.
194) ص : 75.
195) محو حرفي الياء والقاف.
196) سقوط نقطتي الياء.

197) محو حرفي الباء والميم.
198) سقوط نقطة الخاء.
199) بهت في الكلمة.
200) محو حرف الظاد.
201) محو قدرته بالمثبت.
202) محو حرف القاف.
203) محو حرف الميم.

على خاصتكم وجمهوركم بمنه. والسلام. التاريخ، منتصف شوال عام أربعين وستمائة»[204].

ونستخلص من هذا العرض النتائج التالية :

1 ـ إن مجموع الرعيني يعد بحق من أهم المجاميع المتخصصة في فن الرسائل السلطانية، والمتمحورة حول موضوع التعيينات، وهو ما جعله يتميز عن غيره من المجاميع التي ظهرت حتى الآن، بطابع الجدة، هذا بالإضافة إلى كونه يلخص الخصائص الفنية التي اتسم بها هذا اللون من الرسائل شكلا ومضمونا.

2 ـ إنه يكشف لنا عن مظاهر التطور في فن الترسيل ضمن حركة النثر الفني، التي عرفت أكبر نهضة في الجناح الغربي من العالم العربي والإسلامي خلال العصر الموحدي، خلافا لما كان عليه الشأن في بلاد المشرق، حيث انحلال الخلافة العباسية وانعكاس ذلك على الحياة الفكرية والأدبية، فانحط النثر الفني وأصبح بضاعة رديئة، خاليا من المسحة الفنية.

3 ـ يعطينا صورة عن الحياة الفكرية في أجلى مظاهرها، سواء الدينية منها أو اللسانية أو الأدبية، أو غيرها مما ازدهرت في هذا العصر وبلغت الأوج.

4 ـ يزودنا بمعلومات تاريخية هامة، نخص بالذكر منها، حركات الانفصال التي وقعت في بلاد الأندلس على يد الثائر المنشق ابن هود، بعد أن ضعف النفوذ السياسي للموحدين فيها، وأصبحت مهددة بحملات الصليبيين الاستردادية الشرسة التي كان هدفها الأسمى هو القضاء على الوجود العربي والإسلامي بهذه البلاد ومحو آثاره.

هذا فضلا عن الاضطرابات والفتن اللتين كانتا تسودان أطراف الدولة الموحدية وتهدداتها بالانقسام والاضمحلال. ومن ثم يعتبر المجموع أحد المصادر التاريخية الهامة، الحافل بالأحداث الكبرى والوقائع الخطيرة، مما يمد المؤرخين والدارسين بالمادة الخام التي يعتمدون عليها في هذا العصر. وقد بدأ بعضهم فعلا يستغل هذا المجموع في إعداد دراسات موضوعية جادة، ما أحوج المكتبة الموحدية إليها.

5 ـ يطلعنا المجموع على بعض النظم الإدارية التي كانت تحظى بعناية الدولة الموحدية الفائقة، وتتعهدها بالرعاية والحزم الصارم، مثل الولاية، والقضاء، والحسبة، والجباية، والجيش والأسطول. ومن شأن هذه الرسائل أن تسعف الباحثين والدارسين في تكوين صورة جلية عن النظم المذكور، وبالتالي عن النظام السياسي العام الذي تنتظم جميعا في سلكه.

6 ـ يرسم لنا صورة واضحة المعالم عن شخصية صاحب الرسائل، الأدبية والثقافية، فهو كاتب جهبيذ متمرس في إنشاء الرسائل الديوانية وتدبيجها بأفانين البديع، وأساليب البيان،وعالم ضليع في علوم اللسان العربي، فرسائله بهذه المواصفات، لوحات فنية رفيعة تمتع العين والروح، وتغني العقل بعطاءاتها الفكرية الثرة.

هذا فضلا عما تنضح به من علوم دينية، وخاصة علوم القرآن والحديث، التي كان له فيها باع طويل.

ولعله اكتسب كل هذه الحنكة في مجال الكتابة الديوانية بفضل ممارسته الطويلة لها بالبلاط الموحدي.

7 ـ يمثل المجموع قيمة تراثية رفيعة، تحفز هم الحريصين على تراثنا المخطوط، والداعين إلى إحياء ذخائره وبعثها، على الإطلاع عليه ودراسته بموضوعية وأناة، ونشر مأثوراته الأدبية والتاريخية ليتعرف عليها شبابنا المتعطش للمعرفة، المتشبث بأصالته، والمحافظ على تراثه التليد، ممن لم تجرفه، بطبيعة الحال، موجة التغريب العاتية التي تجتاح عالمنا اليوم.

مكناس : العلوي البلغيثي

---

204) ص : 81 ـ 82.



1 ـ موضوع نظم الدالية :

الدالية قصيدة من البحر البسيط، عدد أبياتها 144، رويها دال، نظمها صاحبها الشيخ أبو عبد الله محمد بن مبارك السجلماسي المغراوي لتوضيح أحكام تخفيف الهمزة لحمزة وهشام.

ومعلوم أن تخفيف الهمز لحمزة وهشام يعسر، لا فقط على المبتدئ غير المتمكن، بل أيضا حتى على البارع المدقق الحافظ.

من أجل هذه الصعوبة التي يحسُّ بها كل قارئ للقرآن الكريم قال شيخ الجماعة القيسي :

مهما ابتـــدأت الهمـــز نفـي تقشعر
ومن دخـــولي في علـــومهـــا تفر
لكن بعـــون اللـــــه استعين
إذ كان من أسمائـــــــــه المعين

قال المحقق الجعبري : «هذا الباب (يقصد باب وقف حمزة وهشام على الهمزة[1]) يهم أنواع التخفيف، ومن ثم عسر ضبطه». ثم زاد قائلاً: «إن الطالب قد لايقف عند قراءته على شيخه فتفوته أشياء، فإذا عرض له وقف بعد ذلك أو سئل لم يجد له أداء، وقد لا يتمكن بإلحاقه بنظائره فيتحير فينبغي للشيخ أن يبالغ في توقيف من يقرأ عليه عند المرور بالهمز صونا للرواية؛ ولغموضه أفرد له جماعة من المصنفين تصنيفاً كابن مهران وأبي الحسن بن غلبون والداني».

2 ـ صاحب الدالية :

هو أبو عبد الله محمد بن مبارك المغراوي؛ ولد بفاس سنة 1019 هـ وأخذ بها عن أبي محمد عبد القادر الفاسي الذي كان يفضله على جميع طلبته لشدة فطنته وذكائه. كان رحمه الله حسن الصوت بالقراءة، نحوياً بارعاً وفقيهاً مجتهداً وقارئاً مبرزاً مقصوداً لدقته ونباهته. أم بضريح المولى ادريس وتقلد مهام الوعظ به وبجامع القرويين.

أخذ عنه الشيخ عبد الله بن إبراهيم الوزاني الذي قرأ عليه القرآن العظيم بالرويات السبع، وأما هو فقد أخذ القرآن والقراءات عن شيخ الاقراء بفاس الأستاذ أبي زيد عبد الرحمن بن أبي القاسم بن أبي العافية المشهور بابن القاضي ألف، رحمه الله أجوبة في أمور شتى كما ألف «**الدالية في تخفيف الهمز لحمزة وهشام في الوقف**».

---

1) انظر شرحه على حرز الأماني للإمام الشاطبي، باب وقف حمزة وهشام على الهمز مخطوطا بخزانتي.

توفي رحمه الله في خامس ربيع الأول من عام 1092 هـ ودفن بروضة الشرفاء الطاهريين الكغادين بعدوة فاس الأندلس.[2]

3 - المصنفات في تخفيف الهمز لحمزة وهشام :

لقد صنف في هذا الموضوع، بعد أولئك الأعلام الذين ذكرهم الإمام الجعبري، علماء تآليف اطلعت منها على ما يأتي.

1 - **تحفة الأنام في وقف حمزة وهشام** التي تنتسب لعبد الله القيجاني الشافعي.[3] توجد من هذه التحفة ثلاث نسخ في المغرب؛ واحدة في الخزانة الحسنية تحت رقم 10868 وهي بخط مغربي معتاد، وثانية في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 988 ك وثالثة في الخزانة العامة بتطوان تحت رقم 273.

2 - **اختصار التحفة في وقف حمزة وهشام** وهو مختصر لتحفة الأنام السابقة الذكر أنجزه احد تلامذة الشيخ عبد الرحمن بن ادريس المنجرة المتوفى سنة 1179. يعرف هذا التلميذ باسم أحمد بن العياشي القرشي الصنهاجي. يوجد هذا المؤلف مخطوطاً بالخزانة العامة بمدينة تطوان تحت رقم 549.

3 - **تقريب الكلام في تخفيف الهمزة لحمزة وهشام** ألفه أبو العلاء ادريس بن محمد المنجرة الحسني المتوفى سنة 1137 هـ. يوجد التقريب عندنا في المغرب في ثلاث نسخ؛ واحدة في الخزانة الملكية تحت رقم 1/10416 وثانية في خزانة مدينة تطوان مسجلة فيها تحت رقم 125، وثالثة في الخزانة الصبيحية بمدينة سلا وهي، بالتأكيد لأبي العلاء المنجرة وإن كان الأستاذ حجي لم يشر إلى المؤلف في فهرسته.

4 - **حاشية على تقريب الكلام في تخفيف الهمزة لحمزة وهشام** وهو، كما يدلّ عليه الاسم، مختصر للتقريب قام بإنجازه ابن المؤلف أبو زيد عبد الرحمن بن ادريس المنجرة الحسني المتوفى سنة 1179.

توجد من هذا الكتاب نسخة خطية بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 2/10416.

5 - **تقييد في مشهور الوقف على الهمز لحمزة وهشام** تأليف الفقيه الحسن ابن محمد بن أبي زيد الحزاني الحسني المتوفى بعد سنة 1211 هـ.

يوجد هذا التقييد في الخزانة الحسنية تحت رقم 5237.

6 - **روضة المقام في مشهور الوقف على الهمز لحزة وهشام** تأليف الحسن بن محمد أبو زيد صاحب التقييد السابق الذكر، توجد من الروضة ست نسخ في المغرب، ثلاث منها في الخزانة الملكية مسجلة فيها تحت الأرقام 7/1051 و 6965 و 7689 وواحدة في الخزانة العامة بالرباط مودعة فيها تحت رقم 3/2465 د وواحدة في خزانة ابن يوسف بمراكش تحت رقم 1/354 وواحدة في الخزانة العامة بمدينة تطوان تحت رقم 1/354.

7 - **شرح باب وقف حمزة وهشام.**[4] تأليف بدر الدين الحسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي المعروف بابن أم قاسم نسبة إلى جدته من أبيه زهراء التي رحلت من أسفي إلى مصر. توفي المرادي هذا يوم عيد الفطر سنة 749 هـ. ودفن بسريا قوس.

يوجد هذا الشرح مخطوطاً في الخزانة الحسنية تحت الأرقام 2/887 و2/1243 و7232. ويوجد أيضاً في خزانة المسجد الكبير بوزان تحت رقم 815 وفي خزانة مدينة تطوان نسختان منه تحت الرقمين 442 و560. وفي خزانة دار الكتب الظاهرية نسخة منه تحت رقم 318 (29 القراءات).

وهذا الكتاب هو في الحقيقة شرح لباب وقف حمزة وهشام على الهمز من حرز الأماني.

8 - **مقالة الأئمة الأعلام في تخفيف الهمز لحمزة وهشام** للشيخ أبي زيد عبد الرحمن ابن أبي القاسم ابن القاضي. توجد عندي من هذا الكتاب نسخة خطية كاملة، كما توجد منه ثلاث نسخ في الخزانة الحسنية تحت الأرقام 3/887 و6187 و8289 ونسخة في الخزانة العامة بتطوان تحت

2) توجد ترجمته في حلوة الأنفاس ج 2 ص 88، طبعة حجرية بفاس. وفي مناقب الإمام أبي عبد الله محمد أحمد الحضيكي ج 2 ص 58، طبعة الدار البيضاء 1357 هـ.

3) وقد تنسب لأبي البقاء علي بن عثمان ابن القاصح العذري.

4) يحمل كتاب المرادي في بعض الأحيان، كما هو الشأن في الخزانة الحسنية : شرح باب وقف حمزة وهشام على الهمز.

رقم 853 ونسخة في الخزانة الناصرية بتكروت تحت رقم 3115 وواحدة في الخزانة العامة بمراكش تحت رقم 162.

9 - **بيان حكم الوقف على الهمز لحمزة وهشام** تأليف محمد بن عبد السلام الفاسي.

هذا الكتاب عبارة عن فصلة من كتاب مشهور للمؤلف هو : إتحاف الاود المتداني بمحاذي حرز الأماني. توجد منه نسخة بتطوان تحت رقم 125.

10 - **الوقف على الهمز لحمزة وهشام** للحسن بن محمد أبو زيد. توجد نسخة منه في الخزانة الصبيحية بسلا تحت رقم 4/281. لم أطلع عليها بعد، فقد تكون هي «روضة المقام» أو «تقييد في مشهور الهمز المذكورين في الرقمين 5 و 6.

4 - وقف حمزة وهشام منظوماً :

زيادة طبعاً على الباب الذي عقده الإمام أبو محمد بن فيرو ابن أبي القاسم بن خلف ابن أحمد الرعيني الأندلسي الشاطبي نظم فيه أحكام وقف حمزة وهشام على الهمز والذي شرحه قوم لانحصي عددهم فإن كثيراً من القراء المغاربة على الخصوص أفردوا هذا الموضوع المعقد بنظم ليسهل حفظه والرجوع إليه في كل وقت وحين، أذكر منها :

1 - **أحكام الهمز عند الوقف** تأليف الشيخ المقرئ محمد بن عبد السلام بن العربي الفاسي المتوفى سنة 1214 هـ.

توجد نسخة من هذا النظم في الخزانة الملكية تحت رقم 1/3604.

2 - **منظومة في تخفيف الهمز على مذهب حمزة وهشام** تأليف أبي الحسن علي ابن علي الحساني.

توجد نسخة من هذه المنظومة في الخزانة الملكية تحت رقم 10/10416.

3 - **تكميل الكلام وتقريب الكلام في تخفيف الهمز لحمزة وهشام** نظمه أبو الحسن علي الأحرشي العمراني معاصر للشيخ أبي العلاء ادريس بن محمد المنجرة مؤلف تقريب الكلام (انظر الكتاب رقم 3).

توجد نسخة من التكميل في الخزانة العامة بتطوان تحت رقم 881.

5 - شراح دالية السجلماسي :

لقد أحس أئمة القراء بأهمية قصيدة الإمام السجلماسي فتصدوا لها بالشرح والتحليل. وهذه هي الشروح التي أعرفها لهذه الأرجوزة المفيدة.

1 - **النهج المتدارك في شرح دالية ابن المبارك :**

أسمي «النهج المتدارك» بالشرح الأول للدالية وأسمي صاحب الشرح وهو العلامة أبو العلاء ادريس بن محمد المنجرة الحسني الشارح الأول للدالية.

يتوفر المغرب على ثلاث نسخ للشرح الأول للدالية. توجد النسخة الأولى منه في الخزانة الحسنية تحت رقم 1/1064 تبتدئ فيه من1 أ وتنتهي في 62 ب وفي هذه الخزانة نفسها نسخة ثانية تحمل الرقم 11474 ز/10 وتوجد النسخة الثالثة منها في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 974 ك.

يبدأ الشارح نهجه بقوله :

«الحمد لله الذي أنزل القرآن العزيز كلامه المرفع».

وينهيه بقوله : «وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

2 - **تنبيه السالك إلى جنا ثمار دالية ابن المبارك :**

هذا، والله أعلم، هو الشرح الثاني لدالية ابن المبارك ويكون شارحها وهو أبو القاسم بن علي بن دري (ابن دراوة) الشاوي العلاوي المتوفى سنة 1150 هـ هو الشارح الثاني للدالية.

يوجد من تنبيه السالك نسختان خطيتان في المغرب، واحدة في الخزانة الحسنية تحت رقم 4/119 وثانية في خزانة جامعة القرويين تحت رقم 1042.

3 - **المقالة الوافية في شرح القصيدة الدالية :**

هذا هو الشرح الثالث للدالية قام بإنجازه أبو العباس أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي المتوفى عام 1156 هـ (1743م).

لا أعرف لهذا الشرح إلا نسخة واحدة وهي موجودة في الخزانة الحسنية بالرباط مودعة فيها تحت رقم 1/10881.

بدأ الشارح شرحه بقوله : الحمد لله الذي أورث كتابه المصطفين من ذوي التوفيق، وختمه بقوله : «يا أرحم الراحمين، يارب العالمين، إنك على كل شيء قدير».

4 ـ الفتوحات الربانية في شرح المنظومة الدالية :

هذا الشرح هو الشرح الرابع للدالية ألفه القارئ ابراهيم ابن محمد الخلوفي العيسوي السرغيني من معاصري أبي زيد عبد الرحمن بن ادريس الحسني المنجرة. أنجز شرحه هذا قبل وفاة المنجرة بست سنوات.

يوجد من هذا المصنف في المغرب ثلاث نسخ خطية اثنتان مودعتان في الخزانة الحسنية تحت الرقمين 2/761 و 4135 وثالثة في خزانة زاوية تنغملت بإقليم بني ملال. تحت رقم 348 ضمن مجموع.

بدأ الشارح كتابه بقوله : «الحمد لله الذي أورث كتابه العزيز خواص عباده» وأنهاه بقوله : «وكان الفراغ من تبييضه عشية يوم الخميس الثالث والعشرين من رمضان المعظم سنة تمام المائتين بعد ألف بمدينة مراكش. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

5 ـ المقاصد النامية في شرح الدالية للسجلماسي :

هذا أشهر شرح للدالية على الإطلاق. ولشهرته التي طبقت الآفاق اعتنى به المغاربة عناية خاصة فانكبوا عليه ينسخونه ويتدارسونه في مساجدهم ومدارسهم حقباً طويلة.

أعرف لهذا الشرح الذي أحققه الآن 35 نسخة، توجد منها في مكتبتي نسختان كلاهما بخط مغربي جميل وتوجد منها في الخزانة الحسنية بالرباط 16 نسخة أرقامها بالتتابع كما يلي :

1/887 ـ 4/1064 ـ 1454 ـ 2255 ـ 1/2910 ـ 3852 ـ 5225 ـ 5698 ـ 6608 ـ 7138 ـ 7147 ـ 1/7448 ـ 11200ز/1 ـ 11204ز/1 ـ 11551ز/2 ـ 12243ز/2.

وتوجد في خزانة القرويين بفاس نسختان منها تحت الرقمين 2/558 ـ 5/1052.

وتوجد منها في الخزانة العامة بتطوان 5 نسخ تحمل الأرقام الآتية :

560 ـ 739 ـ 853 ـ 4/903 ـ 663.

ونجد في الخزانة العامة بالرباط منها سبعاً، هي :

379/د ـ 1649/د ـ 1/2138 د ـ 3/2186 د ـ 2/2465 د ـ 2891/د ـ 4356/د.

ونجد واحدة في خزانة زاوية تنغملت بإقليم بن ملال تحت الرقم 560.

ونسختان في الخزانة الناصرية بتمكروت تحت الرقمين 1751 ـ 3102.

يبدأ هذا الشرح بقوله : «الحمد لله الذي سهل كتابه على من يشاء من عباده» وينتهي بقوله : «وكن لي ولياً ونصيراً في حياتي ومماتي ونشري وحشري وعند كل هول وعند كل فزع وتولني بفضلك في كل حال ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك؛ أسألك بأسمائك ورسلك وملائكتك وأوليائك يا أرحم الراحمين يارب العالمين إنك على كل شي قدير».

6 ـ القطوف الدانية في شرح الدالية تأليف محمد ابن عبد السلام بن العربي الفاسي أعرف لهذا الشرح سبع نسخ : ثلاث في الخزانة الحسنية هي : 1/997 و 6/1057 و11007. واثنتان في الخزانة العامة بالرباط هي : 1/379 و1756/د وواحدة في الخزانة العامة بمدينة تطوان تحت الرقم 739 وواحدة في خزانة زاوية تنغملت بإقليم بني ملال تحت رقم 348 ضمن مجموع.

6 ـ أرجوزة الدالية :

الغاية التي أسعى إليها من نشري لدالية السجلماسي هي أن يتوفر القراء المغاربة والمهتمون بالدرس اللساني العربي على العموم وعلماء الأصوات على الخصوص على نص موثق حول تخفيف الهمز للبدر حمزه وللراوي هشام. والدالية أرجوزة جمعت كل أحكام تخفيف الهمز عند القارئين المذكورين

بشكل مبسط وسهل لم يسبق أن قدم مثله من قارئ مغربي متمكن من فنه.

1 - حمدا لمن حفظ القرآن للأبد
مهلاً لذوي التجويد والسند

2 - ثم الصلاة على من قد سرى وعلا
فخص بالقرب والإكرام والمدد

3 - محمد قطب دولب الوجود وأصـ
ـل نشأة الخلق من جوهره الفرد

4 - وآله والصحاب النصراء له
من قر دين الهدى بهم على عمد

5 - وبعد خذ ضبط قانون يفيدك في
تخفيف حرة همز الوقف واعتمد

6 - وما يوافقه فيه هشام إذا
ما حل منزلة الأطراف ذو كبد

7 - على قياس لغة الفصحاء وما
يتبع الرسم فيه غير ذي فند

مقدمة في حكم وقف القياس والرسم

9 - الوقف بالرسم للجمهور ممتنع
إذ بعض أفراده في النقل لم ترد

10 - لذاك استعملوا حذو القياس به
وطرحوا ما سواه طرح مفتقد

11 - وبعضهم أوجب الرسم وحجته
شرط القبول وفاق الرسم فاقتصد

12 - وعمموا كل فرد فيه فانبهروا
ولم يصل جري مستقصيه للشرد

13 - والداني والشاطبي وابن شريحهم
قد انتقوه إذا نص القياس هد

14 - ولو على وجهه المرجوح جا كنبو
وسيبويه روى هذا الكلوا فرد

15 - والمرتضى صحة الإسناد فيه وإن
لم يلف فهو شذوذ ليس ذا عضد

16 - واجمعوا أنه ليس يغير للر
سم سوى الهمز من مجاور نكد

17 - لذلك ماحذفو هاوي جزؤا ولم
يثبت له رائد معه فينتهد

باب الهمز المصدر حقيقة أو حكماً

18 - إن لم يكن قبل همز ما يوسطه
حققه وانقل لساكن ولا ترد

19 - ربما به غير ما جا بعده ألف
فالرسم فيه ينقل كالقياس ند

20 - وإن تزد قبل ما ان شئت تفصله
حقق وخففه والتخفيف إن ترد

21 - فارع قواعده وأل يكون الوجـ
ـهان فرعين للتحقيق فاجتهد

22 - وقال في الكنز ما كان كحينئذ
للامتزاج فسهل همزه فقد

23 - وذا بتيسيرنا فيا توسط لا
بزائد وكذا جاء ويكأن بد

24 - ووافق الرسم مورد القياس بين
بين في كل هذا الباب وارتصد

25 - مواضع المنع كالمكسور من بعديا
أو الذي ضم نحو يأولي وقد

26 - كلإلى أفإين بأن سألقي لأ
مه لأخريهم إشل حكمها تفد

27 - بثالث بدلا لدى القياس وسـ
ـهل ما بقي وامنع الرسم بها تجد

28 - كذاك ما أفردوا بصورة غير باب
آلد املك به تفصيل معتمد

29 - إن صوروا أولا فالرسم ممتنع
أو صوروا ثانيا صفه بمتحد

30 - وكشاوي على العكس وإن نقلا
لا عكس وفق أو امنع فيها تقد

31 - هذا إذا أفإئن صورته ألفا
وإن تك الياء سهل فيها تسد

32 - ما كتبوه على الوصل فرسمهم
وفق القياس فهل وابدلن تفد

33 - ياء لئلا بأييد مع بأييكم
وإن يك الزيد ياء فامنعه واعتمد

34 - وسأوريكم إذ الواو لصورته سـ
ـهل وإلا امنعن لا تخش من أحد

35 - وامنع مع اللام إلا نحو الآية فـ
ـالنقل يكون جماعا لها فقد

36 - في نحو فاتوا فأبدل فيها ألفا
دليله الكتب في المرسوم لاتزد

37 - وكالذي وتمن قد ورد فيه والإبـ
ـدال لا التحقيق فيه رد

38 - إذ همز وصل كجزء عندما بدءوا
ونده ما به الوصل بلا فند

39 - فإن وصلت فقد يحظى الوفاق به
وإن بهمز بدأت كان فيه بد

باب الهمز الساكن والمسكن
طرفا للوقف

40 - وإن يكن ساكنا أو جا محركه
في طرف كيشأ جئنا امرؤا وزد

41 - كلؤلؤ أبدلوا حرفا يناسب ما
قبل وذا رسمه أخبره فيتخذ

42 - إلا حروفا روى الغازي تفردها
عن القياس فتابع رسمها الفرد

43 - هيئ يهيئ مع السيء وجيء معه
بما يداني كمتهزءون في مدد

44 - وإنما رسم الغازي بها ألفا كـ
ـراهة الجمع والحذف هناك صد

45 - من نبإ الياء سكن صورة وإذا
تزده فهو كغير جاء في عدد

46 - وبين بين قياس الهمز في ملإ
مع الضمير فقل به ولا تكد

47 - والرسم ذاك إذا اليا صورة كتبت
وإن تك الزيد فامنعه به وذد

48 - وكلما حذفوا من صورة ألف
مثل امتلأت وفادا رأتم الشرد

49 - قد منع الرسم فيه جهبد علم
ورأيه في العلوم رأي مجتهد

50 - تؤي ورءيا ورءيا أظهروا بدلا
لدى القياس اعتبار الأصل والسند

51 - وقيل ابدلوا وأدغموه له
وذا المرافق وقف الرسم فاتئد

52 - لكن رءيا ضعيف القلب في بدل
ومن يخفف لرسم ياها فرد

باب الهمز بعد ساكن

53 - الهمز بعد سكون صح نقلهم
هو القياس كذاك الرسم لا تعد

54 - كمثل ظمئان والقرآن يسئله
فسئل ولا يئم المرء دعا الرشد

55 - ونحو يائس فيه الوقف متحد
ولا اعتبار بما زادوه من عمد

56 - وقيل بالقلب كالبزي فهو إذا
لدى الوقوف برسم غير متحد

57 - هزؤا وكفؤا بنقل فيها وقفوا
والرسم بالواو كفؤا جاء في الصمد

58 - والنشأة انقل ويسئلون عن بقيا
س ولدى الرسم جاء قول مقتصد

59 - بالنقل ثم بإبدال على لغة
قالوا كماة والأصل كمأة الرمد

60 - الآن ولأيكة المحذوف همزته
فالوقف وفق بنقل فيه واجتهد

61 - وابدأ بنقل بلا وصل وحذفها
إمارة لاعتداد العارض العند

62 - والان في الجن كالغير وإن ألفا
صورت همزا فمنع الرسم للأبد

فصل في الهمز المتطرف بعد حروف المد واللين

63 - وما تطرف بعد ساكن ألف … متحد باعتبارين فسل تفد

64 - أبدله واحذف ومد واقصرن إذا … الثاني حذفت ولا ترهب حمى أحد

65 - وإن بأول كان الحذف فلتقفن بالـ … ـقصر إذ ليس ذو مد به فقد

66 - وكقروء وسوء والنسيء وشيء … ادغمن وانقلن للأصل فيه ثد

67 - ولأبي العز نقل للمزيد كما للأصـ … ـل واتبع سبيل القصد تعتقد

68 - وطابق الرسم كل في محاسنه … فانصب حبالك في أوكارها تصد

69 - وإن نقلت لواو أولياء إذا وقفت … فاقصر ولا تمططه في أمد

70 - وقال في الكنز بالوجهين فيه كما … عند السخاوي وذا المروي فانتهد

71 - لولا الرواية كان العزم فيه على … ما قال في النشر ذو علم به فرد

72 - ولتنوأ تبوأ مع يسوء إذا … قدرت ما بعد واو زائد تجد

73 - وعند ذاك يكون الرسم متحدا … مع القياس بنقل فيه واعتقد

74 - أو بادغام وذا للبعض جاء في … الأصل كما قد مضى فكن على جهد

75 - وإن يكن صورة فامنع ثلاثتها … على الصحيح لجمع الساكنين عد

76 - وقال في الكنز فتح الواو مع ألف في … أن تبوأ وقس وفرقن تسد

فصل في الهمز المتوسط بعد حروف المد واللين

77 - وإن يكن الهمز حشوا بعد ساكنه … فانقل لأصليه وأدغم إن تزد

78 - وزاد للأصل إدغاما ورسمهم … يوافق الكل إلا ما انتقى عدد

79 - موئلا سهل وأبدل بنقلهم … للرسم وامنعه في السوأى لمعتصد

80 - ومن يقل بلزوم الرسم قول أبي العـ … ـلاء ينحو به لبين بين رد

81 - موءودة رسمه على القياس جرى … وقيل موودة وقف الرسم لاتئد

82 - وإن يك الهمز بعد ساكن ألف … سهله في الوقف إن قياسه ترد

83 - كجاءنا هاؤم الىء تساؤكم … وباب ماء تراءا الزم ولا تهد

84 - ووافق الرسم إن كان مسهله … صوروا واوا أو يا والغير لاتزد

85 - وكل ما قيل من إبدال همزته … بخالص الواو والياء فذاك رد

86 - وعد لحنا وللأنباط نسبته … وشذ قول ابن مهران به فعد

87 - وقيل جاكم جزاه أولياه لدى … مالم يصور هم الرسم وليس جد

88 - في كيراءون ميكائل يمنع إذ … جمع السواكن فيه مانع القود

89 - هذا إذا قدر المرسوم ثانية … وإن يك صورة صار كذي رشد

90 - وكدعاءي مع الىء متى تقفن … بالرسم والياء ثاني الصورتين بد

91 - فمد مدة محياي لساكنه … واندرج المد للتغيير فاستفد

92 - وإن يكن صورة سهل ومد له … واقصر قياسا ووفق رسمه تجد

93 ـ في وقف ماء تراءا امنع والأول قد
أحبروا به النصب كالمرفوع في مدد

94 ـ على الربيعة الفصحا ومبهجنا
قد نص هذا به وصح في سند

95 ـ فالرسم فيه بحذف كالقياس وهاهنا
هشام يرى كحمزة الرشد

باب ما صور من الهمز
واوا وياء طرفا على غير قياس

96 ـ الهمز إن كان مرسوماً لدى طرف
واوا وليس على الرفع بمتجرد

97 ـ ففي القياس كما قدمت تبد له
كالعلمؤا يتفيؤا وامططن تجد

98 ـ أو اقصرن ما به الهاوي ورسمهم
بالواو وقفا ووجهي مده اعتمد

99 ـ قد أبدلوا الهمز واوا في الجميع وفي
ما قبله المد تفصيل لمجتهد

100 ـ فإن تك اجتلبت في الوقف ساكنة
كها الزكوة فاشبع مده فقد

101 ـ أو قلت أبدل بالتحري ثمت سكنوا
فقد اعتبار الأصل لاتمد

102 ـ وإن قصرت لتغيير ففيه وجوه
ساكن الوقف فاجعلها كمطرد

103 ـ وباب تلقاءى إن قدرت زائده
همزا فكالواو أو لا كالقياس ثد

باب الهمز المتحرك
وسطا بعد حركة

104 ـ وإن تحرك مع ما قبله وسطا
اضربه تسعة سلمت من كبد

105 ـ مفتوحة بعد غير الفتح أبدل بيا
أو واوها وكذاك الرسم فاستفد

106 ـ كملئت مائة مؤجلا ويؤ
اخذ وحركها كالأصل لاتهد

107 ـ في السيئات امنعن لا المنشئات
بحذف ألف ولياء فيه منفرد

108 ـ نحو تنبئكم والواو ليس به
سهل أو أبدل للأخفش به تقد

109 ـ ووافق الرسم مالأخفش ومع
الواو احذفن واضمن ما قبل يتحد

110 ـ تقول في استهزءوا استهزوا وقس
ولدى الأخفش أبدل بيا وللإمام زد

111 ـ تسهيله وإذا الواو لصورته
فالرسم وفق بتسهيل ولا تحد

112 ـ وغير هذا فاحمل ذكره وردن الـ
ـعذب واقف سبيل الرشد واقتصد

113 ـ وبين بين لما يبقى من اضربه
وما يخالف فيه الرسم خذه ند

114 ـ ماحذفوا فيه إحدى الصورتين
إذا قدرت حذفا صف بمتحد

115 ـ وإن يك الأول المحذوف صورته
فإنه لاحد ذا طرائق قدد

116 ـ متكئاً ملجئاً قد أبدلوا ألفا
وحذف إحداهما للرسم ذو عمد

117 ـ حملا على الفعل لما أبدلوه به
وفي رءا وتئا ضعف ذا فعد

118 ـ وبابه كئاب وعليه يقول را
وتا خلف أيا حذفت صد

119 ـ ومثل ذاك لخلاد راءا ولدى تئا
امتناع لفتح النون في السند

120 ـ وحرفي النجم لاتعد قياسهما
بين بين قفن وفقت للرشد

121 ـ كخاطئون بواو أو بيا حذفوا
وإذ مضى الضم قبل الواو لم يعد

122 ـ وكتطوهم لرسم حذفوا ورءوس
واجعلن أولا لينا ولا تمد

123 - وفي يؤده وقس يقوله الهذلي
مثل تطوهم لرسم الثاني ذا جلد

124 - وجيرءيل بئيس منعوا بها رسا
لفتح وياء المد ذي العند

125 - ما قيل في الباب من ابدال همزته
ياء تحرك ذو ضعف بلا مدد

126 - ما حذفوا لاختصار نحو أطفأها
فيه وجيه لوقف الرسم كالثمد

127 - بحذفه كالكسائي إذ رواه لدى
أريت لاكنه للغير لم يسد

باب الوقف بالروم والاشمام
على المحقق طرفا

128 - إذا نقلت لساكن تحركه
فقف بروم واشمام بلا كبد

129 - كدفء ثم الذي أدغمت فيه
وما أبدلت للرسم كالملؤا نشؤارد

130 - ويبدئ اللؤلوا الجاري لأخفشنا
فكلها رم وأشمم والسكون رد

131 - وما تبدل حرفا ساكنا كيئا
جا ويدا فامنعها بلا فند

132 - وإن تردحكم باق لم تلم به
فالحرز شد به الأسباب بالوتد

133 - لكن يوافق فيه الروم رسمهم
في غير ذا ألف فل به تجد

134 - ونحو تنشيء إلا أن تسهله من
جنس ما قبل معضل الوجوه صد

135 - وكلما نص في همز لدى طرف
لحمزة فهشام فيه كالأسد

136 - قيا وربما وذا في الحرز منبهم
كذالك الأصل سلمت من الحسد

137 - وإن ترد نص ما طوت مقالتها
فاعن بنشر كنوز حرزنا تجد

138 - وقل جميلا تنل من كل صالحة
وظن خيرا تكن من خير معتقد

139 - والقصد جمع الذي حوت ونسأله
عفوا وإن لنا الإخلاص في صدد

140 - وقد وفت وبحمد الله اختمها
جامعة وقفى الحبرين في رغد

141 - على الذي صح للإعلام منتسبا
ولست فيا رووا بالندر ذا جلد

142 - تكفي الذي رام في الأحكام مبتدئا
والله يغفر لي ما كبته يدي

143 - ثم الصلاة على المختار من مضر
محمد خير من به الأنام هدي

144 - وءاله والصحابة الكرام ومن
يتبعهم محسنا لآخر الأبد

هذه هي دالية الشيخ القارئ أبي عبد الله محمد بن مبارك المغراوي جمع فيها بشكل دقيق وواضح لم يسبق إليه كل ما يتعلق بتخفيف الهمز لحمزة وهشام، أقدمها للراغبين في إتقان قراءتي الحبرين المذكورين راجيا من الحق سبحانه وتعالى أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

سلا - الدكتور التهامي الراجي الهاشمي



للأستاذ عبد القادر زمامة

978 ـ سوى الجهر بالشكوى...!

وجدت في النصوص المختارة من رحلة ابن رشيد السبتي (721 هـ ـ 1321 م) التي نشرها الشيخ حمد الجاسر بمجلة ـ العرب ـ الصادرة بالرياض ج 6 س 3 مارس 1969 م.

«حكى لي صاحبنا الشريف أبو عبد الله محمد بن الشريف الفاضل أبي القاسم الحسيني حفظه الله. قال : حضرت بمكة عند الشيخ مجد الدين الطبري. فجاءه مستفت يسأله عن تقبيل الحجر الأسود. وقال : علمني السنة في تقبيل الحجر الأسود... يعني أبصوت.. أو بدون صوت... فذكر له التقبيل من غير تصويت. فقال : إنني لا أستطيع...

قال : فأطرق الشيخ... ثم ارتجل هذه الأبيات :

وقالوا إذا قبلت وجنة من تهوى
فلا تسمعن صوتاً. ولا تُعْلِن النجوى

فقلت : ومن يملك شفاها مشوقة
إذا ظفرت يوما بغايتها القصوى

وهل يشفي التقبيل إلا مصوتا
وهل يبرد الأحشا سوى الجهر بالشكوى

هكذا قال : «وهل يشفي» فحرك حرف العلة للضرورة...! ولا ضرورة بأن يقول :

«وهل يبرئ... وهي رديفة يشفي...!»

979 ـ وتمرثه...!

وجدت في كتاب : «ترتيب المدارك» للقاضي عياض السبتي في ترجمة القاضي : عيسى بن مسكين.. ج 4 ص 339 ط وزارة الأوقاف. الرباط.

«... فأمر بالرجل إلى الحبس. وقال : لما دخل علينا أميننا. ومن يعيننا على الحق. أردت أن تؤذيه. وتمرثه...!»

980 ـ ضبط (ابن أبي زمنين...!)

وجدت في «الرحلة العياشية» ج 2 ص 201 عند ذكره لأسانيد الفقهاء المالكيين...

«... عن كبير المحدثين والفقهاء.. أبي عبد الله محمد ابن عبد الله ابن أبي زمنين بفتح الزاي والميم وكسر النون. البيري. مؤلف كتاب «المنتخب» في الأحكام...»

981 ـ وجدنا به قهوة...!

وجدت في الرحلة العياشية ج 2 ص 94.

ثم ارتحلنا منه [رابغ] وغوى أهل الرفقة عن الطريق...! ونزلنا آخر الليل عند السبيل الذي هناك. ووجدنا به قهوة وقوما يبيعون العلف. والحبحب...»

982 ـ شراب أنْزِير...!

وجدت في مخطوطة المقامات اللزومية لكاتبها محمد بن يوسف السرقسطي المتوفى (538 هـ ـ 1143 م) ما ياتي :

«... ثم دار بينهم شراب يدعونه بأنْزِير...! لا بالحلو. ولا بالمرير. قليله إن لم يقتل قاتل...! وحده للنفوس غائل. أو حائل...!»

983 ـ فكانت تكثر من الاكتحال...!

وجدت في مخطوطة كتاب : «أنس السمير» لمؤلفه علي مصباح الزرويلي المتوفى (1130 هـ ـ 1717 م).

«... وأعجب من هـذا أن بعض هـؤلاء كـان يقرئ صحيح البخاري... فقال في قول رسول الله ﷺ : عليكم بالإثمد. فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر...! :

«وقد أخذت زرقاء اليمامة بهذا الحديث...! العظيم...! فكانت تكثر من الاكتحال..! !!!»

984 ـ حلق شعر الرأس...!

وجدت في كتاب «المنهاج الواضح» لمؤلفه أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي محمد صالح...

ص 186. ط القاهرة 1933 م.

«... وفيه [حلق شعر الرأس] عصمة النفس والمال. من قطاع الطرق. ولا سيما عندنا ببلاد المغرب. فإنهم يعظمون أهل الحلاق. لأنه عندهم نسمة لأهل الدين. وعلامة المريدين...!!!»

985 ـ نوع من الدباغة...!

وجدت في كتاب «تاريخ فلاسفة الإسلام» لمؤلفه : محمد لطفي جمعة ص 294 عند ذكر شيوخ : محمد بن عربي الحاتمي المتوفى سنة (638 هـ ـ 1240 م). «**الثاني عشر: أبو علي الشكاز... وكانت حرفته نوعا من الدباغة...!! وكذا**».

986 ـ أبو حيات...!

وجدت في كتاب «تتمة المختصر في أخبار البشر» لزين الدين عمر ابن الوردي (749 هـ ـ 1349 م) ج 2 ص 482. ط بيروت 1970 م.

«... وفيها (سنة 745 هـ) في ربيع الآخر بلغنا وفاة الشيخ أثير الدين أبي حبان النحوي المغربي بالقاهرة. كان بحرا زاخرا في النحو. وهو فقيه ظاهري...! وكان يستهزي بالفضلاء... من أهل القاهرة... ويحتملونه لحقوق اشتغالهم عليه... وكان يقول عن نفسه :

أنا أبو حيات...! بالتاء. يعني بذلك تلاميذه...!

987 ـ في «حماة» نظمت «الألفية»

وجدت في كتاب «تتمة المختصر» لابن الوردي ج 2 ص 318.

«... واخبرني شيخنا قاضي القضاة شرف الدين هبة الله بن البارزي قال :

«نظم الشيخ جمال الدين ابن مالك. الخلاصة «الألفية» بحماة... عندنا برسم اشتغالي فيها... وكنت شابا. وخدمته. ولقد رأيت بركة خدمتي له...!!»

988 ـ الحرف التي تنقلت...!!

وجدت في كتاب : «المنهج الفائق» ـ لأبي العباس الونشريسي (914 هـ ـ 1508 م) ط حجرية. ص 1. الملزمة 8.

«...أما الحرف التي تنقلب بإصلاح يسير. كالبزاز، والقزاز، والحرار، والخراز، والخباز، والجيار، والحناط، والخياط، والعطار، والقطان، والقصار، و الخضار، والحصار، والحطاب، والدقاق، والرقاق، والزقاق، والقصاب، والقباب، والبقال، والغسال، والعشال : فقس على هذا في الأنساب. والكنى، والألقاب. تصب. إن شاء الله تعالى...».

عبد القادر زمامه



عصر الطوائف الثاني

510 هـ — 546 هـ

تأليف: الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش
تقديم وتعليق: الاستاذة نجاة المريني

يشكل تاريخ المغرب والأندلس حلقة متميزة من حلقات التاريخ العربي الإسلامي، حظي بعناية كثير من المؤرخين المشارقة، وفي مقدمتهم المرحوم الدكتور محمد عبد الله عنان في مؤلفاته العديدة، والدكتور إحسان عباس الذي يكاد يكون متخصصاً في الدّراسات الأندلسية المغربية تاريخاً وأدباً، وكذا المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهواني، والدكتور محمود علي مكّي وحسين مؤنس وغيرهم من روّاد الدراسات التاريخية والأدبية والنّقدية في العصر الحديث.

كما أن اهتمام المغاربة بالتأريخ لبلادهم، وبدراسة الآثار الأدبية والفلسفية والنّقدية وغيرها عرف تطوّراً كبيراً في الفترات الزمنية الأخيرة، فمؤلفات العلاّمة الفقيه عبد الله كنّون والدكتور محمد حجي وابراهيم حركات وعبد اللطيف الشادلي ومحمد القبلي وأحمد التوفيق وعباس الجراري ومحمد بنشريفة ومحمد بنشقرون وغيرهم من المختصين في الدراسات التاريخية والأدبية بصفة خاصة يؤكد أكثر من أي وقت آخر بأن المغاربة تخلصوا إلى حدّ ما من عقدة الشرق، وأنهم أخذوا ينصرفون إلى دراسة واقع تاريخهم بسلبياته وإيجابياته بمنظورهم الخاص، وبطريقة علمية موضوعية.

ومن حين لآخر، تفاجئنا المكتبة المغربية بالجديد فيما يتعلّق بالمغرب، لعل آخر هذا الجديد هو ما أتحفتنا به الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش في مؤلفها «الأندلس في نهاية المرابطين ومستهلّ الموحدين» الصادر عن دار الغرب الإسلامي في طبعة أنيقة جيّدة في مارس 1988.

وإن كان الكتاب في الواقع يعالج حقيقة الأوضاع السياسية والمجتمعية والاقتصادية والثقافية في بلاد الأندلس، فإنه لا يمكن بحال إغفال الحديث عن العدوة الأخرى (المغرب)، حيث كان المغرب والأندلس بلاداً موحّدة تحت راية الإسلام، وتحت حكم السلطة المغربية سواء في عهد المرابطين أو في عهد الموحدين.

والأصل في هذا الكتاب كما تذكر المؤلفة ص. 18 «رسالة جامعية قدّمت إلى كلّية الآداب، جامعة عين شمس لنيل درجة الدكتوراه»، ومن ثمّ فإن العمل في هذا الكتاب اقتضى العودة إلى مصادر متنوعة مخطوطة ومطبوعة ليكون وثيقة هامّة عن تاريخ المغرب والأندلس في فترة خصبة هي فترتا المرابطين والموحّدين أو ما سمّته المؤلّفة بعهد الطوائف الثاني في الأندلس».

☆ ☆ ☆

تتوزّع الكتاب أبواب أربعة تتلخص كما يأتي :

الباب الأول : ويتناول الحياة السياسية في الأندلس ابتداء من فترة ضعف المرابطين واضطراب أحوالهم، إلى أن تمكّن الموحّدون من بسط نفوذهم، وتقوية مركزهم السياسي في المغرب والأندلس.

لقد فصّلت المؤلّفة الحديث عن الحياة السياسية تفصيلاً دقيقاً، وناقشت وقائع وأحداثاً سياسية وتاريخية من خلال كتابات المؤرخين المعاصرين وغيرهم، باحثة عن الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى ضعف سلطة المرابطين، متقصّية نقط الضّعف والقوة في فترات حرجة جداً من تاريخ الأندلس بصبر وأناة.

كيف نجحت الثّورة على المرابطين ؟ مراحل الثّورة عليهم في الأندلس والمغرب ؟ كثير من الحقائق الجزئية التي كان بالإمكان أن يمرّ عليها المؤرّخ دون اعتمادها وقائع أساسية جعلتها المؤلّفة الدّكتورة عصمت عبد اللطيف معتمدها الأول في التّوصّل إلى النّتائج المعروفة، وجعلت من الأحداث البسيطة عالماً زاخراً بالمعلومات التي انكبّتْ على تحليلها ونقاشها لتقديم النّتائج بكل سلبياتها وإيجابياتها ومن ثم فإن تفتيت الوقائع التاريخية التي عملت على سقوط دولة المرابطين ـ كسوء اختيار بعض القضاة لأعوانهم، وتدهور الأوضاع الاقتصادية، وثورة القضاة بالأندلس كثورة ابن حمدين في قرطبة وابن حسّون في مالقة وابن عبد العزيز ببلنسية وغيرهم ـ ساعدت على الوقوف على حقائق تاريخية ربّما كنّا نعرفها بصورة عامّة، غير أنّ عملية التّفتيت ثم التّركيب فيما بعد لجمع شتات الأحداث، أضفى على الكتابة التاريخية عند المؤلّفة طابعاً غير طابع التأريخ، وإنّما دراسة الواقعة التاريخية أو الحدث التاريخي من كل جوانبه ونقاش مستغلقاته بعين ناقدة متفحّصة.

هذا، وقد قسّمت المؤلّفة الباب الأول إلى فصول أهمها :

الفصل الأول : وخصصته للحديث بتفصيل عن أسباب ضعف المرابطين في العدوتين (المغرب والأندلس).

الفصل الثاني : وجعلته للحديث عن الثورة على المرابطين مفصّلة القول في نقطتين :

الأسباب الممهّدة للثورة ـ مرحلة الثورة.

الفصل الثالث : اهتمّت فيه المؤلّفة بالموحّدين الأوائل في الأندلس مبرزة الدور القيادي الذي قام به الخليفة عبد المومن بن علي، وكيف نجح في استمالة الثوار الأندلسيين أوّل الأمر، إلى أن خضعت كلّ بلاد الأندلس للحكم الموحدي. ولاشك أن الأحداث التي عرفتها الأندلس في هذه الفترة أحداث متشابكة متداخلة بلورتها الحقائق السياسية والتاريخية التي وقفتْ عندها المؤلفة لتبرز ما كان مسكوتاً عنه أو متحدّثاً عنه بصفة عامّة في مؤلّفات أخرى.

الفصل الرابع : وفيه انتقلت المؤلّفة إلى رصد أنظمة الحكم في الأندلس من خلال الولايات الإدارية، ومناصب الحكام كالأمير والوزير والقاضي.

وباعتبار أجهزة الحكم في العهد الموحدي تميّزت عن غيرها في عهد المرابطين، فقد فصّلت المؤلّفة الحديث عن طبقات الحكام : فهم يتوزّعون بين أهل الحكم والمريدين وغيرهم.

ويظهر أن الجيش في العهدين المرابطي والموحّدي حظي بعناية خاصّة من حيث تنظيمه باعتبار أساطيله الحربية والتّجارية، وباعتبار رواتب الجند إلى غير ذلك، «فقد كانت تصرف للجند المرتبات والمنح والأموال أثناء القيام بجملة، يضاف إلى ذلك ما كان يوزّع عليهم في الاحتفالات العامة والمناسبات، أمّا مرتّباتهم فكانت تصرف ثلاث مرات في السّنة لجند الموحّدين، بينما الجند الغزّ يحصلون على مرتّباتهم شهرياً» (ص. 147).

الباب الثاني : الأحوال الاقتصادية :

وفيه تنتقل المؤلفة بالدارس من الوجهة التاريخية بكل أحداثها المتسلسلة، وبكلّ جزئياتها الدّقيقة إلى وجهة أخرى تتناول الأحوال الاقتصادية من خلال فصول أربعة :

الفصل الأول : وفيه تظهر نزعة الارتباط بالأرض عند العربي بصفة خاصّة، منذ أن عرف العرب الاستقرار،

وكوّنوا دولة لها أنظمتها ولها دواليب حكمها، وقبل أن تنصرف المؤلّفة إلى الحديث عن موضوع هذا الفصل، وهو الزّراعة في الأندلس وخصوبة الأرض وعطاءاتها في فترات العطاء وفترات الجفاف، فقد انكبّت على دراسة ومناقشة نقط بعينها حدّدتها في مقدّمة الفصل (كوضعية الأرض، واختلاف الفقهاء في حكم أرض المغرب والأندلس منذ الفتح، وأنواع وضعية الأراضي) (ص. 153) إلى غير ذلك.

والجدير بالملاحظة أن العناية شملت كذلك أسماء المزروعات كالفواكه وزراعة الحبوب والبقول وقصب السّكر، والمناطق التي تختص بزراعة كلّ مادّة، «فزُرع الكتان والقطن في فحص غرناطة، وزرع في شرف إشبيلية فجادت زراعته، ووفُر محصوله» (ص. 166).

الفصل الثاني : ويتناول بالدّرس الصناعة بأشكالها المتعدّدة : صناعة المنتوجات الزّراعية، وصناعة الملابس والجلد والأدوية وغيرها من الصّناعات المتطورة في الأندلس خاصّة في عهد المرابطين حيث «برع أهل الأندلس في استغلال المنتوجات الزراعية والحيوانية في صناعات عديدة مثل صناعة الجبن والسمن وتجفيف الفواكه» (ص. 177)، أمّا صناعة الحلي فقد «تطورت في عهد المرابطين تطوّراً كبيراً لوجود المادة الخام مثل الذهب والفضة والزئبق والنّحاس والرّصاص والقصدير...» (ص. 181).

الفصل الثالث : ويُعنى بالتّجارة كمورد من موارد العيش الأساسية، وهكذا اشتهرت بعض المدن بأسواقها التّجارية، ومما ساعد على نماء التّجارة وازدهارها تأمين الطّرق التّجارية، مع ما تتطلّبه المهنة من مراقبة المسؤولين على المرافق التجارية لضمان الجودة في المادّة التجارية المعروضة ولحرب الغش بكل أنواعه.

ولاشكّ أن الحديث عن التّجارة بنوعيها الداخلية والخارجية يدعو إلى الحديث عن الصّادرات والواردات في فترات ضعف المرابطين، وفي فترات قوة الموحّدين.

ولم يُغفل الفصل الإشارة إلى تجارة الرّقيق من الجواري والغلمان حيث كانت هذه التّجارة «تحتل قائمة الصادرات إلى جهات كثيرة من أنحاء العالم، وكانوا يحصلون عليه من سبي الافرنجة وجليقة» (ص. 208). وهذا لم يمنع أن يكون الرقيق أيضاً من الواردات إلى الأندلس حيث «كانت أهم الواردات إلى الأندلس الجواري والعبيد، وكان شمال إفريقيا والسودان وجنوب شبه الجزيرة العربية ومصر من أكبر أسواق الرقيق الأسود، وكانت قوافل هذه البلاد تجلب الذهب والعبيد، ويجلب الرقيق والجواري من الهند وأرمينيا وتركيا والعراق... وكان ثمن العبيد البيض يزيد على السود، وكان هذا الرقيق يرد إلى قرطبة، ثم يعاد تصديره مرّة أخرى إلى أماكن كثيرة داخل وخارج الأندلس بعد قيام النخاسين بتدريبهم على حرفة من الحرف أو فن من الفنون». (ص. 209).

الفصل الرابع : وتتوزّعه نقط تفصيلية حول أصول واردات الدّولة من ضرائب وغنائم وجزية، ويظهر أن العملة المرابطية من خلال أحد مباحث هذا الفصل كانت جيّدة، لها قيمتها ممّا جعلها «عملة دولية أولى، يدل على ذلك شيوع الثقة بالدينار المرابطي، وإقبال الناس عليه» (ص. 236). بل أكثر من ذلك فقد «بدأ المرابطون في سكّ عملتهم في قرطبة ابتداء من 486 هـ، ونشطت دور السّكة في عهدهم وموّلوها بالذهب الذي يأتي من السودان الذي سيطروا عليه، والدينار المرابطي الذهبي ظلّ مستخدماً لعدّة قرون كأهمّ عملة ذهبية في المغرب». (ص. 235).

الباب الثالث : الحياة الاجتماعية :

تشكّل فصول هذا الباب إطلالة متميزة على الأوضاع الاجتماعية في الأندلس، فتناول الفصل الأول عناصر السكان في المجتمع الأندلسي، ذلك أن هذه العناصر تعدّدت نظراً لعامل الهجرة والاختلاط والزواج، فهم عرب ومولّدون وأهل ذمّة وصقالبة وبربر. ولئن كان تحديد هذه العناصر بهذه الدّقة فإن امتزاجها وانصهارها كان أساس المجتمع الأندلسي المتحدّث عنه بكلّ أجناسه المختلطة.

وتناول الفصل الثاني طبقات المجتمع وطوائفه سواء في عهد المرابطين أو في عهد الموحدين، وهي مرتّبة حسب مكانتها الاجتماعية : طبقة السّادة والشيوخ، وطبقة

الفقهاء، وطبقة الخاصّة، والموظفون ورجال العلم والتجار والحرفيّون إلى غيرهم من الطبقات الأخرى التي خصّتها المؤلّفة بالدّرس كطبقة المرتزقة والصّوفية.

أما مظاهر الحياة الاجتماعية في البوادي فهي موضوع الفصل الثالث، حيث تميّزت مقدّمة هذا الفصل بتوضيح مفهومي القرية والبادية في الأندلس عنهما في مناطق أخرى في إفريقية والشرق، مع ذكر أنماط الحياة في البوادي الأندلسية ابتداء من بيوتها وأعمال أبنائها وأجورهم، مع الإشارة إلى كلّ ما كُتِب عن ذلك عند المؤرخين القدماء كابن بشكوال وابن سعيد وابن عبدون وابن خلدون، وانتهاء عند عادات أهلها في أفراحهم ومواسمهم خاصّة ما يتعلّق بالزّواج وتقاليده.

أما الفصل الرابع فقد تناول مظاهر الحياة الاجتماعية في الحضر، هذه المظاهر يمكن تلخيصها في :

- احتفالات أهل الحضر بالأعياد الدينية والمناسبات الاجتماعية كالزواج والإعذار.
- الحديث عن المرأة الأندلسية من جهة والمرأة المرابطية من جهة أخرى، من حيث الطبقة واللباس والسفور والحجاب وجهاز العروس إلى غير ذلك.

ويمكن اعتبار هذا المبحث طريفاً حيث استقت المؤلفة معلوماتها ممّا كُتب عن المرأة في ثنايا كتب الأندلسيين والمغاربة كابن الأبار وابن القاضي وابن خفاجة والبيدق وغيرهم أثناء حديثهم عن الأوضاع الاجتماعية في بلاد الأندلس والمغرب.

الباب الرابع : وخصصته المؤلّفة للحديث عن الحياة الثقافية، وجعلته فصولا خمسة :

الفصل الأول : وتناولت فيه التيارات الفكرية في الفترتين، مؤكّدة «أن الازدهار الفكري في عهد الموحّدين ما هو إلاّ ثمرة جهود المرابطين في تشجيع العلم والعلماء، فالعالم والمفكر لا يمكن أن يولد بين يوم وليلة، ومعظم المفكرين والعلماء الذين ظهروا في بداية عهد الموحّدين وُلد معظمهم وعاش وتلقّى العلم مع بداية دخول المرابطين للأندلس» (ص. 349)، من هذا المنطلق ناقشت المؤلّفة آراء بعض المستشرقين في حقيقة الوضع الثقافي في عهد المرابطين، مبرزةً أهمّ التيارات التي عرفها العصر كالتيار الصّوفي الفلسفي، والتيار الديني التقليدي، منبّهة إلى كثرة المؤلّفات التي كانت خير دليل على ازدهار الحياة الفكرية والثقافية بالرّغم من كلّ الملابسات السياسية والاعتقادات المذهبية.

الفصل الثاني : وتركز فيه الحديث عن معاهد ومراكز الثقافة التي تنوّعت بتنوّع الحواضر الأندلسية كقرطبة وإشبيلية وغرناطة وشلب وغيرها، فقد كانت هذه الحواضر تضمُّ النّخبة اللاّمعة من العلماء والمفكّرين والأدباء الذين كانوا يُعنون بالإضافة إلى التدريس بالتأليف في العلوم المختلفة الدينية والفلسفية والأدبية وغيرها.

أمّا عن تعليم الأطفال، فقد كان يمرُّ بمراحل فصّلتْ فيها المؤلّفة القول، مشيرة إلى ظاهرة انتشار الكتب والمكتبات باعتبارها المعين الذي يرشف منه الأطفال والكبار على السواء.

الفصل الثالث : ويكاد يكون مجالاً تطبيقياً للفصلين السابقين، حيث فصّلت فيه المؤلّفة القول عن العلوم النّقلية التي تفوّقت في هذا العصر «عصر الطوائف الثاني» كالفقه والقراءات والتفسير والحديث وعلم الكلام، ممثلة لكلّ صنف من هذه العلوم بطائفة من ألمع رجالهم وهكذا اشتهر في الفقه الباجي وابن القابلة وابن العربي، وفي القراءات ابن ذي النون وابن هذيل، وفي التّفسير ابن عزّ الناس وابن ورد، وفي الحديث القاضي عياض وابن الصّقيل، وفي علم الكلام ابن العربي والألبيري والسرقسطي وغيرهم.

الفصل الرابع : ويهتم بالعلوم العقلية وأهمّ رجالها، وقد مهّدت المؤلفة لهذا الفصل بما كانت تلقاه العلوم العقلية من تشجيع عند المرابطين والموحّدين، وهكذا، فقد نبغ في العلوم الفلسفية مالك بن وهب «جليس ووزير أمير المسلمين علي بن يوسف» (ص. 409) وابن باجة وابن طفيل، وفي العلوم الطّبية ابن زهر وابن القابلة وابن رشد وغيرهم، وفي العلوم الرّياضية ابن الأمين وابن عائشة

والمالقي، ولم تغفل المؤلّفة وهي تتّبع تطور العلوم العقلية في هذه الفترة الحديث عن علوم الفلاحة والموسيقى والعمارة متقصية في ذلك تفصيلات دقيقة، من خلال المصادر المتعدّدة التي كانت تعود إليها لاستقاء مادّتها.

الفصل الخامس : ويهتمّ بالأدب والعلوم الإنسانية، والحديث عن هذا المجال خصب ذو روافد كثيرة، فالأندلس بالإضافة إلى اشتهارها بجمال طبيعتها وبمؤلفات فلاسفتها، اشتهرت بعلوّ كعبها في الميدان الأدبي شعراً ونثراً. وهكذا برز كتّاب لهم شأنهم ولهم خصائصهم كابن أبي الخصال «شيخ كتاب الأندلس، برع في الحديث وعلوم اللّغة والسّير، وتفوّق في الكتابة والنّظم» (ص. 425). ومن الكتّاب الذين اشتهر أمرهم أبو جعفر بن عطية والأزدي وابن الإمام، كما نبغ نحاةٌ ولغويون أمثال ابن هشام والتدميري.

أمّا الشعر، فله عند الأندلسيين «حظ عظيم، والمجيدون منهم ينشدونه في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة» (ص. 430)، ومن ألمع شعراء الأندلس ابن خفاجة وابن الزّقاق والأعمى التطيلي وغيرهم.

ولاشك أن النّساء الشاعرات قد نبغن في ميدان الشّعر - وإن كانت أغلب الأشعار بل كلّها تقريباً قد ضاعت - أمثال حفصة بنت الحاج الركونية، وأم الهنا بنت القاضي وتميمة بنت يوسف بن تاشفين وغيرهنّ.

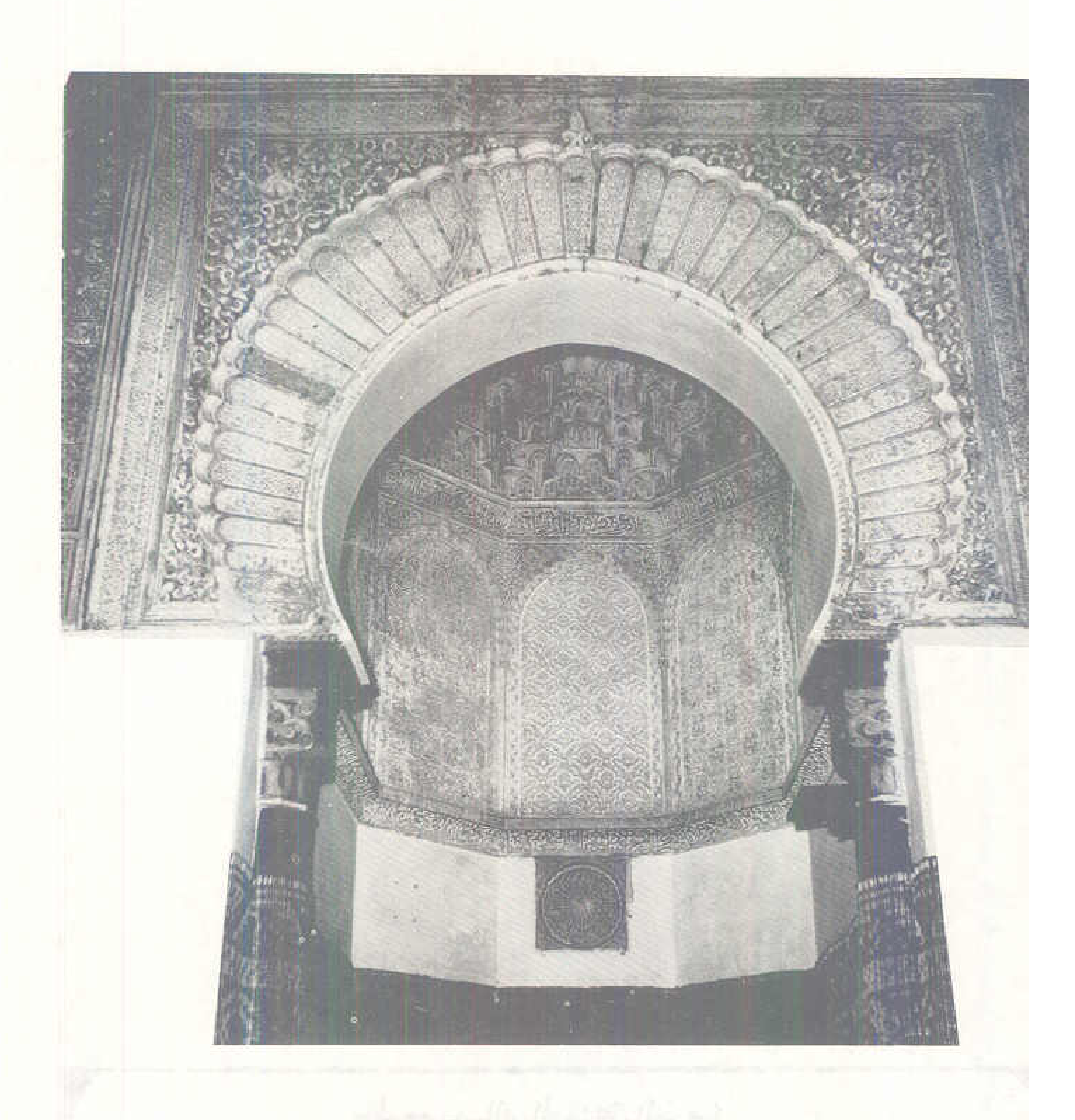
وتشير المؤلفة في آخر هذا الفصل إلى ازدهار فني الموشّحات والزّجل دون أن تغفل الحديث عن أهم كتب التاريخ والجغرافيا التي ألفت في تلك الفترة.

☆☆☆

وتأتي خاتمة الكتاب تلخيصاً لأهمّ أبوابه وفصوله، مؤكّدة انتصار المؤلّفة للمرابطين ودورهم الجهادي في الأندلس، ففي عهدهم «نعمت البلاد بازدهار الزراعة والصناعة والتّجارة، حتّى إن الموحدين بعد استيلائهم على الأندلس لم يستطيعوا الوصول إلى نفس هذه الدرجة من الرّقي والازدهار الاقتصادي» (ص. 425). ولا تخفي المؤلّفة سرّاً إذ أكّدت أنّ الازدهار الثقافي في عهد الموحدين لم يكن إلاّ ثمرة من ثمار واقع الازدهار الثقافي في عهد المرابطين.

لقد تميّز كتاب الدكتورة عصمت عبد اللّطيف دندش، بالتّحليل العميق للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فقد أوضحت بالدّلائل والقرائن آراءها، وكذلك ما استطاعت أن تصل إليه من استنتاجات حول الواقع التاريخي السياسي والثقافي والحضاري في الأندلس، معتمدة على كثير من المصادر العربية والأجنبية، متقصّية الأخبار والحقائق بكثير من الرّوية والتّبصر في أسلوب سهل ممتع، ينقل القارئ من عالم النزاع السياسي إلى عالم التّفوق الفكري والأدبي.

سلا : **نجاة المريني**



محراب جامع القرويين الذي أسس على عهد المرابطين

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

versets coraniques et hadiths sont là pour attester la priorité, donnée par la religion, aux principes à caractère social sur ceux purement cultuels :

« Dieu aime le croyant qui exerce un métier » (Ta.).

« Quel est le meilleur moyen de gagner sa vie ? – Demande-t-on un jour au Prophète :

« C'est – affirme-t-il – le travail manuel et le commerce pratiqué avec intégrité » (A.B.E. Ta).

« Le commerçant intègre a sa place parmi les Prophètes et les élus de Dieu » (T.).

« Dieu réprouve tout accaparement des aliments, susceptible de provoquer la cherté de la vie » (Majmà et Fawaid).

L'Islam et la Science

« La science est plus méritoire que la prière » (BE, Ta) – faisait remarquer le Promoteur de l'Islam ; « Un seul homme de science ajouta-t-il – a plus d'emprise sur le démon, qu'un millier de dévôts ». (T.A). « Les hommes de sciences sont les héritiers des Prophètes dont le seul patrimoine légué au monde est précisément la science (T.D.).

« Quiconque s'éloigne de son foyer (quite sa patrie), à la recherche de la connaissance, est censé agir dans le sens agréé de Dieu » (T). Il s'agit de toutes les branches de la science aussi bien coranique qu'humaine. « La recherche de la connaissance est une obligation pour tous » (T).

L'Islam tient en grande estime les sciences appliquées d'intérêt pratique, les expérimentations positives, le doute créateur et la persévérance dans l'étude et la recherche : « A un groupe d'agriculteurs occupé à greffer des palmiers, le Prophète ordonna, un jour, de cesser une telle pratique ; or, les palmiers non greffés produisirent des dattes de mauvaise qualité ; le Prophète venant à repasser devant ces mêmes agriculteurs, ils s'en plaignirent : « Vous êtes – reconnut le Prophète – plus au courant des choses de votre domaine (M). C'est là un hommage éclatant rendu à la science et à l'expérience.

L'avènement de l'Islam avait bouleverser, en l'espace de quelques décades, la carte du monde et mit en branle une révolution scientifique, intellectuelle et socio-économique. D'esprit « écléctique (et syncrétisateur, l'Arabe, après un stade de décantation, devint créateur. « Malgré le grand nom d'Euclide – fit remarquer E.F. Gautier – ce ne sont pas les Grecs, ce sont les Sarrasins (c'est-à-dire les Musulmans) qui furent les professeurs de mathématiques de notre Renaissance ».

L'Islam n'est plus, ce que certains croyaient, « un pur sujet d'érudition ». Sa tendance au renouveau, sa foi dans sa mission polico-sociale, toute son histoire avec ses longues péripéties de splendeur et de declin et les mobiles constitutifs de ce processus, révèlent au monde un effort continu d'adaptation, alimenté par un riche potentiel qui puise sa force dans le pragmatisme de l'Islam. Il s'agit là d'un système juridico-social dont les données intrinsèques légitiment, de par leur souplesse et leur élasticité intellectuelles, tout mouvement tendant à l'activation d'un conformisme alliant harmonieusement le spirituel au temporel, dans le monde moderne.

La réalisation du bonheur de l'humanité et du bien-être de l'homme, constitue le but suprême d'un Islamisme bien entendu, tel qu'il fut défini par le mouvement salafi, grâce à son efficience concrète et pragmatique. L'économie islamique doit assurer aux citoyens une vie digne, confortable et égale pour tous, sans considération de confession, de race ou de couleur. La misère, l'ignorance et la maladie sont les fléaux que tout régime islamique doit s'ingénier à combattre, avec les moyens les plus appropriés et les méthodes les plus modernes.

L'industrialisation accentue la force du travail et amplifie les problèmes qui en découlent. Mais notre législation, dans ce domaine, est la plus progressiste de toutes les législations du monde, car elle met en connexion l'idéalisme spirituel, la sécurité sociale et le confort matériel que doit atteindre l'ouvrier, en tant que capital-travail. La dignité de ce capital humain est le plus sûr garant de la stabilité et de la prospérité de la communauté musulmane toute entière.

pouvons ajouter que c'est la première religion qui l'ait relevée... ; toutes les législations antiques ont montré la même dureté pour les femmes... ; la situation légale de la femme mariée, telle qu'elle est reglée par le Coran et ses commentateurs, est bien plus avantageuse que celle de la femme européenne ».

L'Islam reconnait à la femme le droit exclusif, dans certains secteurs afférant à la vie conjugale, ménagère et familiale, notamment la maternité. Toute contribution de la femme, dans le régime communautaire, demeure légitime, à condition toutefois, que cette contribution n'entraîne aucune perturbation dans le foyer. Si la capacité de la femme se trouve quelque peu limitée dans certaines activités, telle la magistrature, c'est que la femme est, en général, plus dominée par le sentiment que l'homme ; elle est moins disposée à s'adapter aux rigueurs que nécessitent parfois les circonstances. Le Coran range, certes, la femme à un degré moindre que celui de l'homme ; mais cela ne se justifie que par les lourdes charges familiales qui incombent à l'époux ; il ne s'agit nullement d'infériorité inhérente à la nature même de la femme. La double part reconnue à l'homme dans l'héritage, s'explique aussi par les obligations exceptionnelles auxquelles l'homme est astreint, alors que l'exemption de la femme est totale, quel que soit son degré d'opulence. Le mariage impose au mari l'entretien de son épouse ; cet entretien comporte, d'après le rite malékite, son habillement, son habitation, son alimentation, la fourniture du nécessaire de toilette et d'une domestique pour l'aider dans le ménage.

Le lien du mariage est sacré, « Quiconque se marie, s'assure la moitié de la foi ; il doit réaliser l'autre moitié par la piété (Ta). Sa rupture par le divorce est considérée comme l'acte licite le plus réprouvé de Dieu (S.). La monogamie est le seul système qui doit – d'après les normes de l'Islam – s'adapter à certaines exigences. « Si vous craignez d'être injustes – dit le Coran – n'épousez qu'une seule femme » (S. des Femmes, verset 3) ; on lit ailleurs (verset 128) : « vous ne pourrez jamais traiter également toutes vos femmes, quand même vous le désireriez ardemment ».

Liberté

L'Islam protège la liberté et encourage l'affranchissement des esclaves ; de nombreux hadiths rapportés par d'éminents traditionnistes tels Bokhari, Moslim et Tirmidhi, mettent en relief le souci du législateur, dans ce domaine. Maintes infractions à la loi divine ne sont expiées que par la libération des esclaves. Le prophète, tout en ménageant les traditions de son époque (traditions d'esclavage communes à plusieurs Nations, même des plus civilisées comme les Perses, les Grecs et les Romains), profitait de toutes les occasions pour démontrer aux fidèles le caractère sacré de la liberté. Il s'ingéniait à résorber cet esclavage, alors que plus d'un tiers des Nations modernes refusent, encore aujourd'hui, d'adhérer à la Convention internationale sur son abolition. Il multipliait les chances de cet affranchissement qui devint obligatoire, quand le maître use de violence à l'égard de son domestique (M.D.). Un maître ne devait jamais se prendre pour le seigneur et considérer les serviteurs comme des esclaves. Il devait manger à la même table qu'eux (B.M.D.). Le Khalifa Omar, s'adressant un jour à ceux qui prenaient plaisir à subjuguer les hommes, leur dit : « Pourquoi donc imposer votre joug à des hommes nés libres ! »[1].

Travail et solidarité

L'Islam accorde une place de choix au travail, à la persévérance dans le travail et à l'entr'aide mutuelle entre citoyens. De nombreux

(1) L'esclavage tel qu'il est conçu en Islam est un fait de guerre ; le véritable esclave est le priosonier de guerre ; toute traite, en dehors de ce principe, demeure illégale, quoiqu'elle fût pratiquée, de tous temps en terre d'Islam, contrairement à ces prescriptions.

« Ne peut être considéré comme croyant celui qui mange à satiété, pendant que son voisin meurt de faim » (A.M T.I p. 201).

« Tout croyant est vis-à-vis de ses frères, comme un miroir dans lequel se reflètent leurs défauts » (A.M T.I p. 333).

« Le bon croyant ne doit dire que du bien, sinon il doit observer le silence (B. et M.).

« Aimer et servir un voisin constituent des actes de foi » (A.M.).

« Le croyant est tenu de respecter les biens et la vie d'autrui » (BE).

« O Croyants ! Observez strictement la justice... dussiez-vous témoigner contre vous-mêmes, contre vos parents, contre vos proches... » (Sourate des Femmes, verset 134).

O Croyants ! soyez fidèles à vos engagements » (S. de la Table, verset 1).

« Réconcilier deux êtres séparés est un geste plus méritoire que de faire la prière, le jeûne et l'aumône » (A.M T.I P. 482).

« Celui qui est dépourvu de pudeur, ose tout se permettre » (A.M T. 2 p. 52) : « La pudeur est une marque de foi » (p. 61). « Dieu agrée deux qualités chez le croyant : la pudeur et la longanimité (ou la pudeur et la pondération ou la mesure) (A.M T. 2 p. 42).

« La turpitude et l'indécence sont les plus vils des caractères qu'un croyant puisse avoir » (A.M. T.I. P. 412).

« un croyant peut toujours espérer l'expiation de ses forfaits, sauf en cas d'assassinat » (B).

La valeur du « geste » d'un fidèle est hautement appréciable, en Islam, « Quelle est l'aumône la plus méritoire ? demande-t-on un jour au prophète – C'est-répond-il – le sacrifice consenti, dans un but humanitaire, par un pauvre dont les moyens sont très limités. (N.D.). Dans un autre hadith, le Prophète précise « qu'une simple obole donnée en aumône par un pauvre, vaut mieux qu'une centaine de milliers accordés par un riche (N) ».

« Dieu ne prend pas en considération vos aspects extérieurs, ni votre degré d'opulence ; il tient surtout compte de votre intention et de vos actes » (M. et Ibn Mâja).

« La véritable richesse ne réside pas dans l'aisance matérielle ; c'est plutôt la richesse de l'âme » (B.M.T.). Il s'agit de l'élan généreux de l'âme et du sentiment qu'éprouve le fidèle d'être comblé par Dieu, sans dépendre aucunement d'autrui.

« La castration est interdite, car la procréation est un des buts que le croyant doit se proposer d'atteindre » B. T. et N.).

« Supporter avec patience et pardonner, c'est la haute sagesse » (S. de la Délibération, verset 41).

« Dieu ne pourra s'en prendre à l'homme qui venge une injustice qu'il aura éprouvée » (S. de la Délibération, verset 39).

« Dieu n'aime point les traîtres » (S. du Butin, verset 60).

« Traitre est celui qui, consulté, ose donner un mauvais conseil sur des questions qu'il ignore » (A.M. T.I. p. 358).

« Dieu n'aime point que l'on divulgue le mal, à moins qu'on ne soit victime de l'oppression » (S. des Femmes, verset 147).

« Toute âme n'est responsable que de ses propres œuvres : aucune ne portera le fardeau d'une autre » (S. de la Table, verset 164).

« Dieu n'impose à aucune âme un fardeau qui soit au-dessus de ses forces » (S. de la Vache, verset 286)

Les droits de la femme

Le Coran a reconnu à la femme des capacités et des droits inconditionnels, dans toute gestion d'ordre civil, économique ou personnel ; la femme jouit ainsi de la capacité et du droit d'hériter, de donner, de léguer, de contracter une dette, d'acquérir, de posséder en propre, de passer un contrat, d'attaquer en justice et d'administrer ses biens ; elle a aussi le droit de choisir librement le compagnon de sa vie ou d'acquiescer à un tel choix, de convoler en secondes noces, après être devenue veuve ; ce dernier droit n'a été reconnu à la femme occidentale que bien tardivement. (Se référer aux versets 229 à 241 de la Sourate de la Vache et des versets 4 à 35 et 128 de la S. des Femmes).

« C'est aux Arabes – dit Gustave le Bon (dans la Civilisation des Arabes, p. 428-436) – que les habitants de l'Europe empruntèrent avec les lois de la Chevalerie, le respect galant des femmes qu'imposaient ces lois... ; l'islamisme a relevé la condition de la femme et nous

ment des empiètements quelconques, mais de simples et pures médisances sur la personne humaine, sont autant d'éléments qui définissent la foi, dans le contexte de l'Islam. Parfois, des obligations, comme la prière, passant au second plan, par rapport à des pratiques surérogatoires, tels le désir de servir, d'aider et de protéger les faibles, le souci de tact et de délicatesse, une prévenance de cœur raffinée. L'efficience du jeûne est elle-même fonction de divers facteurs, dont notamment la profondeur des sentiments de compassion du fidèle à l'égard des miséreux éprouvés par la faim. La Zakat, aumône légale, est une dîme qui a pour but initial d'assurer une juste répartition des biens ; mais, elle tend aussi à renforcer, chez le croyant, des dispositions qui l'incitent constamment à se préoccuper des autres, a œuvrer pour soulager les misères, en subvenant aux besoins des nécessiteux ou en secourant des gens en détresse. Cette socialisation des biens qui est en même temps une harmonisation des cœurs, ne tend guère à appauvrir une couche de la nation au profit d'une autre, mais plutôt à réaliser, au sein de la société, un certain équilibre susceptible de bien assoir la fraternité entre citoyens. La prohibition des jeux de hasard, de l'usure, n'avait pas une raison en soi : elle était surtout due au sentiment qui animait le législateur, soucieux de diminuer, au sein de la communauté, toute cause de tension ou de malentendu, provoquée par un complexe d'injustice et de spoliation. Toute pratique, toute œuvre initialement légale, devraient être exclues ou mitigées, si elle risquaient de dégénérer en élément de discorde. Une franchise brutale qui blesse n'est plus une qualité ; Le mensonge qui pallie un danger, qui réconcilie deux êtres séparés, est un acte très méritoire. Une bonne intention est susceptible de légitimer un acte originellement illégal, à condition qu'aucune des parties en cause ne soit lésée. Pour ne pas évoluer dans l'abstrait, nous allons définir les droits de l'homme, en Islam, par une exemplification aussi vivante que pratique, sur tous les plans où l'homme doit jouir de la liberté, de la dignité, de l'égalité et de tous les droits qui lui assurent une vie décente, une immunité contre l'abus, le despotisme et la cœrcition, sur le plan confessionnel et économico-social.

Nous allons étayer ces données par une choix de versets coraniques ou de hadiths que nous avons traduits après les avoir extraits de Boukhari (B) de Moslim (M) du Mouatta de Malek (D) Nasaï (N) Tirmidhi (T) et des Mousnad comme celui d'Ahmed Ibn Hambel (A) ou de Bezzar (BE) ainsi que des œuvres de Tabarani (TA).

Les droits de l'homme et la foi

« Le vrai Mouslim (le musulman), est celui qui ne nuit à personne ni par ses propos malveillants ni par ses actes ».

« Le vrai Moumin (le croyant), est celui vis-à-vis de qui tous les hommes doivent se sentir en sécurité, dans leur personne et leurs biens » (T.N.).

On posa au Prophète la question suivante : quelle est la qualité jugée la meilleure chez le musulman ? Il répondit : « C'est de calmer la faim d'un miséreux et de saluer toute personne connue ou inconnue » (B.M.N.). Le salut étant considéré, ici, comme un geste inspirant la sécurité.

« Un croyant physiquement fort est plus valable et est mieux aimé de Dieu qu'un moumin de faible constitution » (M). Ceci implique qu'un bon croyant doit prendre soin de sa santé et développer sa force physique, afin d'être plus utile à la société.

« Dieu aime le croyant qui exerce un métier » (T).

« Mieux vaut, pour un moumin, ramasser du bois pour assurer son gagne-pain que mendier » (S. sauf D.).

– Espérance et persévérance sont le propre d'un croyant. Boukhari dans son El Adab et Moufrad (A.M. T.I p. 563), cite le Hadith suivant : « Si les signes du Jugement dernier venaient à se manifester, au moment où vous vous apprêtez à mettre en terre un plant, n'hésitez pas à le planter ».

« La foi subjuge le croyant en l'empêchant d'être perfide et scélérat » (D).

« Le bon croyant ne profère contre personne des malédictions, des calomnies ou des propos grossiers » (A.M T.I p. 408).

nalité du croyant doit s'épanouir et se libérer, mais non au dépens d'un concitoyen, même de confession différente. La liberté et la dignité de tout concitoyen demeurent péremptoires pour chaucun et pour l'ensemble, sauf condescendance libre d'un membre de la communauté, au profit d'un autre. Cet altruisme a pris, au début de l'Islam, des proportions jamais connues, dans l'humanité. Mais il était si précaire qu'il faisait ostensiblement exception. Selon le prophète lui-même, la période du « Khilafa » ne pouvait dépasser trente ans. Ce Khilafa cristallisait un régime optimum où le spirituel s'alliait harmonieusement au temporel, dans une cité idéale qui a fait ses preuves, durant ce court laps de temps. C'est un précédent très significatif qui constitue un témoignage irréfutable. « L'affirmation métaphysique » – constate Dermenghem – fit promouvoir et orienta la liberté dans « la Cité humaine » ; « dire que Dieu est le plus grand – affirme-t-il encore – c'est fermer la porte à toute servitude, c'est se proclamer et se réaliser fondamentalement libre ». Néanmoins, cette notion métaphysique de la liberté ne doit pas constituer une excuse et une justification d'un quelconque empiètement sur la liberté d'autrui. Je ne partage guère l'idée de mon ami et collègue, Marcel Boisard qui affirme dans son ouvrage « Humanisme de l'Islam » que la « Toute puissance de Dieu conduit à la libération de l'homme à l'égard de l'homme » – et que « plus Dieu est transcendant et absolu, plus l'homme est libre à l'égard de tous les autres ». Ils me semble plutôt que le respect de la liberté, de la dignité d'autrui, donc de son bien aussi, demeure fonction du degré de sa piété ; Dieu ne saurait tolérer à l'égard d'autrui nulle injustice qui constituerait, au contraire, pour le croyant un mobile de damnation. Le musulman, même dans ses élans de transcendance, demeure lui-même ; je ne peux encore acquiescer à la thèse de mon ami Boisard, avançant que « rien ne peut lui (croyant) arriver en dehors de ce que Dieu a prévu pour lui » ; il y a le revers de la médaille, car des traditions prophétiques authentiques précisent que l'aumône, la compassion entre parents et autres, seraient des mobiles pouvant annuler les effets du Destin, de par la Volonté même de Dieu. Le droit du prochain ne peut donc être limité, même dans le contexte d'une transcendance divine, sous l'effet d'un facteur métaphysique. La responsabilité du croyant musulman est définie dans le pur sens de l'équité, sans tenir compte d'une certaine faute originelle telle qu'elle est conçue par l'Occident. Une incarnation divine ne peut dignifier l'homme : il n'a que ce qu'il mérite rigoureusement. Ce sont là les contours qui délimitent la notion du droit de l'homme, en Islam. La Charte coranique est catégorique : la révélation définit les droits et les devoirs de l'homme, ainsi que le processus de leur réalisation, sur le double plan individuel et collectif. C'est ce que mon ami Boisard exprime si bien en affirmant que « les droits du croyant seront la résultante des obligations prescrites aux autres par la religion ». Je tiens à préciser, d'autre part, que l'inspiration religieuse qui marque toute organisation sociale, en Islam, ne va pas jusqu'à la différenciation entre membre musulmans et non-musulmans, d'une même communauté. Cette notion d'égalité foncière se repercute, même sur le plan fiscal où la différence apparente entre dîme et capitation (جزية) avait pour mobile un esprit agissant de tolérance et le souci de ne pas imposer aux concitoyens juifs et chrétiens une fiscalité d'ordre strictement islamique. Partout ailleurs, le « dhimmi » est le protégé par excellence, jouissant d'une immunité totale, au sein d'une société où il se doit de se montrer, en contrepartie, un membre intègre et digne.

Le caractère personnel des devoirs religieux imposés par l'Islam au croyant est moins marqué, dans la masse des obligations canoniques, que l'empreinte sociale. Les impératifs d'ordre communautaire créent, entre citoyens, une solidarité sociale qui prime toute pratique dévotionnelle. Pourtant, l'esprit de collectivité ne doit, en aucun cas, ni émousser la personnalité de l'adepte, ni dégénérer en individualisme égoïste. Les caractéristiques essentielles de la foi sont loin de se cantonner dans des actes purement cultuels. Elles touchent, en premier lieu, les élans du cœur et le comportement des âmes. Tout mérite est surtout conditionné par l'efficience sociale de l'acte accompli par le fidèle. L'amour du prochain, l'altruisme, le respect des droits d'autrui, de la dignité de l'homme, de la parole donnée, le souci d'éviter non seule-

الإسلام وحقوق الإنسان

L'Islam et les droits de l'homme

par : Abdelaziz Benabdallah
membre de l'Académie du Royaume du Maroc

Communication présentée à la Réunion d'experts sur les droits de l'homme dans les traditions culturelles et religieuses (Unesco, Bangkok, 3 – 7 décembre 1979).

En Islam, les droits et les devoirs sont essentiellement religieux. Leur garantie est assurée en principe, par un pouvoir cœrcitif basé sur la foi, en tant que substrat et compendium, comportant par définition d'autres éléments considérés laïquement dans la société moderne, comme facteurs conditionnant l'équilibre social. Ces facteurs sont en général d'ordre civilisationnel et en particulier d'empreintes culturelle, psychologique et idéologique. La nature de la foi, en islam, diffère foncièrement de toute optique occidentale, en l'occurrence, d'autant plus que la notion de « Dîn » الـديـن n'a pas un fonds commun avec le terme religion. Autant un pays occidental tire sa force cœrcitive de mobiles sociologiques et éthiques, autant une communauté musulmane doit puiser, dans la foi, l'optimum de son énergie. Cette communauté qui englobe parfois certains pays sous-développés, de faible conviction religieuse, pourrait être victime d'une dégénérescence socio-économique, fruit d'un déséquilibre moral suscité par l'absence de toute conception adéquate, même civique, du bien commun. Une rupture d'équilibre s'ensuit fatalement entre l'individu et la collectivité, comme aboutissement péremptoire d'une déviation de la foi bien entendue, donc de la Loi révélée dûment interprétée. D'ailleurs, toute société d'obédience religieuse est sujette à une certaine déviation qui serait de graves conséquences, si elle n'est pas renflouée par une rééducation pragmatique saine. Les devoirs sociaux et les pratiques de courtoisie et de civilité en sont l'émanation. Des principes coraniques d'équité, d'intégrité et de co-solidarité sont des concepts d'ordre religieux. L'homme, dans une société islamique, semble jouir, en tant qu'être humain, d'une certaine autonomie, lui afférant des droits, au sein de la communauté. « L'intérêt communautaire » aurait tendance à prendre le pas sur l'intérêt individuel. Mais l'Islam bien entendu doit conférer à l'individu tous ses droits, dans le respect de l'équilibre communautaire: L'individu ne doit pas empiéter sur la communauté et vice-versa. Néanmoins, le croyant peut et doit se sacrifier pour le bien général, dans le contexte d'une option libre et consciente. L'émergence d'un personnalisme aberrant, donc d'un esprit individualiste, ne se conçoit guère, chez un croyant bien attaché à l'esprit communautaire islamique. La person-

فهرس

الحدث السعيد....

ديوان المجلة :

دراسات إسلامية

